مجلة جامعة أم القرى

لعلوم اللغات وآدابها

مجلة علمية محكَّمة نصف سنوية

العدد الرابع عشر

محرم ١٤٣٦هـ / أكتوبر ٢٠١٤م

قـواعــد النشـــر

١– تُقبل الأعمال المقدمة للنشر في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها حسب المواصفات التالية:

أ. يقدم صاحب البحث أربع نسخ ورقية، ونسخة واحدة على أسطوانة ممغنطة (CD).

ب. يطبع البحث على برنامج Microsoft Word بالخط العربي التقليدي Traditional Arabic (بنط ١٦) على وجه واحد، مقاس A4 (٢١ X ٢٩.٧سم)، بما لا يزيد حجم البحث عن خمسين صفحة، بما فيها المراجع والملاحق والجداول.

ج. تُرَقَّم صفحات البحث ترقيما متسلسلاً، بما في ذلك الجداول والأشكال وقائمة المراجع، وتطبع الجداول والصور والأشكال واللوحات على صفحات مستقلة، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن، وتكون الهوامش مكتوبة بطريقة آلية وليست يدوية.

د. يُرفق ملخصان بالعربية والإنجليزية لجميع الأبحاث، بما لا يزيد عن ٢٠٠ كلمة.

هـ. يُكتب المؤلف اسمه وجهة عمله على ورقة مستقلة، مع إرفاق نسخة موجزة من سيرته الذاتية، وتعهد خطي موَّقع من الباحث / الباحثين بأن الباحث لم ينشر من قَبْل، أو قُدِّم للنشر لدى جهات أخرى.

و. تُرفق أصول الأشكال مرسومة باستخدام أحد برامج الحاسب الآلي ذات العلاقة على أسطوانة ممغنطة (CD).

٢– توضع إحالات البحث وهوامشه وتعليقاته في نهاية البحث، بالإشارة إلى اسم العائلة للمؤلف، ثم الاسم الأول، وعنوان كتابه، ورقم الصفحة المحال إليها؛ وإن كانت الإحالة على مقالة فتذكر المعلومات وافية بحسب الضوابط السابقة.

٣– تُعرض المصادر والمراجع في نهاية البحث، على أن ترتب هجائياً، حسب اسم العائلة للمؤلف، ثم الأسماء الأولى أو اختصاراتها، متبوعاً باسم الكتاب أو المقال، ثم رقم الطبعة، فاسم الناشر (في حالة الكتاب) أو المجلة (في حالة المقالة)، ثم مكان النشر (في حالة الكتاب) وتاريخ النشر. أما في حالة المقال فيضاف رقم المجلة، أو العدد، وسنة النشر.

٤– يُمنح الباحث عشر مستلات من بحثه، مع نسخة من العدد الذي يظهر فيه عمله. كما تمنح نسخة واحدة من العدد هدية لكاتب المراجعة العلمية، أو التقرير، أو ملخص الرسالة الجامعية.

المراسلات: ترسل جميع الأعمال والاستفسارات مباشرة إلى رئيس تحرير مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص. ب ٧١٥).

البريد الالكتروني: E-mail: jll@uqu.edu.sa

حقوق الطبع: تُعَبِّر المواد المقدمة للنشر عن آراء مؤلفيها، ويتحمل المؤلفون مسؤولية صحة المعلومات ودقة الاستنتاجات. وجميع حقوق الطبع محفوظة للناشر (جامعة أم القرى)، وعند قبول البحث للنشر يتم تحويل ملكية النشر من المؤلف إلى المجلة.

التبادل والإهداء: توجه الطلبات إلى رئيس تحرير المجلة (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص. ب: ٧١٥)

الاشتراك السنوي: خمسة وسبعون ريالاً سعودياً أو عشرون دولاراً أمريكياً، بما في ذلك أجور البريد.

تنويه: تصدر مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها بمسماها الحالي، بعد أن كانت جزءاً من مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، في مجلداتها (١–٢٠) الصادرة خلال الفترة (١٤١٩هـ– ١٤٢٨هـ) الموافق (١٩٩٩م –٢٠٠٧م).

رقم الإيداع ١٤٣٠/٢٣٥٩ وتاريخ ١٤٣٠/٣/١٨هـ - ردمد: ١٦٥٨/٤٦٩٤

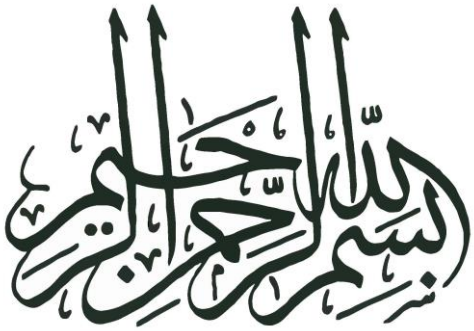
بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة جامعة أم القرى

لعلوم اللغـات وآدابها

مجلة دورية علمية مُحَكَّمة نصف سنوية، تصدر عن جامعة أم القرى، لنشر الأبحاث العلمية الأصيلة في مجال اللغات وآدابها، وفروعها المختلفة ذات الصبغة اللغوية، وفي أطرها النظرية والتطبيقية. وتُرَحِّب المجلة بنشر جميع ماله علاقة بما سبق، من مراجعات كتب، وتقارير أبحاث مُمَوَّلة، وتوصيات مؤتمرات وندوات وأنشطة علمية أخرى، وملخصات رسائل جامعية، باللغتين العربية والإنجليزية، والتي لم يسبق نشرها، أو تقديمها للنشر لدى جهات أخرى، وذلك بعد مراجعتها من قِبَل هيئة التحرير، وتحكيمها من الفاحصين المتخصصين.

المشرف العام

د. بكري بن معتوق عساس

مدير الجامعة

نائب المشرف العام

د. ثامر بن حمدان الحربي

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس هيئة التحرير

أ. د. عبدالرحمن بن حسن العارف

هيئة التحرير

أ. د. سعد بن حمدان الغامدي — د. محمد بن حمّاد القرشي

د. ظافر بن غرمان العمري — د. عبدالله بن ناصر القرني

د. فهد بن محمد القرشي — د. عفاف بنت جميل خوقير

د. مريم بنت عبدالهادي القحطاني

المحتويـات

البحوث باللغة العربية :

- **التَّعَجُّبُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان دِرَاسَةٌ نَحْوِيَّةٌ تَحْلِيلِيَةٌ نَقْدِيَةٌ بِأَبْعَادِهَا النَّفْسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ**

  د. محمد مصطفى القطَّاوي ..... ٩ – ٦٦

- **فضاء المئذنة في روايتي الزيني بركات وكتاب التجليات لجمال الغيطاني**

  د. وذناني بو داود ..... ٦٧ – ١١٠

- **مدارات التركيب للجملة الإنشائية في الأمثال العربية القديمة "جمهرة الأمثال للعسكري أنموذجا"**

  د. أمل شفيق العمري ..... ١١١ – ١٥٨

البحوث باللغة الإنجليزية :

- **Effects of Using Wikis for Developing Saudi EFL Students' Reading and Writing Skills**

  Dr. Abdul Aziz al Fageeh **7-37**

- **The Other in Chaucer and at Ground Zero**

  By Mukhtar Chaudhary **39-73**

التَّعَجُّبُ في شِعْرِ إبْرَاهِيمَ طُوقَان
دِرَاسَةٌ نَحْوِيَّةٌ تَحْلِيلِيَةٌ نَقْدِيَةٌ
بِأَبْعَادِهَا النَّفْسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ

د. محمد مصطفى القطَّاوي

أستاذ النحو المشارك بقسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة الأقصى - غزة - فلسطين

ورد البحث في ٨/ ٩/ ١٤٣٥هـ وقُبل للنشر في ٢٠/ ٢/ ١٤٣٦هـ

التَّعَجُّبُ فِي شِعْرِ إبْرَاهِيمَ طُوقَان دِرَاسَةٌ نَحْوِيَّةٌ تَحْلِيلِيَةٌ نَقْدِيَةٌ

بِأَبْعَادِهَا النَّفْسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ

د. محمد مصطفى القطَّاوي

ملخص البحث

يَتَنَاوَلُ هَذَا البَحْثُ قَضِيَّةً نَحْوِيَّةً بارزَةً، اسْتَوقَفَتِ البَاحِثَ فِي دِيوَانِ الشَّاعِرِ **إبْرَاهِيمَ طُوقَان** وهِيَ مَسْأَلَةُ التَّعَجُّبِ، وَلَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ كَثْرَةِ وُرُودِ الجَانِبِ السَّمَاعِي فِي تَضَاعِيفِ شِعْرِه، وهو أمرٌ يُدرَكُ مِنَ الإِحْسَاسِ بِمَرَامِي التَّراكِيبِ النَّحْوِيَّةِ، وحَاوَلْنَا أَنْ نَربِطَ بَيْنَ هَذِهِ التَّرَاكِيبِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ التَّعَجُّبَ فِي ديوَانِ إبْراهِيمَ **طُوقَان، وبَيْنَ حَالَةِ الشَّاعِرِ النَّفْسِيَّةِ كَدَلَالَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ تَنْبَعِثُ مِنَ الأُسْلُوبِ النَّحْوِي، هَذَا** إِلَى جَانِبِ التَّعَجُّبِ القياسي مِمَّا يَخْضَعُ لِلتَّبْوِيبِ، وَهَذا جَارٍ فِي أَسَالِيبِ العَرَبِ وَفِي القُرْآنِ الكَرِيمِ.

ثُمَّ وَقَفْنَا أَحْيَاناً عِنْدَ اخْتِلَافِ وُجُهَاتِ النَّظَرِ فِي مَوضُوعِ الوَظَائِفِ وَدَلَالَاتِ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ عِنْدَ القُدَمَاءِ، ورَأْيِ المُحْدَثِينَ فِيهَا، وهُوَ أَمْرٌ شَكَّلَ قَضِيَّةً تَحْتَاجُ إِلَى بَعْثٍ مِنْ جَدِيدٍ.

Exclamation in Ibrahim Tuqan's Poetry
A Critical Analytical Study: the Psychological, Social and Political Dimensions

Abstract

This study investigates an important grammatical issue that made the researcher of this study ponder it when reading the poetic collection of Ibrahim Tuqan, i.e. exclamation. This might be attributed to the fact that Tuqan's poetry tends to be heard or narrated. The researcher tried to make a link between structures that include exclamation in the collection on the one hand, and the psychological condition of the poet as an important element that appears in poetry on the other. Also, regular exclamation has been studied in this study. This issue is an approach of Arabs, and it is used in the Holy Quran.

The study also tackles the different opinions regarding functions and indications of grammatical structures in the past and nowadays. It is a matter that requires further investigation and scrutinizing.

أَهَمّيةِ البَحْث:

تَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ هَذَا البَحْثِ فِي: كَوْنِهِ يَتَنَاوَلُ قَضِيَّةً نَحْوِيّةً بَارِزةً تَمَثّلَتْ فِي تَتَبُّعِ أُسْلُوبِ التَّعَجُّبِ فِي دِيوَانِ إِبْرَاهِيم طُوقَانْ.

- وَكَذَلِكَ مَزْجِ النَّاحِيةِ النَّحْوِيةِ بِالدَّلَالَةِ التَّرْكِيبيةِ وَالدَّلَالةِ الشُّعُورِيةِ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيم طُوقَانْ.

- تَوْظِيفِ أَسَالِيبِ تَعَجُّبِيةٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا السَّمَاعِيةُ وَالقِيَاسِيَّةُ، وَمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ؛ مِمَّا يَخْضَعُ لِلْإِحْسَاسِ الْمُنْبَثِقِ مِنْ السِّيَاقِ التَّعْبِيرِيِّ ذَاتِهِ.

أَهْدَافُ البَحَث:

يَهْدِفُ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى مَا يَلِي:

- تَسْلِيطِ بَعْضِ الضَّوْءِ عَلَى هَذَا الشَّاعِرِ الْمَأْسَاةِ، وَمَكَانَتِهِ بَيْنَ شُعَرَاءِ زَمَانِه.

- عَرْضِ أَسَالِيبِ التَّعَجُّبِ القِيَاسِيةِ وَ السَّمَاعِيَّةِ وَتَتْبَعِهَا فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمْ طُوقَانْ.

- تَوْضِيحِ الدِّلَالَاتِ التَّرْكِيبِيَّةِ وَالدِّلَالَاتِ الشُّعُورِيَّةِ لِأَسَالِيبِ التَّعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمِ طُوقَان.

- إِبْرَازِ الثَّقَافَةِ الْمُتَشَعِّبَةِ لِلشَّاعِرِ الْمَأْسَاة.

مَنْهَجُ البَحْث:

يَقُومُ مَنْهَجُ البَحْثِ عَلَى الوَصْفِ وَالتَّحْلِيلِ وَالْإِحْصَاءِ فِي رَصْدِ أَسَالِيبِ التَّعَجُّبِ، وَتَسْجِيلِهَا، وَدِرَاسَتِهَا مِنَ النَّاحِيَةِ النَّحْوِيَّةِ وَالدِّلَالِيَّةِ مَعْ شَرْحٍ وَتَعْلِيلٍ وَتَحْلِيلٍ لِمَا يُمْكِنُ تَعْلِيلُه أَوْ تَحْلِيلُهُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيم طُوقَان.

تَقْدِيمْ:

يَحْسُنُ بِنَا قَبْلَ الخَوْضِ فِي القَضِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ، أَنْ نُسَلِّطَ بَعْضَ الضَّوْءِ عَلَى هَذَا الشَّاعِرِ المَأْسَاةِ، وَعَلَى مَكَانَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ بَيْنَ شُعَرَاءِ زَمَانِهِ فِي أَوَاخِرِ الثَّلاثِينِيَّاتِ وَأَوَائِلِ الأَرْبَعِينِيَّاتِ مِنَ القَرْنِ المَاضِي؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لاَ غِنَى عَنْهُ إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نَرْبِطَ الظَّاهِرَةَ النَّحْوِيَّةَ "التَّعَجُّبَ" فِي شِعْرِهِ بِالحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي صَدَرَ عَنْهَا فِي تَجْرُبَتِهِ، وَالعَلاَقَةِ بَيْنَ هَذَا وَالظُّرُوفِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالشَّاعِرِ إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالمِعْصَمِ كَمَا يَقُولُ العَرَبُ.

رُبَّمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان حَالَةً فَرِيدَةً بَيْنَ شُعَرَاءِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُمْ: "أَبو سَلْمَى "عَبْدُ الكَرِيمِ الكَرْمِيِّ، وَعَبْدُ الرَّحِيمِ مَحْمُودُ، وَشَقِيقَتُهُ فَدْوَى، وَسَلْمَى خَضْرَاءَ الجَيُّوسِيِّ، ذَلِكَ أَنَّهُ تَأَثَّرَ بِالثَّقَافَةِ الغَرْبِيَّةِ وَالأَدَبِ الغَرْبِيِّ تَأَثُّراً كَبِيراً فِي أَثْنَاءِ دِرَاسَتِهِ فِي الجَامِعَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ بِبَيْرُوتَ، حَيثُ؛ إِنَّهُ نَهَلَ - مُعْجَباً – مِنْ تِلْكَ الثَّقَافَةِ شَيْئاً كَثِيراً، وَاقْتَفَى أَثَرَ شُعَرَاءِ تِلْكَ الثَّقَافَةِ، فِي الشَّكْلِ وَ المَضْمُونِ؛ حَتَّى فِي تَعْرِيفِهِ لِلشِّعْرِ، كَمَا يَقُولُ إِحْسَانُ عَبَّاسُ: فَهُوَ فِي الشَّكْلِ يَأْخُذُ طَابَعَ المَقْطُوعَاتِ عند شُعَرَاءِ إِنْجِلْتِرَا مِثْلَ "هَاينِيّ، وَأُوسْكَارِ وَايلْد، ورُوبرْت سذِى"[1]، وَغَيرِهِمْ، فَهُوَ مُنْبَهِرٌ بِهَذِهِ النَّمَاذِجِ حَتَّى فِي مَضَامِينِهَا، وَعَلَى ذَلِكَ نَجِدُهُ مُتَحَرِّراً مِنْ وِحْدَةِ القَافِيَةِ، وَمِنْ وِحْدَةِ المَوْضُوعِ أَحْيَاناً، كما لو أنه يعتمد نِظَامِ المَقْطُوعَاتِ... عَلَى أَيَّةِ حَال، فَتِلْكَ قَضِيَّةٌ أَدَبِيَّةٌ مَكَانُهَا النَّقْدُ الأَدَبِيُّ، وَأَقْلاَمُ النُّقَّادِ، أَمَّا شَخْصِيَّةُ الشَّاعِرِ فَقَدْ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى المَأْسَاةِ مِنْهَا إِلَى أَيِّ شَيءٍ آخَرَ، فَهُوَ مَرِيضٌ بِذَاتِ المَعِدَةِ، وَهُوَ رُومَانْسِيٌّ عَاشِقٌ إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الرُّومَانْسِيَّةِ وَالعِشْقِ، وَهَذَانِ الأَمْرَانِ: المَرَضُ، وَالعِشْقُ عَجَّلَا بِمَنِيَّتِهِ، فَلَمْ يُعَمَّرْ طَوِيلاً، فَقد وُلِدَ فِي ١٩٠٦م "وَتُوُفِّيَ فِي الثَّانِي مِنْ شَهْرِ مَايُو فِي ١٩٤١م"[2]، حَيثُ إِنَّهُ عَمَّرَ خَمْسَةً وَثَلاَثِينَ عَامًا، وَهِيَ فَتْرَةٌ زَمَنِيَّةٌ قَصِيرَةٌ، تَكَادُ أَنْ تَكُونَ العُمْرَ الذِي يَعِيشُهُ

الْعَبَاقِرَةُ مِنْ أَمْثَال هَذَا الشّاعِرِ، فَأَبُو تَمَام، وَطَرْفَةُ بْنُ العَبْدِ وَأَبُو القَاسِمِ الشّابِّي، وَبَدْرُ شَاكِرِ السَّيَّابِ، كُلُّهمْ رَحَلُوا وَهُمْ فِي هَذَا العُمْرِ تَقْرِيباً، إِنَّهَا مَأسَاةُ العَبَاقِرَةِ الَّذِينَ قُدِّرَ لَهُمْ أَلَّا يَعِيشُوا طَوِيلاً، فإِبْرَاهِيمُ طُوقَان يُعَدُّ كَمَا نَرَى صَرِيعَ المَرَضِ وَالغَوَانِي فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، وَرُبَّمَا كَانَ فَشَلُهُ فِي الحُبِّ هُوَ الَّذِي عَجَّلَ بِنِهَايَتِهِ كَمَا سَنَرَى.

أَمَّا مَوضُوعُ "ظَاهِرَةِ التَّعَجُّبِ" فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان، فَهُوَ مَوْضُوعٌ قَفَزَ عَلَى السَّطْحِ مِنْ بَيْنِ الظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ الأُخْرَى، وَلَعَلَّهُ مُرْتَبِطٌ بِالمَسَارَاتِ الوُجْدَانِيَّةِ الَّتِي تَسْرِي فِي قَصَائِدِهِ، وَالمَوْضُوعَاتِ الَّتِي عَالَجَهَا؛ حَيْثُ إِنَّهُ يَطْرَحُ قَضَايَا تُثِيرُ التَّعَجُّبَ، سَوَاءً أَكَانَتْ تَخُصُّهُ شَخْصِيًّا، أَمْ تَمَسُّ الجَوَانِبَ السِّيَاسِيَّةَ وَالاِجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ.

ثُمَّ إِنَّنَا اخْتَرْنَا هَذَا البَابَ مِنْ أَبْوَابِ النَّحْوِ، لِعِلْمِنَا بِأَنَّ التَّعَجُّبَ مَوْضُوعٌ قَدْ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ المُتَعَارَفِ عَلَيْهِ مِنَ الصِّيَغِ القِيَاسِيَّةِ وَهِيَ: مَا أَفْعَلَ، وَأَفْعِلْ بِـ، وَقَبْلَ أَنْ نَتَطَرَّقَ إِلَى تَفْصِيلِ ذَلِكَ بِالشَّوَاهِدِ المَنْثُورَةِ الوَارِدَةِ فِي التُّرَاثِ، وَالكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّنَا نَقِفُ وَقْفَةً قَصِيرَةً عِنْدَ مُصْطَلَحِ "التَّعَجُّبِ" وَمَفْهُومِهِ عِنْدَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ، فَهُوَ اسْتِعْظَامُ فِعْلِ فَاعِلٍ ظَاهِرٍ لِمَزِيَّةٍ أو صِفَةِ مَوصُوفٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَوصُوفِ اخْتِيَارٌ فِي هَذَا الوَصْفِ، يَقُولُ ابْنُ مَنْظُور: "أَصْلُ التَّعَجُّبِ فِي اللُّغَةِ: أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَا يُنْكِرُهُ وَيَقِلُّ مِثْلُهُ، قَالَ: قَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَذَا، أَو هُوَ انْفِعَالٌ يَحْدُثُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ الشُّعُورِ بِأَمْرٍ يُجْهَلُ سَبَبُهُ، أَو يُدَّعَى الجَهْلُ بِهِ، يَقُولُ ابْنُ الأَعْرَابِيُّ: التَّعَجُّبُ النَّظَرُ إِلَى شَيءٍ غيرَمَأْلُوفٍ وَلاَ مُعْتَادٍ[٣]، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قِيلَ فِي المَثَلِ العَرَبِيِّ: "إِذَا عُرِفَ السَّبَبُ بَطَلَ العَجَبُ[٤]".

أَمَّا النُّحَاةُ فَيَرَوْنَ أَنَّهُ يَأْتِي قِيَاسِيًّا بِصِيَغَتَينِ كَمَا ذَكَرْنَا –سَابِقًا– وَهُمَا: أَفْعَلَ بَعْدَ "مَا" التَّعَجُّبِيَّةِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِكَ: مَا أَحْسَنَ زَيداً، وَمَا أَكْرَمَ عَلِيًّا، وَالصِّيغَةُ الثَّانِيَةُ: يَجِيءُ بَعْدَهُ مَجْرُوراً بِالبَاءِ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِكَ: أَكْرِمْ بِمُحَمَّدٍ، وَأَجْمِلْ بِزَيدٍ، فَهُمَا فِي مَعْنَى: مَا

أَكْرَمَ مُحَمَّدًا، وَمَا أَجْمَلَ زَيدًا ! وَقَدْ يَأتِي - كَمَا ذَكَرْنَا – عَلَى السَّمَاعِ، وَذَلِكَ مِثْلُ قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٥]، وَمِنْهُ قَولُ العَرَبِ: لِلَّهِ دَرُّهُ فَارِساً[٦] ! وَلِلَّهِ أَنْتَ ! فَكُلُّهَا أَسَالِيبُ تُفِيدُ التَّعَجُّبَ، وَلَكِنَّهَا لاَ تَدْخُلُ تَحْتَ الصِّيغَتَيْنِ القِيَاسِيَّتَيْنِ.

وَإِلَى جَانِبِ ذَلِكَ فَإِنَّنَا سَنَجِدُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان عِبَارَاتٍ تُوحِي بِالتَّعَجُّبِ مِنْ خِلَالِ الإِحْسَاسِ بِهَذِهِ العِبَارَاتِ، وَرَبْطِهَا بِالسِّيَاقِ الفِكْرِيِّ الشُّعُورِيِّ عِنْدَه لاَسِيَّمَا وَأَنَّ سِيرَتَهُ كُلَّهَا مَدْعَاةٌ لِلتَّعَجُّبِ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ فِي مُعْظَمِ قَصِيدِهِ، وَلَعَلَّ مَا يُثِيرُ عَجَبَ هَذَا لاَ يُثِيرُ عَجَبَ ذَاكَ، مِنْ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[٧]، وَكَذَلِكَ انْظُرْ إِلَى إِحْسَاسِ فَتَى مُوسَى – عَلَيه السَّلاَمُ – "يُوشَعُ بْنُ نُونٍ" حِينَ أَوَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَانْطَلَقَ الحُوتُ الَّذِي مَعَهُمَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾[٨]، فَحَرَكَةُ السَّمَكَةِ فِي البَحْرِ أَثَارَتْ عَجَبَ يُوشَعَ عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَكَذَلِكَ حَالَةُ زَكَرِيَّا عَلَيهِ السَّلاَمُ، كَمَا تُشِيرُ الأَيَةُ الكَرِيمَةُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾[٩]، قَالَهَا مُتَعَجِّبًا، وَمِثْلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَسَنُشِيرُ إِلَيْهِ – لاَحِقاً- حِينَ الوُقُوفِ عَلَى شَوَاهِدِ التَّعَجُّبِ بِكُلِّ صِيَغِهِ القِيَاسِيَّةِ وَالسَّمَاعِيَّةِ عِنْدَ إِبْرَاهِيم طُوقَان"، ورأي بعض عُلَمَاءِ النحو والدارسين فِي مِثلِ هذه القضايا، التي تُمَسُّ فيها جوانبُ التراكيبِ من نَاحِيةٍ، ومَعَانِي النَحو ودَلالاتِ العبَارةِ النَّحويَّةِ مِن نَاحِيَةٍ أُخرَى.

القَصِيدَةُ الأُولَى: مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

بِـيضُ الْحَمَـائِمِ حَسْـبُهُنَّهْ أَنِّـي أُرَدِّدُ سَـجْعَهُنَّهْ
رَمْـزُ الْسَّـلامَةِ وَالْوَدَاعَـةِ مُنْـذُ بَـدْءِ الْخَلْـقِ هُنَّـهْ
يَهْـبِطْنَ بَعْـدَ الْحَـوْمِ مَثْـلَ الْـوَحِيِّ، لاتَـدْرِيْ بِهِنَّـهْ
فَـإِذَا وَقَعْـنَ عَلَـىْ الْغَـدِيرِ تَرَتَّبَـتْ أَسْـرَابُهُنَّهْ
يَقَـعُ الرَّشَـاشُ إِذَا انْتَفَضْـنَ لآلِئـاً لِرُؤُوْسِـهِنَّهْ
وَتَخَـالُهُنَّ بِـلا رُؤُوْسٍ حِـيْنَ يُقْبِـلُ لَيلُهنّـهْ
مَـا الْكَهْرُبَـاءُ وَطِبُّهَـا بِأَجَـلَّ مِـنْ نَظَرَاتِهنـه[١٠]

فِي أَوَاخِرِ عَامِ ١٩٢٤م دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان مُسْتَشْفَى الجَامِعَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ بِبَيرُوتَ؛ لِيُعالَجَ مِنْ القُرْحَةِ فِي مَعِدَتِهِ، فلبِثَ فِي المُسْتَشْفَى مَدَّةً غَيرَ قَصِيرَةٍ، ثُمَّ عَادَ إِلَى بَلَدِهِ نَابْلُسَ لِلنَّقَاهَةِ، ومِنْ وَحْيِ إِقَامَتِهِ فِي المُسْتَشْفَى المَذْكُورِ جَاءَت هَذِهِ القَصِيدَةُ.

أَمَّا التّعَجُّبُ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ المُخْتَارَةِ مِنْ قَصِيدَتِهِ، فَقَدْ جَاءَ عَلَى غَيرِ القِيَاسِ؛ بَلْ إِنَّهُ جَاءَ مِنْ خِلَالِ إِحْسَاسِنَا بِالحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي سَيطَرَتَ عَلَى الشّاعِرِ، وَهُوَ رَاقِدٌ فِي المُسْتَشْفَى يَرْقُبُ سِرْبَ الحَمَامِ يَطِيرُ وَيَهْبِطُ، وَهُوَ فِي وَاقِعِ الحَالِ، يَرْقُبُ سِرْبَ المُمَرِّضَاتِ دَوَاتِ اللِّبَاسِ الأَبْيَضِ اللَّوَاتِي يَتَرَدَّدْنَ عَلَيهِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الرَّابِطَةُ اللاَّمِحَةُ بَينَ الحَمَائِمِ وَالفَتَيَاتِ، لَقَدْ أَثَارَ إِعْجَابَهُ وَعُجْبَهِ هُبُوطُ سِرْبِ الحَمَامِ بِسُرْعَةِ البَرْقِ، وَكَأَنَّ هَذَا السِّرْبَ وَحْيٌ مِنَ السَّمَاءِ لاَ تَدْرِي بِهِ، يَتّضِحُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: يَهْبِطْنَ بَعْدَ

الحَوم مِثْلَ الوَحْي، لاَ تَدْرِي بِهِنّهْ، وَلَعَلّ حَرَكَةَ المُمَرِّضَاتِ - مَلاَئِكَـةِ الرَّحْمَـةِ - فِـي غُدُوّهِنَّ وَرَوَاحِهِنَّ تُشْبِهُ حَرَكَةَ الحَمَامِ، فَهُنَا إِعْجَابٌ شَدِيدٌ، وَهنَا أُسْلُوبُ تَعَجُّبٍ وَرَدَ فِي أُسْلُوبٍ خَبَرِيٍّ، وَلَو أَنَّ إِنْسَاناً آخَرَ أَوْرَدَ هَذَا الخَبَرَ بِهَذَا السِّيَاق، لَمَا كَانَ لَـهُ هَـذَا الوَقْعُ المُؤَثِّرُ فِي النّفْسِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ مَا يُثِيرُ إِعْجَابَ إِنْسَانٍ قَدْ لاَ يُثِيرُ إِعْجَابَ آخـرَ، وَنَظِيْرُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[١١]،فِي قِرَاءةِ حَمْزَة وَالْكِسَائِي[١٢] وَخلَفَ، بِتَاءِ المُتَكَلِمِ المَضمُومَةِ، أَي: قُل يَا مُحَمَد: بَل عَجِبتُ أَنَا..."[١٣]، وَقَالَ الفَرَّاءُ: العَجَبُ إِنْ أُسْنِدَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلّ فَلَيسَ مَعْنَاهُ مِنْ اللَّهِ كَمَعْنَاهُ مِـنَ العِبَـادِ؛ وَكَـذَلِكَ قَولُهُ: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[١٤] لَيسَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ كَمَعْنَاهُ مِنَ العِبَادِ[١٥].

يَقُولُ القُرْطُبِيُّ مُعَلّقًا عَلَى الآيَةِ: "... وَقَالَ الحُسَينُ بْنُ الفَضْلِ: التَّعَجُّبُ مِنَ اللَّهِ إِنْكَارُ الشّيءِ وَتَعْظِيمُه، وَهُوَ لُغَةُ العَرَبِ"[١٦].

وَأَمَّا التّعَجُّبُ فِي قَولِ الشّاعِرِ: فَإِذَا وَقَعْنَ عَلَى الغَدِيرِ تَرَتّبَـتْ أَسْـرَابُهُنَّهْ، فَهُنَـا إِحْسَاسٌ بِالتّعَجُّبِ لَدَى الشّاعِرِ مِنْ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ تَحَرُّكِ الحَمَامِ، وَوُقُـوعِهِنَّ فِي غَدِيرِ المَاءِ، إِنَّهُ نِظَامٌ وَتَرْتِيبٌ بِالإِلْهَامِ وَالفِطْرَةِ.

إِنّنَا لاَ نُدْرِكُ هَذَا التّعَجُّبَ إِلَّا إِذَا اسْـتَنْبَطْنَا خَفَايَـا الشّـاعِرِ، وولوعـه بِالجَمَـالِ، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَولِ الشّاعِرِ حِينَمَا كَانَ يَتَتَبَّعُهُ قَائِلاً:

إِنَّ الجَمَـــالَ إِذَا تَجمَّـــعَ شَـــمْلُهُ فَالوَيْـلُ كُـلُّ الوَيْـلِ لِلشُّـعَرَاءِ[١٧]

هَكَذَا يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان فِـي غَزَلِيَّاتِـهِ، وَتَشْـبِيهُهُ بِـ"مْ.صَ" فَتَـاةُ كَفْـرَ كَنّـه بِالرَّاقِصَةِ الأَسْبَانِيَّةِ وَبِغَيرِهَا مِنَ الغِيدِ يُعِيدُ إِلَينَا حِكَايَةُ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ مَعَ صَـاحِبَتِهِ نُعْمٍ، وَالثُّرَيَّا، وَغَيرِهِمَا، يَقُولُ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:

إِنِّـي امْـرُؤٌ مُولّـعٌ بِالحُسْـنِ أَتْبَعُـهُ لاَحَظَّ لِي فِيهِ إِلَّـا لَـذّةَ النّظَـرِ[١٨]

ثُمَّ يُقَدِّمُ لَنَا مَشْهَدَاً تَعْجُّبِيًّا آخَرَ، لَكِنَّهُ هَذِهِ المَرَّةُ يُورِدُهُ صَرَاحَةً، بِأَنَّ نَظَرَاتِ المُمَرِّضَاتِ فِيهَا الشِّفَاءُ لَهُ بِأَجَلَّ مِنَ الكَهْرُبَاءِ وَطِبِّهَا، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ: مَا الكَهْرُبَاءُ وَطِبُّهَا بِأَجَلَّ مِنْ نَظَرَاتِهِنَّهُ، وَهَكَذَا يُشْعِرُنَا إِبْرَاهِيمُ طُوقَان بَتَعَجُّبَاتِهِ فِي كُلِّ بَيتٍ مِنْ أَبْيَاتِ قَصِيدَتِهِ لاَ بِالنَّسَقِ التَّعْبِيرِيِّ، فَتَعْبِيرُهُ أَمْيَلُ إِلَى البَسَاطَةِ، وَلَكِنْ بِالرُّوحِ الكَامِنَةِ فِي الكَلِمَاتِ، وَكَيفَ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الأَوعِيَةُ اللَفْظِيَّةُ تِلْكَ الشُّحْنَةَ العَجِيبَةَ مِنَ الأَحَاسِيسِ، وواضح إِنَّ هذه الأساليب تضمنت معنى التَّعَجُّبَ، "وهو في القرآن الكريم كثير"[١٩]، قال تعالى﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾[٢٠]، ومنه قول الشاعر:

وَاهًا لِلَيْلَى ثُمَّ وَاهًا وَاهًا هِيَ المُنَى لَو أَنَّنَا نِلنَاهَا[٢١]

فالتحسر هنا يتضمن معنى التعجب أيضا، وهذا باب لا تحد حدوده من البداية،ذلك أنه يخرج من دائرة القياس المبوب والسماعى،كذلك إلى دائرة تعتمد أصلا على الإحساس،وإذا ما أخضعناها إلى التراكيب النحوية فقدت مدلولها التعجبى.

يقول فاضل السامرائى: "والأقربُ إلى الصَوابِ أنْ يُقَال:إنَّ هَذِهِ عِبَارَةٌ تُفِيدُ التَّعَجُّبُ،والتَّعَجُّبُ مَعلُومٌ، ثُمَّ إِنَّ التَّعَجُّبَ انْفِعَالٌ قَدِيْمٌ فِي نَفسِ البَشَرِ، والأَظهَرُ أَنَّهُ وُضِعَتْ لَهُ صِيغَتُهُ ابتِدَاءً؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ مُحتَاجٌ إِلَى التَّعبِيْرِ عَنهُ قَبْلَ كَثِيرٍ مِن التَّعبِيرَاتِ، وَلَا دَاعِيَ للدُّخُولِ فِي تَعلِيْلَاتٍ تُفسِدُ المَعنَى والذَّوق، ولَعَلَّ الذى أَلجَأَهُم إِلَى هَذَا هُوَ الإِعرَابُ، فالنُّحَاة يَرَونَ إِعرَابَ كُلّ تَعبِيرٍ، وَلَو أَلجَأَهُم إِلَى مَسخِ التَّعبِيرِ وَإِفسَادِهِ"[٢٢].

القَصِيدَةُ الثَّانِيَةُ: مَعِينُ الجَمَالِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانِ:

أَسْـــعِدِي بِـــزَورَةٍ أَو عِـــدِينِي ... طَـالَ عَهْـدِيَ بِلَـوعَتِي وَحَنِينِـي
ضَجْعَتِي فِي الرِّيَاضِ بَينَ الرَّيَاحِينِ ... قَرِيبـاً مِـنْ مَـاءِ عَـينٍ مَعِـينِ
مَاأَشَدَّ الهَـوَى، وَمَـا أَطْـوَلَ اللَّيْـلَ ... وَمَـا أَبْعَـدَ الْكَـرَى عَـنْ جُفُـونِي
إِنمَـــا هَـــذِهِ الطَّبِيعَـــةُ أُنْسِـــي ... وَمُعِينِـي إِنْ لَـمْ أَجِـدْ مِـنْ مُعِـينِ
أَتَقَـرَّى جَمَـالَ ذَاتِـكِ فِـي مَـا ... أَبْدَعَتْـــهُ يَمِينُهَـــا مِـــنْ فُنُـــونِ
فِي الغَدِيرِ الصَّافِي، وَأُنْشُـودَةِ الـ ... طَّيْرِ، وَطِيبِ الوُرُودِ وَالياَسَـمِينِ[٢٣]

هَذِهِ قَصِيدَةٌ نُظِمَتْ عام ١٩٢٧م، وَهِيَ الفَتْرَةُ الَّتِي بَلَغَ فِيهَا ذَرْوَةَ الحُبِّ، وَذَرْوَةَ الشِّهْرَةِ كَمَا يَقُولُ إِحْسَانُ عَبَّاسٍ فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى دِيوَانِهِ: ".فَفِي سَـنَةِ ١٩٢٦م، طَلَعَـتْ فِي الجَامِعَةِ بِبَيرُوتَ فِتْنَةٌ تَمَثَّلَتْ فَي صُورَةِ فَتَاةٍ فِلَسْطِينِيَّةٍ طَالِبَةٍ هُنَاكَ، فَأَحْيَتْ قُلُوباً وَسَحَقَتْ قُلُوباً...

صَارَ قَوِيَّ المُلاَحَظَةِ، حَاضِرَ العَاطِفَةِ، مُتَوَتِّرَ الأَعْصَـابِ، صَـارَ كَـثِيرَ المُطَالَعَـةِ، صَيَّادًا لِلْمَعَانِي، بَسِيطَ العِبَارَاتِ، سَهْلَ الفَهْمِ، مُصِيبًا....

وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ، أَخَـذَ إِبْـرَاهِيمُ يَضْـرِبُ عَلَـى قِيثَـارَةِ الغَـزَلِ، فَيُطْـرِبُ سُـمَّاعَهُ، وَيُعْجِبُ قُرَّاءَهُ، وَقَدْ أَبَتْهُ فَتَاتُهُ بِمِقْدَارِ مَا أَحَبَّهَا، ثُمَّ ضَرَبَ الدَّهْرُ بَينَهُمَا، فَكَانَتْ نِهَايَةُ حُبِّـهِ مَأسَاةً خَلَّفَتْ فِي قَلْبِ الشَّاعِرِ جُرْحًا كَانَ يَنْـدَمِلُ حِينًـا، وتنطفـىء الـذِّكْرَى حِينًـا آخَـرَ، فَيَنْعَكِسُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي شِعْرِهِ...."

فَهُوَ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ، يَعْزِفُ عَلَى قِيثَارَةِ حُبِّهِ، وَتَعَلُّقِهِ الشَّدِيدِ بِفَتَاةٍ " كَفَرِ كَنَّه " الَّتِي مَلَكَتْ عَلَيهِ شِعَابَ نَفْسِهِ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ جَاءَ فِي قَولِهِ: مَا أَشَدَّ الهَـوَى، وَمَـا أَطْـوَلَ اللَّيْـل، وَمَـا أَبْعَـدَ الكَرَى عَنْ جُفُونِي، إِنَّهُ تَعْجُّبٌ قِيَاسِيٌّ عَلَى وَزْنِ مَا أَفْعَلَ فِي العِبَارَاتِ الثَّلاَثِ.

وَقَدْ جَاءَتِ العِبَارَاتُ مُتَتَابِعَةً مُتَسَلْسِلَةً تَسَلْسُلاً مَنْطِقِيًّا أَوْ حِسِّيًّا، فَشِدَّةُ الهَوَى أَدَّتْ إِلَى طُولِ اللَّيْلِ، وَكَأَنَّنَا أَمَامَ المَلِكِ الضَّلِيلِ امْرِئِ القَيسِ فِي مُعَلَّقَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلاَ أَيُّهَا اللَّيـلُ الطَّويـلُ أَلاَ انْجَـلِ بِصُبْحٍ وَمَـا الإِصْـبَاحُ مِنْـكَ بِأَمْثَـلِ[٢٤]

فَالحَالَةُ وَاحِدَةٌ مُتَشَابِهَةٌ هُنَا وَهُنَاكَ، هَوَىً مُؤَجَّجٌ، وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ، ومُجَافَاةٌ لِلنِّوْمِ، إِنَّـهُ أَمْرٌ أَثَارَ تَعَجُّبَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ، كَمَا أَثَارَ تَعَجُّبَ مَنْ سَبَقُوهُ مِمَّـنْ هُـمْ عَلَـى شَـاكِلَتِهِ، وَقَـدْ أَوْرَدَ تَعْجُّبَاتٍ أُخْرَى، وَهِيَ هُنَا تَعَجُّبٌ بِالطَّبِيعَةِ الَّتِي لَجَأَ إِلَيهَا، فَوَجَدَ فِـي أَحْضَـانِهَا المَـلاذَ وَالسَّكِينَةَ، إِنَّهُ يُقَدِّمُ صُورَةً أَخَّاذَةً، وَلَوحَةً جَمِيلَةً لِلْطَّبِيعَةِ... الغَدِيرَ الصَّافِي، وَأُنْشُودَةَ الطَّـيرِ، وَطِيبَ الوُرُودِ... إِنَّها جَمَالِيَّاتٌ أَثَارَتْ تَعَجُّبَهُ عَلَـى غَـيرِ القِيَـاسِ، إِنمـا هُـوَ تَعَجُّـبٌ مَنْبَعُـهُ الحُسْنُ، وَالرِّقَّةُ، وَاللَّمْحَةُ الخَاطِفَةُ لِمَا حَولَهُ، تِلْكَ الَّتِي يَنْتَهِجُهَا فِي مَنْهَجِهِ الشِّعْرِيِّ الغَزَلِيِّ.

فَالتَّعَجُبُ هُنَا انفِعَالٌ فِي النَّفسِ عِندَ شُعُورِهَا بِمَا يَخْفَى سَبَبُه، ولِـذَا يُقَـال:إِذَا ظَهَـرَ السَّبَبُ بَطُلَ العَجَبُ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مُتَعَجَّبٌ؛ لِأَنَّه لَا يَخفَى عَلَيهِ شَيء[٢٥]، ومِنـهُ قَولِه تَعَالَى: ﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[٢٦]، ويُعَلِّقُ السَّمين الحلبي عَلَى ذَلِكَ قَائِلاً:"والمُرَادُ بِالتَّعَجُبِ هُنَا، وَفِى سَائِرِ القُرآن الإِعْلَامُ بِحَالِهِم أَنَّهَا يَنبَغِي أَنْ يُتَعَجَّبُ مِنْهَـا..."[٢٧]، ويَبْـدُو أَنَّ هَذَا الأُسلُوبَ التَّعَجُّبِي هُوَ لُغَةٌ أَهلِ اليَمَنِ، وَيَتَّضِحُ هَذَا مِن قول القرطبي:"... وَلَكِـنْ مَـا أَجْرَأَهُم عَلَى النَّارِ! وَهي لُغَةٌ يَمَنِيَّـةٌ مَعْرُوفَـةٌ، قَـالَ الفَرَّاء:أَخبَرَنِـي الكسـائي قَـال: أَخبَرَنِـي قَاضِي اليَمَنِ أَنَّ خِصمَينِ اختَصَمَا إِلَيهِ، فَوَجَبَتْ اليَمِينُ عَلَـى أَحَـدِهِمَا، فَحَلَـفَ؛ فَقَـالَ لَـهُ صَاحِبُهُ: مَا أَصْبَرَكَ عَلَى اللهِ!... [٢٨].

القَصِيدَةُ الثَّالِثَةُ: ذِكْرَى دِمَشْقَ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

يَـالَهَول الـوَغَى وَقَـدْ هَـاجَ سُـلْ ... طَـانٌ وَأَضْـحَى يَجِـيشُ كَالبُرْكَـان
أَســدٌ فَــوقَ ضَــامِرٍ عَرَبِــيٍّ، ... شَــاهِرٌ لِلْــوَغَى حُسَــاماً يَمَــانِيَّ
أَرْهَقَتْــهُ المَنُــونُ، ثُــمَّ أَنَــامَ ... تْــهُ لِيَــومٍ مُحَجَّــلِ أَرْوَنَــانِ
أَيُّ حَــرْبٍ أَثَــارَ ظُلْــم فَرَنْسَــا ... فَــدَهَاهَا مَــا لَــيسَ بِالحُسْــبَانِ
إِيهِ رُوحَ الشَّهِيدِ زُورِي فِلَسْطِينَ، ... وَطُــوفِي قُدْسِــيَّه بِالمَغَــانِي
يَــا فِلَسْــطِينُ هَــلْ لَــدَيكِ سَــرِيٌّ ... غَــيرُ ذِي مَطْمَــعٍ وَلاَ مُتَــوَانِ
أَيــنَ مِنَّــا الأَبِــيُّ؟ أَيــنَ المُعَــزِّي ... أَيــنَ مِنَّــا مُعَــذِّبُ الوِجْــدَانِ

هَذِهِ القَصِيدَةُ تَدْخُلُ فِي دَائِرَةِ الرِّثَاءِ، وَإِثَارَةِ الهِمَّـةِ بِمُنَاسَـبَةِ اسْتِشْـهَادِ المُجَاهِـدِ السُّورِيِّ أَحْمَد مَرْيُودٍ عَلَى يَدِ الِاسْتِعْمَارِ الفَرَنْسِيِّ، وَقَدْ نَظَّمَهَا فِي نَابْلُسَ ١٦ تَمُوزُ ١٩٢٦م.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَفِي قَولِهِ: "يَا لَهَول الوَغَى !! "تَعَجُّبٌ جَاءَ بِصِيغَةِ النِّدَاءِ، "يَـا، " وَبَعْدَهَا حَرْفُ جَرٍّ، جُرَّ بِهِ مَا بَعْدَهَا وَأُضِيفَتْ إِلَى الوَغَى، وَهُوَ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعَجُّـبِ الْمَشْهُورة يَقُولُ ابْنُ يَعِيشْ: "إِذَا قُصِدَ بِالنِّدَاءِ التَّعَجُّبُ وَلَيْسَ النِّدَاءَ الْحَقِيقِي، وَذَلِـكَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ: "يَا لِلْمَاءِ كَأَنَّهُم رَأَوْا عَجَباً وَمَاءً كَثِيْراً، فَقَالُوا: تَعَالَ يَا عَجَبُ وَيَا مَاءُ "(٥)، وَكَأَنْ تَقُولَ: يَا لَعَظَمَةِ اللَّهِ ! يَا لَزُرْقَةِ السَّمَاءِ ! يَا أَلْطَافَ اللَّهِ ! وَهُوَ تَعَجُّبٌ قَوِيٌّ يَدُلُّ عَلَى الغَايَةِ مِنْ إِثَارَةِ المَشَاعِرِ، وَانْبِهَارِ الأَحَاسِيسِ تجَاهَ مَوقِفٍ مِنْ المَوَاقِـفِ، أَو مَشْـهَدٍ مِنَ المَشَاهِدِ، وَهُوَ يَتَعَجَّبُ هُنَا مِنْ عَظَمَةِ الحَرْبِ أَو المَعْرَكَةِ الَّتِي خَاضَهَا الشَّهِيدُ أَحْمَدُ مَرْيُود فِي مُقَارَعَتِهِ لِلْجَيشِ الفَرَنْسِيِّ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ امْتَدَّ أَثَرُهُ؛ لِيَكُونَ المَشْهَدُ بُرْكَانًا مِـنْ البَرَاكِينِ الثَّائِرَةِ، وَأَنَّ البَطَلَ لَيثٌ يَمْتَطِي جَوَاداً عَرَبِيًّا، ويَمْتَشِقُ حُسَامًا يَمَانِيًّا.

وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي قَولِهِ: أَيُّ حَرْبٍ أَثَارَ ظُلْمَ فَرَنْسَا !، هُنَا اسْتِفْسَارٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيهِ إِثَارَةٌ وَدَهْشَةٌ اسْتَبَدَّتْ بِالْشّاعِرِ، مِنْ قَبِيلِ الاسْتِغْرَابِ الّذِي يَحْدُثُ أَمَامَ أيِّ مَوقِفٍ لاَ يَخْضَعُ لِلْمُتَعَارَفِ عَلَيهِ مِنْ القِيَمِ وَالمُثُلِ العُلْيَا، كَأَن تَقُولَ: أَيُّ جَرِيمَةٍ ارْتَكَبْتَ يَا هَذَا؟ إِنَّهُ سُؤَالٌ لاَ يُقْصَدُ بِهِ الِاسْتِفْهَامُ الحَقِيقِيُّ، وَإِنَّمَا يُرَادُ مَا يُشِيرُ إِلَيهِ، أَو مَا يُومِئُ إِلَيهِ التَّعْبِيرُ، وَهَذَا فِي وَاقِعِ الحَالِ مُرْتَبِطٌ بِحَالَةِ الشّاعِرِ النّفْسِيَّةِ، وَكُرْهِهِ لِلْاسْتِعْمَارِ وَبَاطِلِهِ، وَتَعَاطُفِهِ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ السُّوْرِيينَ.

وَكَذَلِكَ التَّعَجُّبُ فِي قَولِهِ: "إِيهِ رُوحَ الشّهِيدِ زُورِي فِلَسْطِينَ" هُنَا إِعْجَابٌ بِالبُطُولَةِ السُّورِيَّةِ، وَقَدْ بَلَغَ التَّعَجُّبُ عِنْدَهُ دَرَجَةً عَالِيَةً إِلَى الحَدِّ الّذِي جَعَلَهُ يَتَمَنَى أَنْ تَحْدُثَ هَذِهِ المَوَاقِفُ فِي فِلَسْطِينَ مَوطِنِهِ الّذِي يُوشِكُ عَلَى الضَّيَاعِ...، مِثْلَ ذَلِكَ فِي قَولِهِ: يَا فِلَسْطِينُ هَلْ لَدَيكِ سَرِيٌّ[٢٩] أُسْلُوبٌ إِنْشَائِيٌّ وَرَدَ فِي صِيغَةِ النِّدَاءِ، وَلَكِنْ فِيهِ مَشَاعِرُ التَّهَكُّمِ وَالسُّخْرِيَةِ مَلْمُوسَةً مِنْ خِلاَلِ اسْتِبْطَانِ العِبَارَةِ، وَعَلاَقَتِهَا بِرُوحِ الشّاعِرِ الّذِي أَخَذَ يَسْتَهْجِنُ تَصَرُّفَاتِ بَنِي وَطَنِهِ غَيرَ المَسْئُولَةِ، وَعَدَمِ اكْتِرَاثِهَا بِمَا سَيَؤُولُ إِلَيهِ أَمْرُ البِلاَدِ، وَكَأَنَّهُ يَعْجَبُ مَنْ انْعِدَامِ السُرَاةِ. يَقُولُ الشّاعِرُ:

لاَ يُصْلِحُ النّاسُ فَوضَى لاَ سُرَاةَ لَهُمْ ... وَلاَ سُرَاةٌ إِذَا جُهَّالُهَا سَادُوا [٣٠]

وَنَظِيرُ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الكَافِرِينَ فِي شُعَيبٍ عَلَيهِ السَّلاَمُ: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ ﴾[٣١]، وَمِنْ التَّعَجُّبِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ: أَينَ مِنَّا الأَبِيُّ؟ أَينَ المُعَزِّي... هُنَا تَعَجُّبٌ وَرَدَ فِي صِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ مُشْبَعٍ بِالحَسْرَةِ وَالأَلَمِ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَدْعِي أُمُورًا عَصِيَّةً، وَهَذَا شَيءٌ عَجِيبٌ.

فالتّعَجُّبُ عِندَ الشَّاعِرِ جَاءَ فِي صِوَرٍ مُتَعَددةٍ كَمَا لَاحَظنَا، وَكُلُّ هذهِ التّعَجّبَات هِي مِنْ قَبِيلِ مَا ظَهَرَ حُكمُهُ وَخَفِيَ سَبَبُهُ [٣٢]، كَمَا أَلمَعنَا إِلَى ذلِكَ فِيمَا سَبَقَ ومِثلهُ مَا جَاءَ فِي قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[٣٣]، يقولُ أبو حيان: "الظَّاهِرُ أَنَّهُ تَعَجَّبَ مِن إِفْرَاطِ كُفرِهِ، و التّعَجُّبِ بِالنسبَةِ لِلمَخلُوقِينَ إِذ هُوَ مُستَحِيلٌ فِي حَقِّ اللهِ تعالى..."[٣٤]، فالتّعَجُّبُ يكونُ "مِمَّا يُؤمَرُ بِه الآدَمِيُّونَ، ويكونُ المَعنَى كَقَولِهِ: فَمَا أَصبَرَهُمْ عَلَى النَّار!، أي: اعْجَبُوا أَنْتُم مِنْ كُفرِ الإِنْسَان، ويَجُوزُ عَلَى مَعنَى التَّوبِيْخِ، وَلَفظُهُ لَفْظُ الاستِفْهَامِ، أَيْ: أيُّ شيءٍ أَكفَرَه"[٣٥]، وإِنْ كَانَ بَعضُهُم يَعتَبِرَهَا استِفْهَامًا، وهو يَتَضَمَّنُ التّعَجُّبَ، بِمَعنَى أَنْ تَكُونَ مَا أَدَاةُ استِفْهَام، وَلَيسَتْ أَدَاةُ تّعَجُّبِ [٣٦].

القَصِيدَةُ الرابعة: يَا مَوطِنِي

يَقُولُ /إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

عَجَبــاً لِقــومي مُقْعَــدِيَن ونُوَّمــاً ... وَعَـدُوُّهم عـن سُـحِقِهِم لا يَنْثَنِـي
عَجَبـاً لقـومي كُلّهـم بُكْـمٌ وَمَـنْ ... يَنطِـق يَقُـلْ يَـا لَيـتَني وَلَعَلَّـني
مَرْحَـى لِشُـبانِ الـبلادِ إذا غَـدَا ... كـلُّ بغـيرِ بِـلادِهِ لَـمْ يُفْـتَنِ
مَرْحَـى لِشُـبانِ الـبلادِ فَمَـالهم ... إلّا السـموُّ إلى العلـى مـن ديـدن[٣٧]

هَذِهِ القَصِيدَةُ أُلْقِيَتْ فِي حَفْلَةِ تَوزِيعِ الشّهَادَاتِ فِي مَدْرَسَةِ النّجَاحِ الوَطَنِيَّةِ فِي نَابُلُسَ ١٩٢٥م.

ووَاضِحٌ فِيهَا أَنَّ التّعَجُّبَ أَرْخَى ظِلاَلَهُ فِي الأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ، فَفِي قَولِهِ عَجَباً لِقَومِي".. حَيثُ كَرَّرَهَا مَرَّتَين؛ لِيُؤَكِّدَ هَذَا الأَمْرَ الاسْتِغْرَابِيَّ المُدْهِشَ فِي اللَّوْمِ وَالتَقْرِيعِ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ مَشُوبٌ بِالسُّخْرِيَةِ اللَّاذِعَةِ الَّتِي تُعْتَبَرُ دَيْدَنَهُ البَارِزَ فِي كُلِّ قَصَائِدِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَهَذَا التَّعَجُّبُ وَرَدَ نَظِيرُهُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ

فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[٣٨] آيَةٌ مَشْحُونَةٌ بالتَّعَجُّبِ مِنْ هَؤُلاَءِ الكَفَرَةِ الَّذِينَ لَـمْ تَهُـزُّهُمْ آيَـاتُ اللَّـهِ العَجِيبَةُ، وَكَذَلِكَ قَومُ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان الَّذينَ استَسْلَمُوا لِلنَّومِ وَالقُعُودِ، وَغَفلُوا عَمَّـا يَتَـرَبَّصُ بِهِمْ مِنْ مَكَائِدَ وَمُؤَامَرَاتٍ، وَهُمْ فِي غَفْلَتِهِمْ سَادِرُونَ، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ:

وَطَـــنٌ يُبَـــاعُ وَيُشْتَـــرَى وَنَصِـيحُ: " فَلْيَحْـيَ الـوَطَنْ "؟![٣٩]

وَكَذلِكَ التَّعَجُّبُ فِي قَولِهِ:

مَــرْحَى لَشُـبَّانِ الـبِلاَدِ إِذَا غَـدَا كَــلٌّ بِغَيــرِ بِـلاَدِهِ لَــمْ يُفْتَــنِ
مَرْحَـى لَشُـبَّانِ الـبِلاَدِ فَمَـا لَهُـمْ إِلاَّ السُّمُوُّ إِلَـى العُلَـى مِـنْ دَيـدَنِ

انْظُرْ فِي قَولِهِ: " مَرْحَى لَشُبَّانِ البِلاَدِ " حَيثُ كَرَّرَهَـا مَـرَّتَينِ أَيْضـاً فهـو تَعَجُّـبٌ مُبَطَّنٌ عَلَى سَبِيلِ الأَمَلِ الَّذِي يُرَاوِدُ الشّاعِرَ فِي أَنْ يُحَقِّقَ شُـبَّانُ البِلَـادِ هَـذِهِ الأُمْنِيَـةِ، وَيَبْدُو أَنَّ الحَالَ فِي وَقْتِهِ كَانَ لاَ يَسُـرُّ لِـذَلِكَ فَهُـوَ يَسْـتَحِثُّ الشَّـبَابَ عَلَـى النُّهُـوضِ بِالمَسؤولِيَّةِ، وَأَنْ يَتَشَرَّبُوا حُبَّ الوَطَنِ، إِنَّهُ تَعَجُّبٌ مِنْ شَيءٍ يَتَمَنّى حُصُولَهُ...

واضحٌ أَنَّهَا تَعَجّبَات وَرَدَتْ عَلَى غَيرِ قِيَاس "مَا أَفْعَلْ، وأَفْعِلْ بِـ"، فَهِـيَ تَتَضَـمَّنُ أَحَاسِيسَ التَعَجُّب التي انْبَثَقَتْ عَنِ المَوقِفِ المُؤلِمِ، وَلَكِنَّ النُّحَاةَ رَكَّزُوا عَلَـى القِيَـاسِ وَمَا وَرَدَ مِنْ صِيَغِ المُنَادَى وَالاسْتِفْهَامِ كَمَا فِي قَولِ الشَّاعِرِ:

يامـا أمـيلحَ غزلانـاً شَـدَنَّ لنـا مـن هؤليَّـائكُنَّ الضَّـالِ والسَّـمرِ[٤٠]

فَقَدْ جَاءَ هُنَا نِدَاءٌ وَتَصْغِيرٌ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي قَوْلِ الشُّعَرَاءِ [٤١].

القَصِيدَةُ الخامسة: يَا سُرَاةَ البِلاَدِ*

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

يَـا سُـــرَاةَ البِـــلاَدِ يَكْفِـي البِلَـادَا ... مَـــا أَدَابَ القُلُـــوبَ وَالأَكْبَـــادا
انْتِـدَابٌ أَحَـدُّ مِنْ شَفْرَةِ السَّـيفِ ... وَأَورَى مِـــنَ المَنَـــايَا زِنَـــادَا
مَـا الَّـذِي تَفْعَـلُونَ وَالجَـوُّ مُرْبَـدٌّ ... وَهَـذِي الأَعْـدَاءُ تَقْضِـي المُـرَادَا
أَفَرَغْـتُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سِـوَى المَجْـ ... ـلِسِ يَحْتَـاجُ هِمَّـةً وَجِهَـادَا
كَيْـفَ يَلْقَـى مِـنْ هَادِمِيـهِ بُنَـاةً ... كَيفَ يَرْجُـو مِـنْ جَارِحِيهِ ضِمَـادَا (٤٢)

هَذِهِ القَصِيدَةُ نُظِّمَتْ ١٩٢٥م، وَيَبْدو أَنَّ سُرَاةَ البِلاَدِ فِي زَمَانِهِ كَانُوا عُمَيَ البَصِيرَةِ، مُقْفَلِي الأَفْئِدَةِ، فَانْطَلَقُوا وَرَاءَ المَصْلَحَةِ الذَّاتِيَّةِ، وَرَكِبُوا مَطِيَّةَ الوَجَاهَاتِ الفَارِغَةِ، وَالمَظَاهِرِ الزَّائِفَةِ، فِي الوَقْتِ الَّذِي تُهَيِّئُ فِيهِ بِرِيطَانْيَا فِلَسْطِينَ وَطَناً لِلْيَهُودِ، تَحْقِيقاً لِوَعْدِ بِلْفُورَ المَشْئُومِ الَّذِي أَشَارَ إِلَى خُطُورَتِهِ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ... وَهُوَ يُخَاطِبُهُمْ سَاخِرًا مُتَهَكِّماً... يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ: مَا الَّذِي تَفْعَلُونَ وَالجَوُّ مُرْبِدٌّ؟!! تَعَجُّبٌ وَرَدَ فِي صُورَةِ اسْتِفْهَامٍ سَاخِرٍ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ يُومِئُ إِلَى تَفَاهَةِ هَؤُلاَءِ السُّرَاةِ الغَافِلِينَ، تَعَجُّبٌ يُذَكِّرُنَا بَتَعَجُّبِ نَصْرِ بْنِ سيَّارٍ حِينَ خَاطَبَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي آخِرِ أَيَّامِهَا قَائِلاً:

فَقُلْتُ مِـنَ المُصِـيبَةِ لَيـتَ شِـعْرِيَ ... أَأَيقَـــاظٌ أُمَيَّـــةُ أَمْ نِيَـــامٌ؟(٤٣)

وَصَدَقَ قَولُ الشَّاعِرِ:

فالـــدَّهْرُ آخِـــرُهُ شَـــبَهٌ بِأَوَّلِـــهِ ... نـاسٌ كَنَـاسٍ وأَقْـوَامٌ كَـأَقْوَامِ (٤٤)

وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي قَولِهِ: أَفَرَغْتُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَوِى... انْظُرْ إِنَّهُ تَعَجُّبٌ سَاخِرٌ، وَنَظِيرُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَنِكُمْ﴾ (٤٥)، سُخْرِيَةٌ لَاذِعَةٌ فِي

قَالَبٍ تَعَجُّبِيٍّ تَهَكُّمِيٍّ، وَهَذَا هُوَ أُسْلُوبُ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّمْحَةِ الشِّعْرِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِمَعَانِي السُّخْرِيَةِ مِنْ رِجَالاتِ بِلاَدِهِ، ومِنْهُ مَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[٤٦]، وَهُنَاكَ نَمَاذِجُ كَثِيرَةٌ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، تَتَضَمَّنُ مَعْنَى السُّخْرِيَةِ والتَّعَجُّبِ مِنْ خِلاَلِ الإِنْذَارِ وَالوَعِيدِ، وكذلك فِي قَولِهِ: كَيفَ يَلْقَى مِنْ هَادِمِيهِ بُنَاةً؟! هَا هُوَ يَعْزِفُ عَلَى القِيثَارَةِ نَفْسِهَا، هُوَ تَعَجُّبٌ مِنْ خِلاَلِ الِاسْتِفْهَامِ التَّهَكُّمِي السَّاخِرِ، وَهُوَ هُنَا فِي هَذِهِ المَقَامَاتِ أَبْلَغُ وَأَشَدُّ أَثَراً مِنَ الصِّيَغِ القِيَاسِيَّةِ المُتَعَارَفِ عَلَيهَا.

كُلُّهَا تَعَجُّباتٌ مُتَعَدِّدَةُ الصُّورِ خَارِجَةٌ عَنِ الْقِيَاسِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ: "لِلهِ دَرُّهُ فَارِساً"[٤٧]، وَللهِ أَنْتَ [٤٨]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: وَيَا جَارَتَا مَا أَنْتِ جَارِه[٤٩] وَنَظِيرُه مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَا جَارَتِي، مَاكُنْتِ جَارَه، بَائِتْ لِتحزُنَنَا عَفَارِه[٥٠]

القَصِيدَةُ الخَامِسَةُ: فِي المَكْتَبَةِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

رَاقَنِي بُهْتُهَا، فَشَهِدْتُ أَنَّ اللَّهَ أَجْزَلَ فِي الهِبَهْ
حَمَلَ الثَّرَى مِنْهَا عَلَى نُورِ اليَدَينِ وَقَلَّبَهْ
وَسَقَاهُ فِي الفِرْدَوسِ مَخْ تُومَ الرَّحِيقِ وَرَكَّبَهْ
فَإِذَا بِهَا مَلَكٌ تَنَزْ زلُ لِلْقُلُوبِ الْمُتْعَبَهْ
وَرَأَيتُ فِي الفَمِ بِدْعَةً خَلاَّبَةً مُسْتَعْذَبَه... [٥١]

هَذِهِ القَصِيدَةُ نُظِمَتْ عام ١٩٢٦م، وَتَرْجِعُ قِصَّتُهَا إِلَى أَنَّ الآنِسَةِ مْ.صَ فِتْنَةٌ طَلَعَتْ فِي عام ١٩٢٦م فِي الجَامِعَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ بِبَيرُوتَ، وَهِيَ مِنَ كُفُرْكَنَّة "قَضَاءِ

النّاصِرَةِ"، وَكَانَ أَنْ تعَلَّقَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ طُوقَان، فأَصْبَحَتْ مُلْهِمَتَهُ وَمُعَذِّبَتَـهُ، وَقَـدْ رَآهَـا فِي مَكْتَبَةِ الجَامِعَةِ، فَنَظَمَ فِيهَا هَذِهِ الغَزَلِيَّةَ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ وَرَدَ فِي قَولِهِ: رَاقَبْتُهَا، فَشَهِدْتُ أَنَّ اللَّهَ أَجْزَلَ فِي الهِبَـهْ، هَـذَا التّعَجُّبُ يُقَابِلُ قَول القَائِلِ: يَا لَرَوْعَةِ الجَمَال! وَهُوَ تَعَجُّبٌ لَـهُ دَلاَلَـةُ الوَلَـهِ وَالصَّـبَابَةِ الّتِي عَانَى مِنْهَا الشّاعِرُ جَرَّاءَ شَغَفِهِ بِهَذِهِ الفَتَاةِ.

وَيَسْتَمِرُّ الشّاعِرُ فِي عَرْضِ آيَاتِ جَمَالِهَا الّتِي أَثَارَتْ شِدَّةَ إِعْجَابِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَشِـدَّةِ هَيَامِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَهِيَ – مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِ– حُورِيَّةٌ هَبَطَتْ مِنْ الفِـرْدَوس، وَهِـيَ مَلَـكٌ يُرِيحُ القُلُوبَ المُتْعَبَةَ، ثُمَّ يُبْدِي إِعْجَابَهُ بِثَغْرِهَا وَثَنَايَاهَا النَّيِّرَاتِ، إِنَّ كُلَّ مَا فِيهَا آيَةٌ مِـنْ آيَـاتِ الإِبْدَاعِ العَظِيمِ... وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ أُسْلُوبَ التّعَجُّـبِ عِنْـدَ إِبْـرَاهِيمَ طَوقَـان جَـاءَ عَلَـى غَـيرِ المَأْلُوفِ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّمْحةِ السَّرِيعَةِ، وَالنُّكْتَةِ العَابِرَةِ، يُصَرِّحُ بِـهِ أَحْيانـاً، وَيَتَسَـتَّرُ عليـهِ أَحْيَاناً أُخَرَ، وَكَأَنَّ دِيوَانَهُ فِي مَعْرِضِ غزَلِيَّاتِهِ غَدَا تَعَجُّباً كُلُّهُ بِهَذِهِ الفَتَاةِ النّاصِرِيَّةِ الّتِي مَلَكَتْ عَلَيهِ أَنْفَاسَهُ، وَفَجَّرَتْ يَنَابِيعَ الشِّعْرِ عِنْدَهُ.

فالأسلوبُ التَّعَجُّبِيُّ يجري على نفس النسق، وقـد خـرج عـن دائـرة القيـاس، ونظير ذلك ما جاء في قول الشاعر:

عُمَـيرةَ وَدِّع إن تَجَهَّـزتَ غَاديـا ... كفى الشَّيبُ والإسلامُ لِلمرءِ نَاهيًا[٥٢]

القَصِيدَةُ السَّادِسَةُ: تَحِيَّةُ الرَّيحَانِي

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

مَرْحَبًـا بِـالحَكِيمِ مُحْيِـي المَعَـرِّي ... مَرْحَبًـا بِالنُّبُـوغِ وَالعَبْقَرِيَّـهْ
مَرْحَبًـا بِـالعَظِيمِ أَكْـرَمِ ضَـيفٍ ... لِمُلُـوكِ الجَزِيـرَةِ العَرَبِيَّـةْ
لَـمْ يَزِدْنَـا قَـدْوَمُكَ اليَـومَ عِلْمَـا ... بِـكَ يَـا صَـاحِبَ البَنَـانِ النَدِيَّـهْ

حُمِّلْتَ هَذِي البَنَانَ يَرَاعَا فَبَلَوْنَا كَيفَ القُوَى السِّحْرِيَّهْ
نَبِّهِ القَومَ يَا أَمِينُ وَسَلْهُمْ أَينَ بَاتَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ الأَبِيَّهْ (٥٣)

هَذِهِ القَصِيدَةُ أُلْقِيَتْ فِي النَّادِي العَرَبِيِّ بِنَابُلُس ١٩٢٧م، تَحِيَّةً لِلْأَدِيبِ وَالشَّاعِرِ أَمِينِ الرَّيحَانِيِّ، يُعَدِّدُ فِيهَا مَآثِرَهُ، وَيَحُثُّهُ عَلَى أَنْ يَبُثَّ فِي العَرَبِ رُوحًا جَدِيدَةً؛ لِيَفِيقُوا مِنْ غَفْلَتِهِم، وَيَتَنَبَّهُوا لِلْأَخْطَارِ المُحِيطَةِ بِهِمْ، وَيُوقِفُوا ضَيَاعَ فِلَسْطِينَ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ الوَارِدُ فِي قَولِ الشَّاعِرِ:

مَرْحَبًا بِالحَكِيمِ مُحْيِي المَعَرِّيِّ مَرْحَبَاً بِالنُّبُوغِ وَالعَبْقَرِيَّهْ

فَهُوَ تِعْدَادٌ لِمَآثِرِ الضَّيفِ، مُعبِّراً عَنْ مَدَى إِعْجَابِهِ بِهِ، فَهُنَا تَعَجُّبٌ مُتَضَمِّنٌ يُسْتَشَفُ مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ النَّفْسِيِّ وَالشُّعُورِيِّ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طَوقَان.

وَكَذَلِكَ الشَّأنُ فِي قَولِهِ: فَبَلَونَا كَيفَ القُوَى السِّحْرِيَّةُ، إِنَّهُ تعبيرٌ تَعَجُّبِيٌّ بِقُدْرَةِ آمِينِ الرَّيحَانِيِّ الأَدَبِيَّةِ وَالفِكْرِيَّةِ.. كَأَنْ تَقُولَ: هَذِهِ بارِعَةٌ كَيفَ (٥٤)، إِنَّهُ غَايَةُ التَّعَجُّبِ مِنْ الأَمْرِ المُشَاهَدِ حِسِّيًّا كَانَ أَمْ مَعْنَوِيًّا.

وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي قَولِهِ: أَينَ بَاتَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ الأَبِيَّةُ؟! فَهُوَ – كَذَلِكَ – تَعْبِيرٌ تَعَجُّبِيٌّ وَرَدَ فِي صِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ سَاخِرٍ، أَو مَشْحُونٍ بِشَيءٍ مِنَ الحَسْرَةِ وَالأَسَى.. أَو أَنَّهُ مُعْجَبٌ بِتِلْكَ النُّفُوسِ أَيَّامَ عُنْفُوَانِهَا، فقد استطاع أن يُنَوِّعَ الشَّاعرُ بين أساليب التَّعَجُّبُ غير القياسية.

والأسلوبُ هُنَا تَضْمِينٌ لِلتَعَجُّبِ، وَلَعَلَّ هَذَا يَسُوقُنَا إِلَى النَّظَرِ فِي مَوضُوعِ نَقْدِ النُّحَاةِ العَرَبِ فِي تَعَدُّدِ الوَظَائِفِ النَّحوِيَّة.

يقول د. عبد المجيد عابدين: "ظَلَّتْ عِنَايَةُ النُّحَاةِ بِشَكْلِ التَّركِيبِ تَتَزَايَدُ حِيْلاً بَعدَ حِيلٍ حَتى صَرَفَتْهُم عَمَّا وَرَاءَ هَذَا الشَّكْلِ مِن مَعَانٍ وَمَدلُولَاتٍ، وَلَاسِيَّمَا المَعَانِي الأَوَلِيَّة التِي لابد لِلبَاحِثِ النَّحوِيِّ أَنْ يَنْظُرَ فِيْهَا، وَلَكِنَّ نَظْرَة النُّحَاة أَصْبَحَتْ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مُنْحَصِرَة فِي الجَانِبِ الشَّكْلِيِّ مِنَ التَرَاكِيْبِ، وَأَصْبَحَتْ الأَلفَاظُ فِي نَظَرِ النَّحوِيِّ كَالدُّمَى الخَشَبِيَّةِ لَيْسَ فِيهَا مَعنَى ولا روح، يُفَسِرُونَ حَرَكَاتِهَا وسَكَنَاتِهَا تَفْسِيْرًا آلِيًّا مَحْضًا، لَا يَعبَأُونَ أَنَّ وَرَاءَ هَذهِ الأَلفَاظِ والتَّرَاكِيبِ عُقُولاً تُفَكِّرُ، ونُفُوسًا تُعَبِّرُ، وقَد لَاحَظَ إبراهيم مصطفى هَذَا الصَنِيعَ مِنْ القُدَامَى فَحَاوَلَ أَنْ يُجَدِّدَ"(٥٥).

القَصِيدَةُ السَّابِعَةُ: تَفَاؤُلٌ وَأَملٌ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

اللَـهَ ثُـمَّ اللَّـهَ مَـا أَحْلَـى التِّضَـامُنَ وَالوِفَاقَـا !
بُورِكْـتَ مُـؤْتَمَرًا تُـأَلِّفَ لاَ نِـزَاعَ وَلاَ شِـقَاقَا
كَمْ مِـنْ فُـؤَادٍ رَاقَ فِيـهِ، وَلَـمْ يَكُـنْ مِـنْ قَبْـلُ رَاقَـا
تِلْـكَ النُّفُـوسُ مِـنَ الطُّفُولَـةِ أُرْضِـعَتْ ذَاكَ اللَّـبَنَ
نَشَأَتْ عَلَى حُبِّ الخِصَامِ، وَبَاتَ يَرْعَاهَا الضَّـغَنْ(٥٦)

أُلْقِيَتْ هَذِهِ القَصِيدَةُ فِي الحَفْلَةِ الَّتِي أَقَامَتْهَا كُلِّيَّةُ النَّجَاحِ الوَطَنِيَّةِ فِي نَابْلُس فِي نِهَايَةِ العَامِ الدِّرَاسِيِّ أَيَّارَ ١٩٢٨م، وَكَانَتْ الرُّوحُ الوَطَنِيَّةِ قَدْ دَخَلَ عَلَيهَا الكَثِيرُ مِنَ الوَهَنِ وَالتَّشَاؤُمِ، كَمَا رَاجَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ سُوقُ الدَّجَّالِينَ مِنْ مُحْتَرِفِي الوَطَنِيَّةِ الزَّائِفَةِ.

أَمَّا التَعَجُّبُ هُنَا فَقَدْ وَرَدَ عَلَى القِيَاسِ، وَذَلِكَ فِي قَولِهِ: مَا أَحْلَى التِّضَامُنَ وَالوِفَاقَا؛ حَيثُ جَاءَ عَلَى صِيغَةِ مَا أَفْعَلَ، وَهُوَ بِشَيءٍ منْ الإِعْجَابِ الشَدِيدِ المَمْزُوجِ

بِالأَمَلِ الصَّادِقِ، وَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِالحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الوَطَنِيَّـةِ عِنْـدَ إِبْـرَاهِيمَ طُوقَـان، وَمَهَّـدَ ذَلِكَ التَّعَجُّبَ مِنْ الأَمْرِ لَو حَدَثَ بِإِيرَادِ لَفْظِ الجَلاَلَةِ مَرَّتَين، وَذَلِكَ حِينَمَا قَالَ: اللَّهَ ثُمَّ اللَّهَ، وَهُوَ هُنَا يُذَكِّرُهُمْ بِالخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّـهُ يُرَاقِـبُ الأَعْمَـالَ، وَكَأَنَّـهُ يَقُـولُ: أَيُّهَـا النَّاسُ... مَعَ أَنَّ لَفْظَ الجَلَالَةِ "اللَّه" قَدْ يَرِدْ لِلْدَّلاَلَةِ عَلَى شَيءٍ لِغَيرِ هَذَا الانْبِهَارِ، وَهَذَا الشَّيءُ الدَّلالِيُّ يَكُونُ مُتَعَلِّقاً بِالحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ لَدَى المُتَكَلِّم، فَقَدْ يَدُلُّ عَلَى الاسْتِغْرَابِ مَثَلُ قَولِكَ: "اللَّهَ" دُونَ مَدٍّ، وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى الانْبِهَارِ "اللَّهَ" بِالمَدِّ، وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى السُّخْرِيَةِ وَعَدَمِ الرِّضَا "اللَّهَ اللَّهَ" بِالتَّخْفِيفِ، كَمَا يَقُولُ الدكْتُورُ تَمَّامُ حَسـان فِـي كِتَابِـهِ "اللغَـةُ العَرَبِيَّةُ مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا"[٥٧].

وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي قَوْلِهِ: تِلْكَ النُّفُوسُ مِنَ الطُّفُولَةِ أُرْضِعَتْ ذَاكَ اللَّبَنَ، تَعَجُّبٌ كَبِيرٌ مِنْ سُلُوكِ بَعْضِ أَبْنَاءِ شَـعْبِهِ الَّـذِينَ تَرَبَّـوا عَلَـى الخِصَـامِ، وَالنِّفَـاقِ، وَالكَـذِبَ، وَكَأَنَّهُمْ أُرْضِعُوا هَذِهِ السُّلُوكِيَّاتِ مُنْذُ الطُّفُولَةِ، فَهُوَ تَعَجُّبٌ مَشُوبٌ بِشَيءٍ مِنَ السُّخْطِ وَالغَضَبِ وَعَدَمِ الرِّضَا.

أَوْرَدَ الشَّاعِرُ هُنَا صُورَةً للتَعَجُّبِ وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ:

اللَـــهَ ثُـــمَّ اللَّـــهَ مَـــا أَحْلَـــى التَّضَـــــــامُنَ وَالوِفَاقَـــــــا !

وَنَظِيرُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

خَلِيلَيَّ ما أحرَى بذي اللُّـبِ أن يُـرى صَـبُورًا ولكـن لاسـبيلَ إلى الصَّـبرِ[٥٨]

فَهُوَ هُنُا يَجْرِي فِي مَجْرَى القِيَاسِ، وَهُوَ قَلِيلٌ عِنْدَهُ.

القَصِيدَةُ الثَّامِنَةُ: وَحْيُ الرِّسَالَةِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

قَبَّلْتُهَـــا فِـــي فَمِهَـــا قُبْلَـــةً ... مَـــا كَـــانَ أَزْكَاهَـــا وَأَحْلاَهَـــا
دُقْـــتُ بِهَـــا مِنْـــكِ أَلَـــذَّ الهَـــوَى ... فَكَيـــفَ أَنْسَـــاكِ وَأَنْسَـــاهَا[٥٩]

هَذَانِ البَيْتَانِ مِنْ قَصِيدَةٍ غَزَلِيَّةٍ نَظَمَهَا الشَّاعِرُ رَدّاً عَلَى رِسَالَةٍ تَلَقَّاهَا مِـنْ فَتَـاةٍ "كَفْر كَنّة "م.صَ، وَقَدْ أَخْبَرَتْهُ فِي رِسَالَتِهَا أَنَّ أَسْنَانَهَا تُؤْلِمُهَا، فَطَارَ صَـوَابُهُ، وَبَعَـثَ إِلَيهَـا تِلْـكَ الرِّسَالَةَ؛ لِيُعَبِّرَ عَنْ شَوقِهِ وحَنِينِهِ، وَيسْرَحُ فِي دُنْيَا الأَوهَامِ وَالخَيَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ١٩٢٩م.

أَمَّا التَعَجُّبُ فِي قَولِهِ: مَا كَانَ أَزْكَاهَا وَأَحْلاَهَا ! تَعَجُّبٌ جَاءَ عَلَى الْقِيَاسِ عَلَى وَزْنِ"مَا أَفْعَلَ" وَهُوَ هُنَا يُعَبِّرُ عَنْ شِدَّةِ إِعْجَابِهِ بِتِلْكَ القُبْلَةِ، وَأَثَرِهَا فِي كَيَانِهِ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْوَجْدُ غَايَتَهُ، فَاعْتَبَرَ أَنَّ حَلاَوَةَ هَذِهِ القُبْلَةِ لَمْ يَكُنْ قَبْلَهَا وَلاَ بَعْدَهَا مَا هُوَ أَلَذَّ وَأَزْكَى.

وَهَذَا شَيءٌ مُرْتَبِطٌ فِي أَسَاسِهِ بِرَهَافَةِ مَشَـاعِرِهِ وَشَـفَافِيَةِ أَحَاسِيسـهِ تِجَـاهَ هَـذِهِ الفَتَاةِ الَّتِي مَلَكَتْ عَلَيهِ أَقْطَارَ نَفْسِهِ.

أَمَّا التّعَجُّبُ الوَارِدُ فِي قَولِهِ: فَكَيْفَ أَنْسَاكِ وَأَنْسَاهَا؟! فهو اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيهِ مِنْ الاسْتِغْرَابِ وَالدَّهْشَةِ شَيءٌ مَلْمُوسٌ مِنْ خِلاَلِ السِّيَاقِ الرُّوحِيِّ الَّذِي يَسْـرِي فِـي مَضْمُونِ النَّصِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الِاسْتِفْهَامُ التَّعَجُّبِيُّ كَثِيرًا فِي القـرْآنِ الكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى:﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾[٦٠] وَكَمَـا فِـي قَولِـهِ تَعَالَى:﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾[٦١]، وَكَقَولِكَ: كَيفَ أَنْسَى هَذَا الأَمْرَ؟!

إِنَّهُ تَعَجُّبٌ، يُثِيرُ السَّامِعَ أَو يَلْفِتُ نَظَرَهُ إِلَى شَيءٍ ربما يَغْفُلُ عنـه، وَكـأَنَّ الأَمْـرَ جِدُّ خَطِيرٍ، وَهُوَ مَدْعَاةٌ لِلتّعَجُّبِ.

القَصِيدَةُ التَّاسِعَةُ: اغْفِرِي لِي

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

أَينَ تِلْكَ السَّمَاءُ؟ هَلْ كَانَ ذَاكَ ... الصَّرْحُ فِيهَا مُشَيَّدًا مِنْ سَحَابِ؟
اغْفِرِي لِي فَإِنَّ أَشْقَى المُحِبِّينَ ... مُحِبٌّ حَيَاتُهُ ذِكْرَيَاتُ
أَينَمَا كُنْتُ هَيَّجَ القَلْبَ ذِكْرَى ... صَوَّرَتْهَا آثَارُنَا البَاقِيَاتُ
مَا هُنَا؟ إِنَّهَا رُسُومُ دُمُوعٍ ... وَهُنَا؟ آهٍ إِنَّهَا قُبُلاَتُ
وَهُنَا؟ طَائِرٌ يُعِيدُ حَدِيثاً ... لَمْ تَغِبْ عَنْهُ هَذِهِ الكَلِمَاتُ

هَذِهِ القَصِيدَةُ نَظَمَهَا الشَّاعِرُ فِي ١٩٢٩م فِي رِسَالَةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَى "م.ص"، يَبُثُّ فِيهَا وَجْدَهُ وَهُيَامَهُ، وَيَسْتَعِيدُ فِيها ذِكْرَيَاتِهِ الوَهْمِيَّةَ الَّتِي يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ عَاشَهَا مَعَ تِلْكَ الفَتَاةِ، الَّتِي تَزَوَّجَتْ فِيمَا بَعْدُ مِنْ غَيرِهِ.

وَهْنَا يَبْدُو أَنَّ الشَّاعِرِ فَقَدَ عَقْلَهُ، فَهُوَ يُعَبِّرُ عَنْ أَشْيَاءَ لَمْ تَحْدُثْ عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ، كَمَا فِي قَصِيدَتِهِ،

وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي قَولِهِ: أَينَ تِلْكَ السَّمَاءُ؟ إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ مَا فِيهِ، وَفِيهِ مِنْ الدَّهْشَةِ مَا فِيهِ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ: مَا أَرْوَعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي سَمَونَا فِيهَا مُتَجَاوِزِينَ كُلَّ المَادِّيَّاتِ لِنُعَانِقَ النُّجُومَ، وَتَكْتَنِفْنا الأَزْهَارُ وَالرَّيَاحِينُ، إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ يُثِيرُ أَبْلَغَ غَايَاتِ التَّعَجُّبِ مِنْ خِلاَلِ الحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا الشَّاعِرِ هَا هُنَا، وَهَا هُنَا يَسْتَمِرُّ فِي عَرْضِ تَسَاؤُلاَتِهِ الاسْتِغْرَابِيَّةِ التَّعَجُّبِيَّةِ فِي قَولِهِ:

مَا هُنَا؟ إِنَّهَا رُسُومُ دُمُوعٍ ... وَهُنَا؟ آهٍ إِنَّهَا قُبُلاَتٌ

وَهُنَا؟ طَائِرٌ يُعِيدُ حَدِيثاً، إِنَّهُ شَيءٌ عَجِيبٌ، رُسُومُ دُمُوعٍ، وَهُنَا قُبُلاَتٌ، وَهُنَا طُيُورٌ تُرَدِّدُ هَمَسَاتِ الْمُحِبِّينَ، إِنَّهَا نَفَثَاتُ هَوْلِ مَا يُحِسُّ، وَيَبْدُو أَنَّ الشاعِرَ هُنَا كَانْ غَائِباً عَنْ صَوَابِهِ كَمَا يُصَرِّحُ هُوَ نَفْسُهُ فِي بِدَايَةِ القَصِيدَةِ ذَاتِهَا، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ:

اغْفِرِي لِي إِذَا اتَّهَمتُكِ بِالغَدْرِ فَقَدْ كُنتُ غَائِباً عَنْ صَوَابِي[٦٣]

إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ التسَاؤُلاَتِ فِي هَذَا المَقَامِ مَشْحُونَةٌ ولا شك بِأَحَاسِيسِ الاسْتِغْرَابُ وَالتَّعَجُّبِ، وَهِيَ تَأخُذُ هَذَا البُعْدَ الشعُورِيَّ، حِينَ تَرْبِطُهَا بِسِيَاقِهَا الَذِي تَدُورُ فِي فَلَكِهِ، وَلَولَا ذَلِكَ لَكَانَتْ تَسَاؤُلَاتٍ عَادِيَّةً، تَحْتَاجُ إِلَى جَوَابِ.

الأسلوب التَّعَجُّبِي عِنْدَ الشَّاعِرِ فِي قَولِه: أَينَ تِلْكَ السَّمَاءُ؟، كَمَا يَقُولُ النُّحَاةُ إِنَّه قَدْ يُستَفَادُ مِنَ الاستِفْهَامِ مَعْنَى التَّعَجُّب، وذَلِكَ نَحوَ مَا جَاءَ فِي قَولِه تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾[٦٤]، وهو "قَوِيٌّ مِن حَيْثُ المَعْنَى؛ لِأَنَّ المُخَاطَبَ يَجهَلُ سَبَبَ هَذَا التَّعَجُّب"[٦٥].

إِنَّ هُنَاكَ تَعْبِيرَاتٍ غَيرَ مُنْحَصِرَة تُستَعْمَلُ فِي التَّعَجُّب، وذلكَ كَأَنْ يَخْرُجَ الاستِفْهَامُ إِلَى مَعنَى التَّعَجُّب، كَمَا هُوَ فِي قُولِه تَعَالَىٰ:﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾[٦٦]، ونَحوَ: سُبْحَانَ الْخَالِقِ الْمُبْدِعِ، إِذَا تَعَجَّبْتَ مِنْ صُورَةٍ جَمِيلَةٍ... وَهِيَ تَعْبِيرَاتٌ غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِكُلِّ مَا يُؤَدِّي مَعْنَى التَّعَجُّب[٦٧].

القَصِيدَةُ العَاشِرَةُ: خَطْرَةٌ فِي الهَوَى

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

أَعِيدِي إِلَى المُضْنى وَإِنْ بَعُدَ المَدَى ... بُلَهْنِيَةَ العَيشِ الَّذِي كَانَ أَرْغَدا
تَبَارَكَ هَذَا الوَجْهُ مَا أَوضَحَ السَّنَا ... وَمَا أَطْيَبَ المُفْتَرَّ وَالمُتَوَرَّدا
فَقَدْتُكِ فُقْدَانَ الصِّبَا وَهَلِ امْرُؤٌ ... تَوَلَّى صِبَاهُ اليَومَ يُرْجِعُهُ غَدا
فَقَدْتُكِ لَكِنِّي فَقَدْتُ ثَلاثَةً ... سِوَاكِ: فُؤَادِي، وَالأَمَانِيَ وَالهُدَى
وَأَبْقَيتِ لِي غَيرَ القُنُوطِ ثَلاثَةً ... هَوَاكِ، وَسُقْمِي، وَالحَنِينَ

هَذِهِ القَصِيدَةُ نَظَمَهَا فِي فَتَاتِهِ ١٩٢٩م، حِينَمَا تَخَرَّجَ مِنَ الجَامِعَةِ الأَمْرِيكِيَّةِ بِبَيرُوتَ، وَكَانَ قَلْبُهُ مَا يَزَالُ مُمْتَلِئاً بِحُبِّ "م.ص"، وَقَدْ سَافَرَ إِلَى القَاهِرَةِ لِلْاسْتِشْفَاءِ، وَلِلِقَاءِ أَخِيهِ أَحْمَد الَّذِي كَانَ عَائِداً مِنْ أوكْسفُورد، وَنَظَم هَذِهِ القَصِيدَةَ بعدَ رُجُوعِهِ مِنْ مِصْرَ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ فَيَتَجلَّى فِي قَولِهِ قَالَ:

"تَبَارَكَ هَذَا الوَجْهُ...، فَقَدْ أَخَذَ جَمَالُ وَجْهِهَا منه كُلَّ مَأخَذٍ، وَعِبَارَةُ "تُبَارَكَ" دَائِمًا تَدُلُّ عَلَى مَدَى الانْبِهَار بِالشَّيءِ وَصَانِعِهِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦٩]، وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٧٠]، فَالآيَاتُ الكَرِيمَاتُ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الانْبِهَارِ بِجَلالَ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَذَلِكَ قَولُ الشَّاعِرِ مَعَ فَارِقِ التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ مُتَأَثِّرٌ بِالقُرْآن كَثِيراً، وَكَثِيراً مَا يُورِدُ بَعْضَ الألفاظ القرآنية، كَمَا في قوله فِي قَصِيدَةِ "حِطِّينٍ" المُوَجَّهَةِ لأَمِيرِ الشُّعَرَاءِ أَحْمَد شَوقِي:

يَا بَاكِيَ الفَيحَاءِ حِينَ بَدَتْ ... بِدَمِ البَوَاسِلِ كَالدِّهَانِ
أَيَّامَ كَانَتْ وَردَةً ... تُقِيمَ عَلَى الهَوَانِ[٧١]

فَقَولُهُ: "كَالدِّهَانِ" مَأخُوذَةٌ بِنَصِّهَا وُرَوحِهَا مِنْ سَورَةِ الرَّحْمَنِ مِنْ قَولِهِ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾(٧٢).

فَالشَّاعِرُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان إِذاً مُنْبَهِرٌ بِذَلِكَ الحُسْنِ، حَيثُ عَبَّرَ عَنْ تَعَجُّبِهِ بِقَوْلِهِ "تَبَارَكَ هَذَا الوَجْهُ"، ثُمَّ أَتْبَعَ هَذَا الانْبِهَارَ بِأُسْلُوبِ تَعَجُّبٍ آخَرَ جَاءَ عَلَى القِيَاسِ، وَذَلِكَ فِي قَولِهِ: مَا أَوضَحَ السَّنَا وَمَا أَطْيَبَ المُفْتَرَ وَالمُتَورَّدا، وَذَلِكَ عَلَى صِيغَةِ مَا أَفْعَلَ... مُكَرَّرَةٌ؛ لَتَدُلَّ عَلَى مَدَى اسْتِغْرَاقِهِ الوِجْدَانِي فِي اللَّوحَةِ الأَخَّاذَةِ أَمَامَهُ، وَجْهٌ مُنِيرٌ "كَسَنَا الشَّمْسِ، وَفَمٌ طَيِّبٌ، وخدُودٌ مُتَوَرِدَةٌ"، إِنَّ هَذَا التَّعَجُّبَ بِأُسْلُوبِهِ القِيَاسِيِّ يُوحِي بِمَا وَصَلَ إِلَيهِ الشَّاعِرُ مِنْ حَالَةِ هُيَامٍ وَصَبَابَةٍ؛ لِيُضْفِيَ عَلَى صَاحِبَتِهِ كُلَّ آيَاتِ الحُسْنِ وَالجَمَال، وَأَمَّا قَولُهُ:

فَقَدْتُكِ فُقْدَانَ الصِّبَا وَهَلِ امْرُؤٌ ... تَوَلَّى صِبَاهُ اليَومَ يُرْجِعُهُ غَدَا

فَقَدْتُكِ لَكِنِّي فَقَدْتُ ثَلاثَةً ... سِوَاكِ: فُؤَادِي، وَالأَمَانِيَّ وَالهُدَى

فَأَيُّ أَثَرٍ لِهَذَا الحُبِّ الَّذِي بِفَقْدِهِ صَاحِبَتَهُ، يَكُونُ فُقْدَانُ كُلِّ شَيءٍ الصِّبَا وَالشَّبَابِ بِمَا فِيهِمَا مِنْ لَذَّةِ الحَيَاةِ... إِنَّ هَذَا الشَّيءَ عَجِيبٌ، وَفِي قَولِهِ: فَقَدْتُ ثَلَاثَةً سِوَاكِ: فُؤَادِي، وَالأَمَانِيَّ وَالهُدَى، فَيَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ وَصَلَ الشَّاعِرُ إِلَى المَرْتَبَةِ العَاشِرَةِ مِنْ مَرَاتِبِ الحُبِّ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ الهِيَامِ، حِينَ يَهِيمُ المُحِبُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي البَرَارِي وَالقِفَارِ، كَمَا يَقُولُ ويُنَاجِي نُجُومَ اللَّيلِ، وَالظِّبَاءَ، وَالجَآذِرَ (٧٣)، كما يَقُولُ قَيْسُ بْنُ المُلَوَّحِ فِي صَاحِبَتِهِ لَيْلَى:

وَعَينَاكِ عَينَاهَا، وَجِيدُكَ جِيدُهَا ... وَلَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ رَقِيقُ (٧٤)

إِنَّ التَّعَجُّبَ - هُنَا - جَاءَ عَلَى اعْتِبَارِ السَّامِعِ الَّذِي يَقِفُ أَمَامَ هَذَا المَشْهَدِ الغَرَامِيِّ مُنْبَهِرًا مُتَعَجبًا، وَإِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان لَمْ يَصِلْ إِلَى مَرْتَبَةِ الجُنُونِ الَّتِي

وصَلَ إِلَيها مَجَانِينُ العَرَبِ فِي التَرَاثِ الشِّعْرِيِّ، كَقَيسِ لَيلَى، وَقَيسِ لُبْنَى، وَجَمِيلِ بُثَينَة، وَعُرْوَةِ العَفْرَاءِ، وَكُثَيِّرِ عَزَّةَ، وَلا كَتِلْكَ المَرْتَبَةِ الَتِي وَصَلَتْ إِلَيهَا "مَي زِيَادَة" فِي شَغَفِها وَحُبِّها لِجُبْرَانَ خَلِيل جُبْرَانَ، حَيثُ إِنَّها فَقَدَتْ عَقْلَهَا، وَهَامَتْ فِي شَوَارِعِ بَيرُوتَ فِي حَالَةِ جُنُونٍ، وَفُقْدَانٍ لِلْوَعْيِ.

لَقَدْ هَامَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان بِـ"م.ص"، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ مُتَمَاسِكَ الفِكْرِ، مُتَوَازِنَ الخُطَا، وَإِنْ كَانَ قد لجأ أَثَرُ هَذَا الحُبِّ تَمَثَّلَ فِي صِحَّتِهِ، حَيثُ دَمَّرَهَا تَدْمِيرًا.

لقد لجأ إبراهيم طوقان إلى التَّعَجُّب القياسي في قوله:

تَبَارَكَ هَذَا الوَجْهُ مَا أَوضَحَ السَّنَا وَمَا أَطْيَبَ المُفْتَرَّ وَالمُتَوردَّا

القَصِيدَةُ الحَادِيَةَ عَشَرَةَ: البَلَدُ الكَئِيبُ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

أَتَضِيعُ يَا وَطَنِي وَهَا عِرْقُ العُرُوبَةِ فِيَّ نَابِضْ؟!
فَلأَذْهَبَنَّ فِدَاءَ قَومِي فِي غِمَارِ المَوتِ خَائِضْ
بُشْرَاكَ يَا وَطَنِي فَقَدْ نهَضَتْ بِكَ الغِيدُ الأَوَانِسْ
حَيَّتْ جُمُوعَ الغَانِيَاتِ عُيُونُ نرْجسكَ النَّواعِسْ
وَطَنِي، ظَفِرْتَ إِذَا النِّسَاءُ هَتَفْنَ بِاسْمِكَ فِي

أُلْقِيَتْ هَذِهِ القَصِيدَةُ ١٩٢٩م بِمُنَاسَبَةِ الإِضْرَاب الذي عمَّ فِلَسْطِينَ يَوْمَ وَعَدِ بِلْفُور، وَهُوَ فِيهَا يَتَحَسَّرُ عَلَى وَطَنِهِ، وَيَبْكِي عَلَى مَا أَصَابَهُ جَرَّاءَ وَعَدِ بِلْفُور، وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مِنْ فَتْحِ أَبْوَابِ الهِجْرَةِ لِلْيَهُودِ، وَهُوَ يُعَرِّضُ بِهَذَا الوَعْدِ، وَيَتَوَعَّدُ صَانِعِيهِ، وَيَحُضُّ الشَّبَابَ عَلَى الجِهَادِ.

وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي الأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ، فَتَمَثَّلَ فِي الاسْتِفْهَامِ الاسْتِغْرَابِيِّ، وَذَلِكَ فِي قَولِهِ: أَتَضيعُ يَا وَطَنِي، وَهُوَ تَعَجُّبٌ قَائِمٌ عَلَى إِحْسَاسِ الشّاعِرِ تِجَاهَ وَطَنِهِ، فَضَياعُ الوَطَنِ فِي تِلْكَ الفَتْرَةِ أَمْرٌ يَدْعُو للعَجَبِ وَالتّعَجُّبِ، وَهُوَ لاَ يُقِرُّ بِذَلِكَ مَا دَامَ فِيه عِرْقٌ يَنْبِضُ، وَرُبَّمَا وَرَدَ هَذَا التّعَجُّبُ المَحْسُوسُ لَدَيْهِ مِنْ زَاوِيَةِ التّعْرِيضِ بِالمُتَقَاعِسِينَ مِنْ أَبْنَاءِ وَطَنِهِ، وَهَذَا التَّعْرِيضُ تَمَثَّلَ بِشَكْلٍ سَافِرٍ حِينَ أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى الغَانِيَاتِ، وَهَذَا شَيءٌ عُجَابٌ، فَقَدْ عَقِمَتِ الأُمَّةُ أن تُنْجِبَ رِجَالاً؛ لِتَخْلُوَ السَّاحَةُ النِّضَالِيَّةُ لِرَبَّاتِ الحِجَال، يَقُولُ مُتَهَكِّماً، أوجاداً:

بُشْرَاكَ يَا وَطَنِي فَقَدْ نَهَضَتْ بِكَ الغِيدُ الأَوانِس

وَهَذَا مَدْعَاةٌ لِلْتَعَجُّبِ – أَيْضاً – فِي السِّيَاقِ ذَاتِهِ، فَقَدْ حَوَّلَ المَقَامَ كُلَّهُ إِلَى الانْبِهَارِ بِدَورِ الغِيدِ وَجُمُوعِهِنَّ اللَّوَاتِي حُيِّينَ بِعُيُونِ النَرْجِسِ، وَكَأَنَّهُ فِي تَجْرِبَةٍ غَزَلِيَّةٍ، فَالمَرْأَةُ عِنْدَهُ هِيَ المُحَرِّكُ الرَّئِيسُ لِمَعَينِ الشِّعْرِ عِنْدَهُ، وَالمُفَجِّرُ الأَوَّلُ لِلطَّاقَةِ الشِّعْرِيَّةِ.. إِنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا هُوَ مَدْعَاةٌ لِلْتَعَجُّبِ، وَانْظُرْ إِلَى صُورَةِ التّعَجُّبِ الأُخْرَى فِي قَولِهِ:

وَطَنِي، ظَفِرْتَ إِذَا النِّسَاءُ هَتَفْنَ بِاسْمِكَ فِي المَجَالِس

فَأَيُّ ظَفَرٍ هَذَا الَذِي سَيُحَقِّقُهُ الوَطَنُ المُضَيَّعُ إِذَا هَتَفَتْ النِّسَاءُ بِاسْمِهِ فِي المَجَالِسِ؟! وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي قَولِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[٧٦] ... وَهَكَذَا لاَ يَكُفُّ الشَّاعِرُ عَنْ إِبْدَاءِ تَعَجُّبِهِ المُتْشِحِ بَالحَسْرَةِ وَالتَأَوُّهِ وَالتّفَكُّهِ، جَرَّاءَ عَمَايَةِ بَنِي وَطَنِهِ عَنْ ضَيَاعِ البِلاَدِ، وَهُمْ فِيْ خِلَافَاتٍ وَجَاهِيَّةٍ وَحِزْبِيَّةٍ.

هَذَا هُوَ أُسْلُوبُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان فِي إِيرَادِ أَسَالِيبِهِ التَعَجُّبِيَّةِ، مُعْتَمِدًا عَلَى النُّكْتَةِ البَالِغَةِ، وَاللَّمْحَةِ اللاَّذِعَةِ.

القَصِيدَةُ الثَّانِيَةَ عَشَرَةَ: الفِدَائِيُّ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

لاَ تَسَـــلْ عَـــنِ سَـــلاَمَتِه ... رُوحُـــهُ فَـــوقَ رَاحَتِـــهْ
بَدَّلَتْـــهُ هُـمُـومُـــهُ ... كَـــفَنَا مِـــنْ وِسَـــادَتِهُ
مَـــنْ رَأَى فَحْمَـــةَ الـــدُّجَى ... أُضْـــرِمَتْ مِـــنْ شَـــرَارَتِهْ
هُـــوَ بِالبَـــابِ وَاقِـــفُ ... وَالـــرَّدَى مِنْـــهُ خَـــائِفُ
صَـــامِتٌ لَـــو تَكَلَّـــمَا ... لَفَـــظَ النَّـــار وَالـــدَّما (٧٧)

هَذِهِ القَصِيدَةُ نَظَمَهَا فِي فِدَائِيٍّ شُجَاعٍ ١٩٣٠م، يَومَ كَمَنَ ذَلِكَ الفِدَائِيُّ فِي مدْخَلِ دَارِ الحُكُومَةِ المُنْتَدَبَةِ فِي القُدْسِ،وَأَطْلَقَ النَّارَ عَلَى النَّائِبِ العَامِ اليَهُودِيِّ البِريطَانِيِّ، الَّذِي أَمْعَنَ فِي النِّكَايَةِ وَالكَيدِ لِلْعَرَبِ بِالقَوَانِينِ التَعَسُّفِيَّةِ الجَائِرَةِ الَّتِي كَانَ " يَطْبُخُهَا " لِيَبِيعَ النَّاسُ أَرْضَهُمْ لليَهُودِ.

إِنَّ الشَّاعِرِ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ مُعْجَبٌ غَايَةَ الإِعْجَابِ مِنْ ذَلِكَ الفِدَائِيِّ الشُّجَاعِ، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ: مَنْ رَأَى فَحْمَةَ الدُّجَى؟ إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ عَلَى عَادَتِهِ يُفشِي بِالإِكبَارِ وَالإِجْلالِ لِذَلِكَ الفَتَى المِغْوَارِ، الَّذِي مَزَّقَ سُكُونَ اللَيلِ بِرَصَاصَةٍ أَضَاءَتِ الظُّلُمَاتِ، صَوَّبَهَا لِذَلِكَ العَدُوِّ، إِنَّهُ مَوقِفٌ تَعَجُّبِيٌّ يَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان مِنْ خِلاَلِ إِحْسَاسِهِ بِعَظَمَةِ إِقْدَامِ ذَلِكَ الفِدَائِيِّ عَلَى ذَلِكَ العَمَلِ الَّذِي دَفَعَ حَيَاتَهُ ثَمَناً لَهُ.

ثُمَّ هَا هُوَ يَرْسُمُ صُورَةً لِحَرَكَةِ البَطَلِ فِي تَعْبِيرٍ تَعَجُّبِيٍّ آخَر، وَذَلِكَ فِي قَولِهِ:

هُـــوَ بِالبَـــابِ وَاقِـــفٌ ... وَالـــرَّدَى مِنْـــهُ خَـــائِفُ !!

فَأَيُّ رَجُلٍ هَذَا الَّذِي يَخْشَاهُ الرَّدَى، وَكَأَنَّ الأَمْرَ انْعَكَسَ، فَغَدَا الطَّالِبُ مَطْلُوبًا؛ إِنَّهُ لَأَمْرٌ عَجِيبٌ، وَإِنَّه لِمَّا يَدْعُو إِلَى التَّعَجُّبِ، الصَّمْتُ الْمُعْجِزُ لِـذَلِكَ الفَتَـى، يَتَّضِـحُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ:

صَـــــامِتٌ لَـــــو تَكَلَّمَـــــا لَفَـــــظَ النَّـــــارَ وَالـــــدَّمَا

لِأَنَّ كَلاَمَهُ يَعْنِي قُوَّةَ النِّيرَانِ وَالدِّمَاءِ الْمَسْفُوحَةِ مِنْ العَـدُوِّ، إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ طَوقَـان يَرَى الأُمُورَ بِمِرْآةٍ قَدْ يَغْفَلُ عَنْهَا الكَثِيرُونَ، إِلَّا مَن كَانَ لَـهُ مِثْـلُ إِحْسَاسِـهِ وَرُؤْيَتِـهِ... وَهَذَا أَمْرٌ يَدْعُو إِلَى التَعَجُّبِ أَيْضاً...

حَقًّا إِنَّ أُسْلُوبَ التَعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ جَاءَ ذا مَنْحى مُغَايرٍ لِمَا أَلِفَهُ أَهْلُ النَّحْوِ، وَهُوَ مَنْحَى الشُّعَرَاءِ الرُّومُانْسِيِّينَ [٧٨]، الَّذِينَ تَهُزَّهُمُ لَفْتَةُ طَرْفٍ، أَو بُغَامُ ظَبْـيٍ [٧٩]، أَو مَيسَةُ غَانِيَةٍ[٨٠]، أو لَمْحَةُ بُطُولَةٍ.

وَاضِحٌ إِنَّ أُسْلُوبَ التَعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَـانَ نَحَـا مَنْحَـىً مُغَـايِراً لِلوَظِيفَـةِ النَّحْوِيَّةِ فِي نَحْوِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْعَلامَةِ الْإِعْرَابِيَّة، إِذْ إِنَّ الْعَلَامَـةَ هِـيَ الَّتِـي تُحَـدِّدُ لِلْمُسْتَمِعِ أَوِ الْقَارِئِ نَوْعَ الْوَظِيفَةِ النَّحْوِيَّة، وَلِذَا فَإِنَّ احْتِمَالَ صِـحَةِ أَكْثَـرَ مِـنْ عَلَامَـةٍ عَلَـى الْكَلِمَـةِ بِـالرَّغْمِ مِـنَ اسْتِحْسَـانِ عَلامَـةٍ دُونَ أُخْـرَى وفْـقَ الدَّلَالَـةِ الْمَقْصُـودَة خُصُوصَاً فِي الْقُرْآنِ الْكَـرِيم، يُعَـدُّ لَوْنَـاً مِـنْ أَلْـوَانِ عَـدَمِ ثَبَـاتِ الْوَظَـائِفِ النَّحْوِيَّـةِ لِلْمُفْرَدَاتِ دَاخِلَ التَّرَاكِيبِ، يُضَافُ إِلَى اللَّونِ الْأَصْلِيِّ لِتَبَادُلِ الْوَظَائِفَ النَّحْوِيَّـةِ بَـيْنَ الْأَلْفَاظِ[٨١]، وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ السَّامرَّائي [٨٢].

القَصِيدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مُنَاجَاةُ وَرْدَةٍ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

جَنَى عَلَيكِ الحُسْنُ يَا وَرْدَتِي ... وَطِيبُ رَيَّاكِ فَذُقْتِ العَذَابْ
رَوضَتُكِ الغَنَّاءُ يَا وَرْدَتِي ... قَدْ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهِيجْ
لِلَّهِ مَا أَصْدَقَهَا حِكْمَةً ... فَاهَ بِهَا المَجْهُولُ فِي عَهْدِهِ
تَشْتَاقُ أَيَّارَ نُفُوسُ الوَرَى ... وَإِنَّمَا الشَّوقُ إِلَى وِرْدِه
تَعْزِيَةٌ أَودَعَ فِيهَا الضَّرِيرْ ... حُكْمَ البَصِيرْ
كَلاَّ؛ بَلِ النَّفْسُ الَّتِي تَضْعُفُ ... تَصْطَنِعُ البَأْسَ فَلاَ تُعْرَفُ (٨٣)

اسْتَوحَى الشَّاعِرُ هَذِهِ القَصِيدَةَ مَنْ ذِكْرَى حُبِّهِ لِـ" م.ص "إِذْ إِنَّ حُبَّهُ لَهَا جَلَبَ إِلَيهَا الأَنْظَارَ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ فَازَ بِهَا أَحَدُ المُعْجَبِينَ، وَتَأَثَّرَ فِي مَوضُوعِهَا بِمَا لَقِيَهُ أَخُوهُ أَحْمَدُ عِنْدَ تَوظِيفِهِ مُدَرِّساً فِي القُدْسِ، فَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَشْعُرُ أَنَّ تَفَوُّقَ أَخِيهِ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَنَالُ دُونَ حَقِّهِ، وَلَولاَ هَذَا التَّفَوُّقُ لَنَالَ مُعَامَلَةً أَحْسَنَ؛ لأَنَّ الرَّجُلَ العَادِيَ لاَ يَخْشَى رُؤَسَاؤُهُ جَانِبَهُ، أَمَّا التَّعَجُّبُ عِنْدَ الشَّاعِرِ فِي هَذِهِ المُنَاجَاةِ، فقد دَارَ فِي دَائِرَتَينِ:

الأُولَى: دَائِرَةُ اللَّمْحةِ السَّرِيعَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى النُّكْتَةِ الشِّعْرِيةِ، انْطِلاقاً مِنْ مَفْهُومِهِ لِلْشِّعْرِ، وأَنَّهُ نُكْتَةٌ وَالثَانِي: عَلَى القِيَاسِ، فَنَرَاهُ يَقُولُ فِي القِيَاسِ: لِلَّهِ مَا أَصْدَقَهَا حِكْمَةً، حَيثُ جَاءَ التَّعَجُّبُ هُنَا عَلَى صِيغَةِ مَا أَفْعَلَ ! مُبْدِياً تَعَجُّبُهُ مِنْ حِكْمَةِ المَعَرِّي الَّذِي أَورَدَهُ فِي السِّيَاقِ ذَاتِهِ حِينَمَا قَالَ:

تَشْتَاقُ أَيَّارَ نُفُوسُ الْوَرَى ... وَإِنَّمَا الشَّوقُ إِلَى وِرْدِهِ

وَهَذِهِ الحِكْمَةُ الَّتِي أَثَارَتْ تعَجُّبَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ لَهَا مَسَاسٌ بِرُوحِهِ الشَّاعِرَةِ، وَحُبِّهِ لِوُرُودِ أَيَّارَ لا لأَيَّارَ ذَاتِهِ، وَيَبْدُو لِي أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ تَعَلَّقَ بِفَتَاةٍ "كفر كَنَّه "فِي هَذَا

الشّهْرِ مِنْ شُهُورِ السَنَةِ، وَهُوَ الشّهْرُ الَّذِي تَتَفَتَّحُ فِيهِ الأَزْهَارُ، وَيَعْشَقُ فِيهِ العَاشِقُونَ، فَالتعَجُّبُ – هُنَا – مُرْتَبِطٌ بِهَوَى النَفْسِ أَشَدَّ الارْتِبَاطِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، ثُمَّ نَجِدُهُ يُورِدُ صُورَةً تَعَجُّبِيَّةً أُخْرَى عَلَى غَيرِ القِيَاسِ، وَذَلِكَ فِي قَولِهِ:

كَلاَّ؛ بَلِ النّفْسُ الَّتِي تَضْعُفُ تَصْطَنِعُ البَأسَ فَلا تُعْرَفُ[٨٤]

وَهُنَا يُشِيرُ إِلَى شَيءٍ مُعْجِزٍ فِي الحَيَاةِ أَثَارَ دَهْشَتَهُ وإِعْجَابَهُ، وَهُوَ أَنَّ سِرَّ قُوَّةِ الكَائِنِ يَكْمُنُ فِي ضَعْفِهِ، كَذَلِكَ حَيَاةُ البَشَرِ وَالحَيَوَانَاتِ، فَالمَرْأَةُ سَرُّ قُوَّتِهَا فِي ضَعْفِهَا، فبِضَعْفِهَا تَغْزُو قَلْبَ الرَّجُلِ وَتُهَيْمِنُ عَلَيْهِ، وَالعُصْفُورُ الصَّغِيرُ يَبْطِشُ بِالأَفْعَى، وَالبَعُوضَةُ تُدْمِي مُقْلَةَ الأَسَدِ.

يَقُولُ الشّاعِرُ:

لاَ تُحَقِرَنَّ صَغِيراً فِي مُخَاصَمَةٍ إِنَّ البَعُوضَةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الأَسَدِ[٨٥]

فَهُوَ يَرَى بِنَظْرَتِهِ الثّاقِبَةِ وَحِسِّه الشّاعِرِ أَنَّ النَفْسَ الضَّعِيفَةَ قَدْ تَصْطَنِعُ مَالا يَصْطَنِعُهُ غَيرُهَا.

عَلَى أَيَّةِ حَالٍ فَالتعَجُّبُ عِنْدَهُ يَتَراوَحُ بَيْنَ الْقِيَاسِ وَالسَّمَاعِ، وَمَا يُسْتَنْتَجُ مِنَ السِّيَاقِ، وَهُنَا تُتَعَدَّدُ الْوَظَائِفُ النَّحْوِيَّةُ لِلْمُكَوِّنِ الْوَاحِدِ الدَّالِ عَلَى الْمَعْنَى الْجَدِيْدِ الْمُرْتَبِطِ بِالْحَالَةِ الْوُجْدَانِيَّةِ لِلْمُتَكَلِّم، وَمِنْ هُنَا تَنَبَّهَ النُّحَاةُ وَاللُّغَوِيُّونَ بِعَامَّةٍ إِلَى خُطُورَةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَة، فَوَضَعُوا لَهَا أُسُساً وَسَمَاتٍ يَتَّسِمُ بِهَا كُلُّ مُكَوِّنٍ حِينَ يُؤَدِّي وَظِيفَةً نَحْوِيَّةً مُعَيَّنَةً فِي تَرْكِيبٍ مُعَيَّن[٨٦]، وَهَذَا يَتَّضِحُ فِي خُرُوجِ التَّرْكِيبِ مِنْ دِلَالَتِه النَّحْوِيَّةِ التَّرْكِيبِيَّةِ إِلَى دَلَالَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِمَعَانِي النَّحْوِ.

القَصِيدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الثَّلاَثاءُ الحَمْرَاءُ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

يـومٌ أَطـلّ عَلَـى العُصُـور الخَالِيَـهْ ... وَدَعَا: أَمَرَّ عَلَـى الـوَرَى أَمْثَالِيـةْ؟"
وَيــلٌ لَــهُ مَــا أَظْلَمَــا لَكِنَّمــا ... حَمَـلَ البَرِيـدَ مُفَصِّـلاً مَـا أُجْمَـلا
لَمْ أَلْـقَ مِثْلَـكَ طَالِعـاً فِـي رَوعَـةٍ ... فَـاذْهَبْ لَعَلَّـكَ أَنْـتَ يَـومُ المَحْشَـرِ
الكُــلُّ يَرْجُــو أَنْ يُبَكِّــرَ عَفْــوُهُ ... نَـدْعُــو لَــهُ أَلاَ يُكَــدِّرَ صَفْــوُهُ
ضَــاقَ البَرِيـدُ وَمَـا تَغَيَّـرَ حَـالُ ... وَالـدُّلُّ بَـينَ سْـطُورِنَا أَشْـكَالُ(٨٧)

حَاوَلَ اليَهُودُ فِي صَيفِ ١٩٢٩م الخُرُوجَ عَلَى التَقَالِيدِ الثَّابِتَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِصَلاَتِهِمْ فِي مَوقِعِ "البُراق"، فَهَاجَ العَرَبُ؛ لأَنَّهُمْ فَطِنُوا إِلَى مَا يُضْمِرُ اليَهُودُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ المُحَاوَلَةِ مِنْ اعْتِدَاءٍ عَلَى الأَمَاكِنِ المُقَدَّسَةِ، وَنَشَبَتْ فِي القُدْسِ وَالخَلِيلِ وَيَافَا وَصَفَد اضْطِرَابَاتٌ دَامِيَةٌ بَينَ اليَهُودِ وَالعَرَبِ، قُتِلَ فِيهَا مِنْ اليَهُودِ عَدَدٌ كَبِيرٌ فِي مَدِينَتَي الخَلِيلِ وَصَفَدٍ، ثُمّ أَلْقَتْ السُّلُطَاتُ البِرِيطَانِيَّةُ القَبْضَ عَلَى بَعْضِ الشَّبَّان، وَاتَّهَمَتْهُمْ بِقَتْلِ اليَهُودِ وحُوكِمُوا، وَصَدَرَتْ أَحْكَامُ الإِعْدَامِ عَلَى الشُّهَدَاءِ الثَّلاَثَةِ: فُؤَادِ حِجَازِي مِنْ صَفَد، وَمُحَمَّد جَمْجُومٍ، وَعَطَا الزِّيرِ مِنَ الخَلِيلِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيْعًا.

أَمَّا اللَّمَحَاتُ التَّعَجُّبِيَّةُ فِي القَصِيدَةِ فَنَرَاهَا فِي قَولِهِ: وَيْلٌ لَـهُ مَـا أَظْلَمَـا لَكِنَّمَـا حَيثُ جَاءَ التّعَجُّبِ عَلَى سَبِيلِ القِيَاسِ: مَا أَفْعَلَ، وَهُوَ هُنَا يَأْخُذُ بُعْدًا نَفْسِيًّا غَائِرًا فِـي نَفْسِ الشّاعِرِ لِمَا ارْتَكَبَهُ المُحْتَلُّ البِرِيْطَانِيُّ اليَهُودِيُّ مِنْ ظُلْمٍ وَتَعَسُّفٍ فِي يَـومِ الثُّلَاثَـاءِ الحَمْرَاءِ بِحَقِّ الأَبْطَالِ الشُّهَدَاءِ الثّلاثَةِ.

ثُمَّ يُورِدُ أُسْلُوباً تَعْجُبِيًّا فِي السِّيَاقِ نَفْسِهِ، يُعَبِّرُ فِيهِ عَنْ مَدَى سُخْطِهِ عَلَى مَا حَلّ فِي ذَلِكَ اليَومِ الأَسْوَدِ، يَتَضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ حِينَمَا قَالَ: "فَاذْهَبْ لَعَلَكَ أَنْتَ يَـومُ

الَمحْشَرِ" إِنَّهُ تَعَجُّبٌ مِنْ لَونٍ خَاصٍّ، لاَ يُدْرِكُهُ إِلاَ مَنْ عَاشَ المَشْهَدَ، وَاكْتَوَى بِنَارِ الظَّلمِ، فَتَرَى النَّاسَ يَومَئِذٍ مِنْ هَوْلِ المَوقِفِ فِي حَالَةِ هَلَعٍ وَفَزَعٍ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، مِصْدَاقاً لِقَولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(٨٨).

إِنَّ الشَّاعِرَ مُتَأَثِّرٌ - بِلاَ شَكٍّ - بِالتَّصْوِيرِ الفَنِّيِّ فِي القُرْآَنِ الكَرِيمِ، وبِآَيَاتِ التَّدَبُّرِ وَالانْبِهَارِ أَمَامَ مَا يَجْرِي فِي الكَوْنِ مِنْ تَدْبِيرٍ يَجْعَلُ الحَلِيمَ حَيْرَانَ، حِينَ تُطَبَّقُ شَرِيعَةِ الغَابُ فِي دُنَيا البَشَرِ.

وَأَمَّا قَولُهُ: حَمَلَ البَرِيدُ مُفَصِّلاً مَا أَجْمَلا، فَالتَّعَجُّبُ هُنَا جَاءَ عَلَى القِيَاسِ عَلَى وَزْنِ مَا أَفْعَلَ ! وَإِذَا مَا رَبَطْنَا التَّعَجُّبِ بِيَومِ الثُّلاَثَاءِ الدَّامِي، وَرَدَّةِ الفِعْلِ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ، وَجَدْنَاهُ تَعَجُّبًا غَرِيبًا، إِنَّه تَعَجُّبٌ قَائِمٌ عَلَى الأَمَلِ، وَلَيْسَ عَلَى شَيءٍ حَدَثَ فِعْلاً، مِمَّا يُثِيرُ أَحَاسِيسَ الانْبِهَارِ بِالجَمَالِ، يُفَسِّرُ ذَلِكَ قَولُهُ حِينَمَا أَنْشَدَ قَبْلَ ذَلِكَ قَائِلاً:

الكُلُّ يَرْجُو أَنْ يُبَكِّرَ عَفْوُهُ نَدْعُوَ لَهُ أَلاَ يُكَدِّرَ صَفْوُهُ.. !

أَيُّ عَفْوُ المَنْدُوبِ السَّامِي البِرِيْطَانِيِّ اليَهُودِي فِي فِلَسْطِينَ، وَقَدْ أَلَحَّتْ عَلَيهِ الهَيئَاتُ السِّيَاسِيَّةُ العَرَبِيَّةُ؛ لِيُصْدِرَ العَفْوَ، فَلَمْ يَفْعَلْ قَاتَلَهُ اللَّهُ، إِنَّهُ تَعَجُّبٌ يَرْتَكِزُ عَلَى الأَمَلِ وَالرَّجَاءِ، مَا أَجْمَلَهُ لَو حَدَثَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ، إِنَّهُ تَعَجُّبٌ يَشِير إِلى تَعْزِيَةِ النَّفْسِ المُتَشَوِّقَةِ إِلَى انْقَاذِ هَؤُلاَءِ الأَبْطَالِ الثلاثة.

وَهُنَا نَجِدُ الشَّاعِرَ يَسِيرُ عَلَى الْمَنْهَجِ نَفْسه، وَهُوَ مَنْهَجُ الْأُسْلُوبِ التَعَجُّبِيِّ غَيْرِ الْمُبَوَّب، الذِّي أَشَارَ إِلَيْهِ النُّحَاةُ، وَلَوْ حَاوَلْنَا أَنْ نُحَلِلَ التَّرْكِيبَ تَحْلِيلاً نَحْوِيًّا إِعْرَابِيًّا، لَفَقَدَ سِمَةَ التَّعَجُّبِ الْمُرْتَكِزَةِ فِي أَحَاسِيسِ الشُّعَراءِ(٨٩).

القَصِيدَةُ الخَامِسَة عَشْرة: طَيفُ الأمَلْ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

لِلَّـــــهِ مَـــــا أَعْجَبَـــــهُ ... هَـــــوَى بِقَلْبِـــــي نَـــــزَلا
هَـــــوَى عَلَـــــى عِلْاتِـــــهِ ... أَبْنِـــــي عَلَيـــــهِ أَمَـــــلاَ
هَـــــوَى لِمَـــــنْ لَـــــمْ أَرَهَـــــا ... يَـــــذْهَبُ عَنِّـــــي مَثَلَـــــا
قِيَـــــلَ انْتَهَـــــى الحُسْـــــنُ لَهَـــــا ... قُلْـــــتُ: لَهَـــــا وَاكـــــتَمَلا
قِيَـــــلَ اسْـــــمُهَا مَحَاسِـــــنُ ... جَـــــلَّ مِـــــنِ اسْـــــمٍ وَعَـــــلاَ[٩٠]

نَظَمَ الشّاعِرُ هَذِهِ القَصِيدَةَ فِي "مْ.صَ" صَاحِبَتِهِ فِـي ٢٠ شـبَاط ١٩٣١م، فَهِـيَ تَعِيشُ فِي وُجْدَانِهِ وَلاَ تُفَارِقُ خَيَالَهُ، إِنَّهُ مُجَرَّدُ طَيْفٍ لَهَا، مَرَّ بِخَاطِرِهِ، فَانْجَـذَبَ إِلَيْـهِ بِحَرَارَةِ الشّوْقِ وَالتَولُّهِ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَيَبْرُزُ هُنَا فِي قَوْلِهِ: لِلَّهِ مَا أَعْجَبَهُ ! وَلَفْظُ الجَلَالَةِ فِي البِدَايَةِ، يُنْبِـئُ بِغَايَةِ الإِعْجَابِ وَالدَّهْشَةِ، كَأَنْ يَقُولَ القَائِلُ: لِلَّهِ دَرُّكَ فَارِسًا ! أَو كَأَنْ يَقُولَ: يَا لِلَّهِ !!! لِتَعْظِيمِ المَوقِفِ فِي سِيَاقٍ تَعَجُّبِي عَظِيمٍ.

حَيْثُ جَاءَ قَولُهُ مَا أَعْجَبَهُ عَلَى الْقِيَاسِ عَلَى وَزْنِ "مَا أَفْعَلَ" وَهَذَا الـوَزْنُ قَلِيـلٌ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان، إِذَا مَا قُـورِنَ بِأَسَـالِيبِ التَّعَجُّـبِ الَّتِـي أَوْرَدَهَـا فِـي مُعْظَـمِ قَصَائِدِهِ عَلَى غَيرِ القِيَاسِ، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ أَرْوَعَ، وَأَبْـدَعَ وَأَنْفَـذَ إِلَـى الوِجْـدَان؛ حَيـثُ رَبَطْنَاهَا بِالْمُشَاهَدِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَأَحَاسِيسِ الشَّاعِرِ تِجَاهَهَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَمِثَالُ ذَلِـكَ قَولُهُ مُنْبَهِرًا:

قِيَـــــلَ انْتَهَـــــى الحُسْـــــنُ لَهَـــــا ... قُلْـــــتُ: لَهَـــــا.. وَاكْـــــتَمَلا

فهُوَ أَمَامَ حُسْنِهَا يَقِفُ مَشْدُوهًا إِلَى الحَدِّ الَّذِي يُعْتَبَرُ فِيهِ هَذَا الحُسْنُ قِمَّةُ الاكْتِمَالِ، وَهُنَا مُبَالَغَةٌ شَدِيدَةٌ؛ لأَنَّ الكَمَالَ لِلَهِ وَحْدَهُ.

ففي قول الشاعر مُتَعَجِّباً في قوله:

لِلَّـــــهِ مَـــــا أَعْجَبَـــــهُ هَـــــوَى بِقَلْبِـــــي نَـــــزَلا

حَيْثُ مَزَجَ الشَّاعِرُ بَيْنَ التَّعجبِ السَّمَاعِيِّ كَمَا فِي قَولِهِ: للهِ درُّهُ فَارِسَاً، كَمَا يَقُولُونَ، وَالْقِيَاسُ مَا أَفْعَلَهُ، أَيْ: مَا أَعْجَبَهُ، وَهَذَانِ أَمْرَانِ مُبَوَّبَانِ، وَلَكِنَّ الْكَثِيرَ عِنْدَ الشَّاعِرِ مِنْ بَابِ مَا لَيْسَ مُبَوَّبَاً، وَفِيهِ نَحِسُّ رُوحَ التَّعَجُّبِ دُونَ رُكُونٍ إِلَى التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ الْإِعْرَابِيَّةِ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَجَالِ صِيَغٌ كَثِيرةٌ، كَالاسْتِفْهَامِ وَنَظِيْرُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً﴾[٩١]، وَكَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – "سُبْحَانَ اللهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجِسُ"[٩٢]، وَمِثْلُهُ مَا وَرَدَ فِي بَابِ نِعْمَ وَبِئْسَ كَصِيغَةِ "فَعُلَ" بِالضَّمِّ كـ "شَرُفَ" و "ظَرُفَ"[٩٣].

القَصِيدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: غَادَةَ إِشْبِيلِيَةَ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

أَوَّلُ عَهْـــدِي بِفـــُنُونِ الهَـــوَى بَيـــرُوتُ أَنْعِـــمْ بِـــالهَوَى الأَوَّلِ
بَيرُوتُ لَـو شِـئْتُ دَفَعْـتُ النَّـوَى طَوعًـا وَلَـمْ أَهْجُـرْكِ فَالوَيـلُ لِـي
لِـــيَ رَقْـدَةٌ طَوَيـــلَةٌ فِـــي غَـــدٍ لِلَّـهِ مَـا أَعْـمَقَـهَا فِـي الثَّـرَى
أَفْـدِي بِرُوحِـــي غِيـــدَ أَشْـبِيلِيَّةَ وَإِنْ أَذَقْـنَ القَلْـبُ صَـابَ العَـذَابْ[٩٤]

أَنْشَدَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان هَذِهِ القَصِيدَةَ سنة ١٩٣٢مْ فِي رَاقِصَةٍ أَسْبَانِيَّةٍ تُدْعَى "مَرْغَرِيتا"، وَكَانَ عُنْوَانُ القَصِيدَةِ فِي الأَصْلِ "حَسْرَةً وَأَملَ"، وَكَانَ عُمْرُهُ يَومَئِذٍ سَبْعاً وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَبَعْدَ تِسْعِ سَنَوَاتٍ أَدْرَكَتْهُ مَنِيَّتُهُ ١٩٤١م.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ جَاءَ هَنَا عَلَى القِيَاسِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِـهِ: أَنْعِـمْ بِـالهَوَى الأَوَّل، وَذَلِكَ عَلَى وَزْنِ "أَفْعِلْ بِـ"، وَكَذَلِكَ جَاءَ عَلَى القِيَاسِ – أَيْضًا – فِي قَولِهِ: مَا أَعْمَقَهَـا فِي الثَّرَى

وَهُوَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ شِدَّةِ تعَلُّقِهِ بِبَيْرُوتَ، وَإِعْجَابِـه بِالأَيَّـامِ الخَـوَالِي، وَهَـذَا شَـيءٌ مَلْمُوسٌ فِي سُنَّةِ الشُّعَرَاءِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فَامْرُؤ القَيسِ – قَدِيمًا – قَالَ:

أَلاَ رُبَّ يَـومٍ لَـكَ مِـنْهُنَّ صِـالِحٍ وَلاَسِيَّمَا يَومٍ بِدَارَةِ جُلَجَلَ (٩٥)

وَقَالَ غَيرُهُ:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى مَـا الحُـبُّ إِلَّـا لِلْحَبِيـبِ الأَوَّل
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَعْشَقُهُ الفَتَى وَحَنِينُـهُ أَبَـدًا لِـأَوَّل مَنْـزِل (٩٦)

وَهُنَا يَلْقَانَا إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ بِهَذِهِ الأَحَاسِيسِ المُتَفَجِّرَةِ فِـي حَنِينِـهِ إِلَـى بَـيرُوتَ، الَّتِـي شَـهِدَتْ أَوَّلَ عَهْـدِهِ بِالحُـبِّ لِفَتَاتِـهِ النَّاصِـرِيَّةِ "مْ. صَ" فِـي الجَامِعَـةِ الأَمْرِيكِيَّـةِ بِبَيرُوتَ، وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي قَولِهِ: مَا أَعْمَقَهَا فِي الثَّرَى، فَقَدْ جَاءَ عَلَى وَزْنِ مَـا أَفْعَـلَ، وَهُنَا تَعَجُّبٌ تُشْتَمُّ مِنْهُ رَائِحَةَ القُنُوطِ، وَالِاسْتِسْلاَمِ لِقَضَاءِ اللَّهِ، فَهُـوَ يَحُـسُّ كَأَنَّـهُ لَـنْ يُعَمِّرَ طَوِيلاً فِي الحَيَاةِ، باسْتِشْعارِهِ الرَّقْدَةَ الأَبَدِيَّةَ فِي بَـاطِنِ الثَّـرَى، يَتَّضِـحُ هَـذَا مِـنْ قَولِهِ:

لِـــي رَقْـــدَةٌ طَـــوِيلَةٌ فِـــي غَـــدٍ لِلَّـــهِ مَـــا أَعْمَقَهَـــا فِـــي الثَّـــرَى

وَهُنَا يَكْبَحُ جِمَاحَ هَوَاهُ، وَيُصَرِّحُ بِأَنَّ أَفْرَاسَ شَـبَابِهِ قَـدْ اقْتَـرَبَ مَـدَاهَا، وَهَـذَا شَيءٌ قَلَّمَا نَجِدُهُ عِنْدَ الشُّعَرَاءِ الشَّبَابِ، إِلَّا إِذَا كَانُوا يَسْتَشْرِفُونَ قُرْبَ أَجَلِهِم، كَمَا هُـوَ الشَّأْنُ عِنْدَ طَرْفَةَ بْنِ العَبْدِ قَدِيمًا، حِينَمَا قَالَ:

فإِنْ كُنْـتَ لا تَسْـطِيعَ دَفْـعَ مَنِيَّتِـي فَدَعْنِي أُبَادِرهَـا بِمَـا مَلَكَـتْ يَـدِي(٩٧)

كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْبِقَ المَنِيَّةَ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ بِسَاحَتِهِ، وَأَبُو القَاسِمِ الشابِيِّ فِي تُونُسَ حَدِيثًا، وَبَدْرُ شَاكِرِ السَّيَّابِ فِي العِرَاقِ، وَهَاشِمُ الرِّفَاعِي فِي مِصْرَ، حِينَمَا قَالَ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ:

أَبَتَاهُ مَادَا يَخُطُّ بَنَانِي وَالحبلُ وَالجَلَّادُ يَنْتَظِرَانِي (٩٨)

فَالشَاعِرُ قَدْ أَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَكُلُّهُمْ قَضَوا شَبَابًا فِي الثلاثِينِيَّاتِ أَو دُونَهَا، وَقَدْ أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان بِأَنَّهُ لَنْ يُعَمِّرَ طَوِيلاً.

وَلَعَلَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ التَّعَجُّبية "غَيْرِ الْمُبَوَّبَةِ تَدْخُلُ فِي بَابِ التَّحْوِيلِ إِذَا صِيْغَتْ "فَعُلَ" بَدَلْ "أفعل" مِثْلْ: عَدُلَ خَالِد، وظَرُفَ سَعِيد، أَيْ: مَا أَظْرَفُهُ، وَدَلِكَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي "فَعُلَ" يَدُلُّ عَلَى الطَّبَائِعِ وَالسَّجَايَا كَـ "قَبُحَ، وحَسُنَ"، وَقَدْ يَتَحَوَّلْ الْفِعْلُ إِلَى هَذِهِ الصِّيغَةِ لِأَغْرَاضٍ مُتَعَدَّدَةٍ أَشَارَ إِلَيْهَا السَّامرَّائي"(٩٩).

القَصِيدَةُ السَّابِعَة عَشْرَة: عَاشَ كِلاَنَا بِالمُنَى

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

حُكْمٌ بِهِ الحُبُّ قَضَى مَا أَظْلَمَ القَاضِي
حَسْبُكَ أَنْ تَرْضَى بِهِ فَإِنَّنِي رَاضِي
دَعْكَ مِنَ المَاضِي فَلَو عُدْتَ إِلَى المَاضِي
وَجَدْتَ وَصْلَ سَاعَةٍ وَدَهْرَ إِعْرَاضِي
عَاشَ كِلاَنَا بِالمُنَى تُرْسِلُهَا شِعْرًا
تِلْكَ رُفَاتٌ بَلِيَتَ تَبْعَثُهَا الذِّكْرَى(١٠٠)

هَذِهِ القَصِيدَةُ نَظَمَهَا سنة ١٩٣٢م، وَقَدْ وَجَّهَا إِلَى الشَّاعِرِ عَبْدِ الكَرِيمِ الكَرْمِيِّ "أَبو سَلْمَى" صَدِيقِهِ، وَيَبْدُو مِنْ خِلاَلِ التَّمَعُّنِ فِي مُفْرَدَاتِ هَذِهِ القَصِيدَةِ، أَنَّ

أَبَا سَلْمَى قَدْ عَانَى مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان مِـنْ تَبـارِيحِ الهَـوَى دُونَ طَائِـلٍ، وَهَكَـذَا كُـلّ الشُّعَرَاءِ يَفْشَلُونَ فِي حُبِّهِمْ لِسـرٍّ لاَ يَعْلَمُـهُ إِلَّـا اللَّـهُ، مَـعَ أَنَّ النِّسَـاءَ بِطَـبْعِهِنَّ يهِمْـنَ بالشعَرَاءِ.

أَمَّا التَّعَجُّبِ فِي الأَبْيَاتِ السابِقَةِ فقد جَاءَ عَلَـى القِيَـاسِ فِـي قَولِـهِ: مَـا أَظْلَـمَ القَاضِي عَلَى صِيغَةِ "مَا أَفْعَلَ"، وَالشاعِرُ هُنَا لِرِقَّتِهِ وَرَهَافَةِ حِسِّهِ فِي هَذَا المَقَـامِ يُشْـعِرُنَا بِأَنَّ أَنْفَاسَهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ، أَيْ حَالَةِ إِصْدَارِ القاضي الحُكْمَ عَلَـى الحُـبِّ، هُـوَ إِصْـدَارٌ خَفِيفٌ رَهِيفٌ، وَكَأَنَّهُ قَالَهَا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، لأَنَّهُ يَعْنِي بِالحُبِّ صَاحِبَتَهُ فَتَـاة "كَفْـر كنَّـه" الَّتِي لَوَّعَتْهُ، فَهُوَ مَا زَالَ يَعيشُ عَلَـى أَمَـلِ الوِصَـالِ، وَلَعَـلّ فِـي البُعْـدِ تَأجِيجًـا لِنَـارِ الشَّوقِ، كَمَا يَقُولُ جَمِيلُ بُثَيْنَة:

يَمُوتُ الهَـوَى مِنِّـي إِذَا مَـا لَقَيتُهَـا ... وَيَحْيَـا إِذَا فَارَقْتُهَـا وَيَعُـودُ [١٠١]

فَهُوَ ظُلْمٌ مُحَبَّبٌ إِلَى النَّفْسِ فِي هَذَا المَقَامِ، أَمَّا التَّعَجُّـبُ الَّـذِي أَصْـدَرَهُ بِحَـقِّ المَنْدُوبِ السَّامِيُّ البِرِيطَانِيِّ حِـينَ أَصْـدَرَ حُكْمَـهُ بِإِعْـدَامِ الأَبْطَـالِ الثَّلَاثَـةِ الَّـذِينَ وَرَدَ ذِكْرُهُمْ سَابِقًا فِي قَصِيدَةِ: الثلاثَاءِ الحَمْرَاءِ، فَهُـوَ تَعَجُّـبٌ مَشْـحُونٌ بِـالغَيْظِ وَالسُّـخْطِ وَالرَّغْبَةِ فِي الانْتِقَامِ.

القَصِيدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: نِسْرُ المُلُوكِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

مَـنْ رَأَى "نَسْـرَ المُلُـوكِ" المُرْتَجَـى ... طَـارَ مِـنْ عُقْبَانِـهِ فِـي جَحْفَـلِ
وَسَـوَاءٌ فِـي الأَعَاصِـيرِ مَضَـوا ... أَمْ مَضَـوا فِـي نَفَحَـاتِ الشِّـمَأَلِ
كَجُنُـودِ اللَّـهِ طَـارَتْ خَيـلُهُمْ ... يَـومَ بَـدْرٍ فِـي سَـمَاءِ القَسْـطَلِ
يَـا لَعَيـنٍ سَـهِرَتْ عَـنْ فَيـصَلٍ ... تَـحْرُسُ المِلْـكَ لَـهُ مَـا تَأَتَّـلِي

رَأَتِ الغَـــدْرَ فَآذَاهَـــا، فَهَـــلْ تَحْمِـلُ الضَّيْـــمَ وَلَمَّـــا تَغْفَـــلِ

نَظَمَ الشّاعِرُ هَذِهِ القَصِيدَةَ فِي رِثَـاءِ المَلِـكِ فَيْصَـلِ الأَوَّلِ مَلِـكِ العِـرَاقِ، وَقَـدْ أُلْقِيَتْ فِي حَفْلَةِ الأَرْبَعِين الَّتِي أُقِيمَتْ فِي مَدِينَةِ نَابْلُس.

أَمَّا التَّعَجُّبِ هُنَا فَقَدْ وَرَدَ فِي صِيغَةِ يَا لَلْهَول !، يَا لِعَظَمَةِ ! وَذَلِـكَ فِـي قَولِـهِ:

يَا لَعَينٍ سَهِرَتْ عَنْ فَيصَلٍ، إِنَّهُ تَعَجُّبٌ بِأُسْلُوبِ نِدَاءٍ مُكَـوَّنٍ مِـنْ حَـرْفِ النِّـدَاءِ اليَـاءِ وَالجَارِ وَالمَجْرُورِ بَعْدَهُ، وَنَحْنُ نُحِسُّ فِيـهِ شِـدةَ تَـأَثُّرِ الشَّـاعِرِ بِهَـولِ المَوقِـفِ، وَعِظَـمِ الْمُصَابِ، لاَسِيَّمَا وَأَنَّ الشاعِرَ كَانَ مُعْجَبًا بَالهَاشِمِيِّينَ إِعْجَابًا كَبِيرًا لاَ يُحَدُّ، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ:

مَـنْ هَفَـا لِلْمَثَـلِ الأَعْلَـى يَجِـدْ فِـي بَنِـي هَاشِـم أَعْلَـى مَثَـلِ
أَيُّكُـمْ يَـا آلَ بَيْـتِ المُصْـطَفَى مَـا قَضَـى مُسْتَشْـهِدًا مُنْـذُ "عَلِـيّ
فَـتَحَ الخُلْـدُ لَكُـمْ هَيكَلَـهُ فَـإِذَا أَنْـتُمْ بُـدُورُ الهَيكَـلِ
ضَـمَّ جِبْرِيـلُ جَنَاحَيـهِ عَلَـى سُـؤْدُدٍ مَحْـضٍ وَنُبْـلٍ أَمْثَـلِ
وَأَطَـافَ المَـلأَ الأَعْلَـى بِمَـنْ عَزْمُـهُ فِـي الحَـقِّ عَـزْمُ الرُّسُـلِ
فَيصَـلٌ شَـيَّدَ مُلْكًـا لَـمْ يَـزَلْ بِحِمى اللَّـهِ وَغَـازِي يَعْتَلِـي [١٠٣]

فَالشَّاعِرُ مِنْ أَنْصَارِ الثَّورَةِ العَرَبِيةِ ضِدَّ الأَتْرَاكِ، وَمِنْ مُؤَيِّدِيهَا بِالقَول، إِنَّ تَعَجُّبَه بِالمَوقِفِ، وَشِدَّةِ تَأَلُّمِهِ يَشِير إِلى أَنَّ الفَرَاغَ الَّذِي أَحْدَثَهُ غِيَابُ الفَقِيدِ لَـنْ يَمْـلأَهُ أَحَـدٌ، وَلَكِنَّ الأَمَلَ يَبْقَى فِي ابْنِهِ غَازِي الأَوَّلِ، وَكَذَلِكَ التَّعَجُّبِ فِي قَولِهِ:

مَـنْ رَأَى "نَسْـرَ المُلُـوكِ" المُرْتَجَـى طَـارَ مِـنْ عُقْبَانِـهِ فِـي جَحْفَـلِ

إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِي يُصَبُّ فِيهِ كُلُّ أَحَاسِيس الانْبِهَارِ بِهَذَا النِّسْرِ العَرَبِيِّ، الَّـذِي تَحَرَّكَ بِفُرْسَانِهِ ضِدَّ المُحْتَلِّينَ، وَأَهْلِ الفِتَنِ.

الاسْتِفْهَامُ التَعَجُّبِي الْمَسْبُوقُ بِأَدَاةِ النِّـدَاءِ "يـا" بَـارِزٌ فِـي الـنَّصْ الشِّـعْرِي، وَهَـذَا تَعَجُّبٌ غَيْرُ مُبَوَّبٌ كَمَا يَقُولُ النُّحَاةُ، وَهُوَ كَثِيرٌ قَدْ يَشْـمَلُ أَبْوَابَـاً كَثِيـرَةً مِـنْ أَسَـالِيبِ الْعَرِبِ، أَمَّا التَّعَجُّبُ الْمُبَوَّبُ فَهُوَ مُحْكُومٌ بِصِيْغَتَيْنِ وَهُمَا "مَا أَفْعَل، وَأَفْعِلْ بِـهِ"[١٠٤].

وَالتَّعَجُّبُ بِالنِّدَاءِ يَكُونُ بِإِدْخَال لَامِ جَرٍّ مَفْتُوحَةٍ عَلَى الْمُتَعَجَّـبِ مِنْـهُ مَسْـبُوقَةٍ بِحَرْفِ النِّدَاءِ "يَا" نَحْو: "يَا لَلْمَاءِ"،وَ "يَا لَلْهَوْل"، وَقَدْ تُحْذَفُ اللاَّمُ فَيُؤْتَى بِأَلْفٍ فِي آخِرِ الْمُتَعَجَب مِنْهُ فَيُقَالُ: يَا عَجَبَاً[١٠٥]، "وَقَالُوا: يَا لَلْعَجَبِ، ويا لَلْماءِ، لَمَّـا رَأَوْا عَجَبَـاً أَو رأَوا مَاءً كثيراً، وَكَأَنَّهُم قَـالُوا: تَعَـالَ يَـا عَجَـبُ، أَوْ تَعَـالَ يَـا مَـاءُ، فَإِنَّـهُ مِـنْ أَيَّامِـكَ وزَمَانِك"[١٠٦].

القَصِيدَةُ التَاسِعَةَ عَشْرَةَ: مَصْرَعُ بُلْبُل

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

ذَاكَ لَيْـلٌ قَضَـى عَلَـى البُـلْبُلِ المَنْكُـودِ لَـولاَ يَـدٌ تَصَـدَّتْ عَلَيْـهْ
مَمْلَكَـةٌ عَرشُـهَا المَشَـارِقُ وَالتَّـاجُ سَـنَاهَا، أَعْظِـمْ بِهَـا شَرْقِيَّـهْ
أَنْقَذْتُـهُ فَهَـبَّ يَشْـدُو شَكُـورًا مَرِحًـا، هَاتِفًـا لَهَـا بِالتَّحِيَّـهْ:
كُـلُّ قلـبٍ لَـهُ هَـوَاهُ.. وَلَكِـنْ لَـيسَ يَـدْرِي مَتَـى يَجِـيءُ زَمَانُـهْ
وَهُوَ إِمَّا فِي ظِـلِّ جَفْـنٍ كَحِيـلٍ كَـامِنِ السِّـحْرِ، رَاقِـدٍ أُغْوَانَـهُ [١٠٧]

هَذِهِ القَصِيدَةُ نَظَمَهَا الشَّاعِرُ سنة ١٩٣٢م، وَاسْـتَوحَاهَا مِـنْ إِحْـدَى رَقَصَـاتِ الرَّاقِصَةِ الأَسْبَانِيَّةِ "مَرْغَرِيتا" مُتَأَثِّرًا بِقَصِيدَةِ: "البُلْبُلُ وَالوَرْدَةُ" لأُوسْكَارِ وَايلدْ.

أَمَّا التَّعَجُّبِ هُنَا فَقَدْ جَاءَ فِي قَولِهِ: أَعْظِمْ بِهَا شَـرْقِيَّةً !! حَيـثُ جـاء التَّعَجُّـبُ عَلَى القِيَاسِ، وَذَلِكَ عَلَى وَزْنِ "أَفْعِلْ بِـ"، وَالتَّعَجُّبُ هُنَا لا يُفْهَمُ إِلَّا إِذَا فُهِمَ الرَّمْزُ فِـي هَذِهِ القَصِيدَةِ، حَيثُ إِنَّ البُلْبُلَ رَمْزٌ لِلْشَّابِّ المَخْدُوعِ، الَّذِي بَهَرَتْهُ حَيَاةُ المُدُنِ وَزُخْرُفُهَا

وَانْحِلَالُهَا، وَأَمَّا الوَرْدَةُ فَهِي رَمْزٌ لِبَائِعَةِ اللَّهْوِ وَالهَوَى وَالعَبَثِ، وَأَمَّا الرَّوضُ فَهُوَ رَمْزٌ لِلحَانَةِ أَو المَلْهَى، وَهِيَ أُمُورٌ عَاشَهَا الشَّاعِرُ فِي بَيْرُوتَ، حَيثُ إِنَّهُ حَضَرَ الرَّقْصَ الأَسْبَانِيَّ، وَانْغَمَسَ فِي حَيَاةِ المَدِينَةِ، وَأَحَبَّ فَتَاة "كَفْر كَنّة" لكنْ فَازَ بِهَا سِوَاه، فَهُوَ هُنَا يَنْدُبُ حَظَّهُ، وَإِنْ يَعْجَبْ فَعَجَبٌ مَنْ الحَيَاةِ الشَّرْقِيَّةِ ذَاتِ القِيِّمِ الرَّفِيعَةِ، وَهِيَ الَّتِي مَدَّتْ لَهُ يَدَيْهَا، لِتُنْقِذَهُ مِنْ وَهْدَةِ الضَّيَاعِ كَمَا اتَّضَحَ هَذَا مِنْ النَّصِّ السَّابِقِ، وَأَمَّا قَولُهُ: أَعْظِمْ بِهَا شَرْقِيهْ فإِنَّهُ التَّعَجُّبُ الَّذِي يَنْبَعِثُ مِنْ قِيَمِهِ وَأَخْلَاقِهِ الشَّرْقِيَّةِ، وَأَنْعِمْ بِهَا مِنْ قِيَمْ.

القَصِيدَةُ العِشْرُونَ: زِيَادَةُ الطِّينِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

مَنْ كَانَ يُنْكِرُ نُوحًا أَو سَفِينَتَهُ ... فَإِنَّ نُوحًا بِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ عَادَا !!
حَلَّ الوَبَالُ "بَعِيبَالَ" فَمَالَ بِهِ ... يَا هَيبَةَ اللَّهِ إِبْرَاقًا وَإِرْعَادَا !!
فِي جَارِفٍ كَعَجِيجِ البَحْرِ طَاغِيَةٍ ... أَمْوَاجُهُ تَحْمِلُ الأَسْوَاقَ امِدَادَا
وَلاَ تَزَالُ مِنْ الزِّلْزَالِ بَاقِيَةً ... تَذْكَارُهَا يُوقِدُ الأَكْبَادَ إِيقَادَا[١٠٨]

نَظَمَ الشَّاعِر هَذِهِ القَصِيدَةَ بِمُنَاسَبَةِ الطُّوفَانِ الَّذِي طَغَى عَلَى مَدِينَةِ نَابْلُس وَضَوَاحِيهَا سَنَةَ ١٩٣٥م، أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ وَرَدَ هُنَا عَلَى السمَاعِ، فَمَثَلاً فِي البَيتَينِ الأَوَّلَيْنِ دَلاَلَةٌ عَلَى هَول المَوقِفِ الَذِي أَثَارَ دَهْشَةَ الشَّاعِرِ وَإِعْجَابَه مِنْ الطُّوفَانِ الَّذِي حَلَّ بِمَدِينَةِ نَابْلُس، وَكَأَنَّهُ طُوفَانُ نُوحٍ عَلَيهِ السَّلاَمُ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ مُرْتَبِطٌ بِالحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي سَيطَرَتْ عَلَى الشَّاعِرِ سَيطَرَةً كَامِلَةً، بِاعْتِبَارِهِ أَحَدَ المَنْكُوبِينَ، فَنَابلس مَدِينَتُهُ.

وَأَمَّا قَولُهُ: يَاهَيبَةَ اللَّهِ إِبْرَاقًا وَإِرْعَادَاً ! فَهُوَ تَعَجُّبٌ اعْتَمَدَ فِيهِ الشَّاعِرُ عَلَى النِّدَاءِ الَّذِي يلجأ فيه إلى الِاسْتِغَاثَةِ يًا لِلَّهِ، حَيثُ فِيهَا دَلاَلَةٌ عَلَى عِظَمِ المُصَابِ، وَهِيَ

عِبَارَةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِحَالَةِ الفَزَعِ الَّذِي اسْتَبَدَّ بِالشَّاعِرِ جَرَّاءَ المُصَابِ المُدَمِرِ، وَأَحْيَانًا تَرِدُ هَذِهِ العِبَارَةُ التَّعَجُّبِيَّةُ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى الإِعْجَابِ بِشَيءٍ قَدْ يَكُونُ جَمِيلاً، وَقَدْ يَكُونُ قَبِيحًا لِلسِّخْرِيَةِ وَالتَّهَكُّمِ، فَالأَمْرُ يَتَوَقَّفُ عَلَى المَشْهَدِ المُثِيرِ أَوَّلاً وَأَخِيرًا.

القَصِيدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُونَ: رَثَاءُ الشَّيْخِ سَعِيدٍ الكَرْمِيِّ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَان:

أَيُّهَا المَوتُ، أَيُّ مَجْلِسِ أُنْسٍ ... وَوَقَارٍ عَطَّلْتَ بَعْدَ سَعِيدِ
مَا أَشَدَّ افْتِقَارَنَا لِسُمُوِّ الخُلُقِ ... فِي هَذِهِ اللَّيَالِي السُّودِ
مَا لَكُمْ بَعْضُكُمْ يُمَزِّقُ بَعْضَا ... أَفَرَغْتُمْ مِنْ العَدُوِّ اللَّدُودِ؟ (١٠٩)

نَظَمَ الشَّاعِرِ هَذِهِ القَصِيدَةَ فِي المَرْحُومِ الشيخِ سَعِيدٍ الكَرْمِيِّ قَاضِي قُضَاةِ إِمَارَةِ شَرْقِ الأُرْدُن، وَمَنْ زُعَمَاءِ فِلَسْطِينَ، وَمَنْ أُدَبَائِهَا المَعْرُوْفِينَ نَظَمَهَا سنة ١٩٣٥م.

الشَّاعِرِ مُنْبَهِرٌ وَمَشْدُودٌ بِمَوتِ ذَلِكَ العَلَمِ الكَبِيرِ، فَهُوَ يُخَاطِبُ المَوتَ مُسْتَغْرِبًا؛ ثُمَّ يَتَسَاءَلُ تَسَاؤُلاً عَجِيبًا تَعْجُّبِيًّا: أَيُّ مَجْلِسِ أُنْسٍ؟ فَالأَمْرُ لَدَيهِ فَاقَ حُدُودَ التَعَقُّلِ، فالتَّعَجُّبُ هُنَا يَأخُذُ بُعْدًا إِنْسَانِيًا تَرَاجِيَّدْيًا، وَلَعَلَّ ذَلِكَ جَاءَهُ مِنْ ثَافِذَةِ ثَقَافَتِهِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ.

ثُمَّ يَأتِي بِتَعَجُّبٍ قِيَاسِيٍّ وَذَلِكَ فِي قَولِهِ: مَا أَشَدَّ افْتِقَارَنَا ! عَلَى وَزْنِ " مَا أَفْعَلَ " وَهُوَ تَعَجُّبٌ بِالفِعْلِ الخُمَاسِي " افْتَقَرَ " فَجَاءَ بِفِعْلٍ مُسَاعِدٍ ثُلاَثِيٍّ هُوَ أَشَدُّ المَأخُودُ مِنْ الفِعْلِ شَدَدَ، وَأَتَى بِالمَصْدَرِ مِنْ الفِعْلِ الخُمَاسِي " افْتِقَارَنَا "، إِنَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ سُوءِ الحَالِ بَعْدَ الشَّيْخِ الكَرْمِيِّ، وَالفَرَاغِ الفِكْرِيّ الَّذِيْ تَرَكَهُ فِي البِلاَدِ.

ثُمَّ يُعَزِّزُ ذَلِكَ بِتَعَجُّبٍ آخَرَ وَرَد فِي صِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ تَعَجُّبِي يَمَسُّ التَّشَرْدُمَ الفِلَسْطِينِيَّ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَانْقِسَامَ زَعَامَاتِ الأُمةِ الزَّائِفَ - وَكَأَنَّي بِه يَسْتَشْرِفُ الغَدَ، أَيْ: مَا آلَتْ إِلَيهِ الأُمُورُ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ – الَتِي ضَيَّعَتْ البِلاَدَ وَالعِبَادَ، يَتَضِحُ هَذَا مِنْ قَولِهِ: " مَا لَكُمْ بَعْضُكُمْ يُمَزِّقُ بَعْضًا " إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِي يَأخُذُ بُعْدًا نَفْسِيًّا مَشْحُونًا بالحَسْرَةِ وَالأَسَى، وَهُوَ هُنَا كَمَا أَشَرْنَا آنفاً يَسْتَشْرِفُ المُصَابَ الوَطَنِيَّ قَبْلَ وُقُوعِهِ، وَطَالَمَا حَذّر مِنْ ذَلِكَ فِي قَصَائِدِهِ الوَطَنِيَّةِ الحَمَاسِيَّةِ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى، لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ غَالِبٌ فِي هَذِهِ القَضِيَّةِ، وَكَانَ أَنْ " سَبَقَ السَّيفُ العَذْلَ "[١١٠] كَمَا تَقُولُ العَرَبُ، وَاحَسْرَتَاهْ !

لَقَدْ أَوْرَدَ الشَّاعِرُ أُسْلُوباً تَعَجُّبِيًّا دَا لَوْنٍ مُخْتَلِفٍ، وَهُوَ التَّعَجُّبُ بِأَي الكَمَالِيَّة "أيُّ مَجْلِسٍ أنس، وَذَلِكَ نَحْوَ: "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَيِّ رَجُل"، فَأتَى بِـــ "أَي" لِلدَّلَالَةِ عَلَى وَصَفِ الشَّيْءِ بِالْكَمَالِ فِي مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حَالِهِ، وَأيُّ الْكَمَالِيَّةِ لَا تُضَافُ إِلا إِلى نَكِرةٍ، وَتَقَعُ وَصْفاً لِنَكِرَة، وَحَالاً مِن مِعْرِفَة [١١١].

نَتَائِجَ البَحْثِ:

جَدْوَلٌ تَوضِيحِيٌّ إِحْصَائِيٌّ يُوَضِّحُ صِيَغَ التَّعَجُّبِ القِيَاسِيَّةِ وَالسَّمَاعِيَّةِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا القَصَائِدُ الَّتِي عَالَجْنَاهَا فِي هَذَا البَحْثِ:

القِيَاسُ		السَّمَاعُ	
مَا أَفْعَلَ	أَفْعِلْ بِهِ	المَشْهُورُ	غَيرُ المَشْهُور، وَلَكِنَّهُ وَرَدَ فِي كَلَامِ العَرَبِ وَالقُرْآن
١٦ سَتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً	٣ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ	للهِ دُرُّهُ ! يَا لَلْهَوْل يَا لَعَيْنٍ سَهرَتْ ! كَيفَ هَذَا؟ ١٧ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً	١٩ تِسْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً

- إِنَّ نِظْرَةً مُتَأَنِّيَةً فِي الجَدْوَلِ السَّابِقِ تُرِينَا أَنَّ الشَّاعِرَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان اسْتَطَاعَ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ ظَاهِرَةِ التَّعَجُّبِ فِي كَافَةِ المَوَاضِيعِ الَتِي طَرَقَهَا فِي قَصَائِدِهِ.
- لاَحَظْنَا مِنْ خِلاَلِ اسْتِعْرَاضِنَا لِدِيوَانِ إِبْرَاهِيم طُوقَان أَنَّ ظَاهِرَةَ التَّعَجُّبِ النحوية عِنْدَهُ دَارَتْ فِي أَكثر من دَائِرَة: الدَّائِرَةُ الأُولَى: هِيَ دَائِرَةٌ تَعْتَمِدُ عَلَى القِيَاسِ الصَّرْفِيِّ المَعْرُوفَةِ وَهِيَ: مَا أَفْعَلَ، وأَفْعِلْ بِهِ.
- وَالدائِرَةُ الثَّانِيَةُ: تَعْتَمِدُ عَلَى السَّمَاعِ مِنْ قَولِ العَرَبِ، وَأَشْهَرُهَا: لِلّهِ دَرُّهُ، وَيَا النِّدَائِيَّة وَمَا بَعْدَهَا مِنْ جَارٍ وَمَجْرُورٍ مِثْلُ قَولِهِ فِي قَصِيدَةِ "نَسْرُ المُلُوكِ": يَا لَعَينٍ سَهرَتْ، وَمَثَلُ قَولِهِ فِي قَصِيدَةٍ "ذِكْرَى دِمَشْقَ" يَا لَهَولِ الوَغَى، وَهَذَا مِنْ الشَّوَاهِدِ المَعْرُوفَةِ لَدَى النَّحَاةِ.
- والدائرة الثالثة وهي الأكثر؛ حيث إِنَّ هُنَاكَ أَسَالِيبَ تَعَجُّبِيَّةً كَثِيرَةً تَضَمَّنَتْهَا قَصَائِدُهُ، وَقَدْ يَكُونُ انْفَرَدَ بِهَا دُونَ سِوَاهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَقَدْ بَنَاهَا عَلَى أَسَاسِ الِاسْتِفْهَامِ، مثلاً: كَيفَ كَمَا فِي قَصِيدَتِهِ: يُا سَرَاةَ البِلاَدِ "كَيفَ يُلْقي مِنْ هَادِمِيهِ بُنَاةً، وَقَصَيدَةُ

"وَحْيُ الرِّسَالَةِ": فَكَيفَ أَنْسَاكِ وَأَنْسَاهَا؟ وَكَذَلِكَ حَرْفُ الهَمْزَةِ فِي نَفْسِ القَصِيدَةِ: أَفَزَعْتُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، وَفِي قَصِيدَةِ "البَلَدُ الكَئِيبُ" أَتَضيعُ يَا وَطَنِي، وَأَينَ كَمَا جَاءَ فِي قَصِيدَةِ: "تَحِيَّةَ الرَّيحَانِيِّ" أَينَ بَاتَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ الأَبِيَّةُ؟، وَغَير ذلك مِمَّا أَشَرْنَا إِلَيهِ فِي حِينِهِ، والنداء، وأساليب خبرية يستشف منها التعجب، وورد مثلُ ذلك في القرآن الكريم مما أشرنا إليه، ومما وقف عنده بعض علماء النحو قديما وحديثا.

- هُنَاكَ صِيَغٌ وَأَسَالِيبُ تَعَجُّبِيَّةٌ اسْتَشْفَفْنَاهَا مِنْ الأَسَالِيبِ الخَبَرِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي ثنايا بَعْضِ قَصَائِدِهِ، وَكَانَ المُعَوَّلُ الأَكْبَرُ عَلَيهَا فِي إِدَارَةِ شُئُونِ هَذَا البَحْثِ المَوسُومِ بِالتَّعَجُّبِ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمِ طُوقَان.
- إِنَّ مَسْأَلَةَ التَّعَجُّبِ هِيَ مَسْأَلَةٌ نِسْبِيَّةٌ تَعْتَمِدُ فِي أَسَاسِهَا عَلَى قُوَّةِ إِحْسَاسِ السَّامِعِ، وَاللَّمْحَةِ الذَّكِيةِ مِنَ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ، وَهَذَا جَانِبٌ لَمَسْنَاهُ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَان، حَيثُ إِنَّهُ جَاءَ عَلَى غَيرِ المَألُوفِ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّمْحةِ السَّرِيعَةِ، وَالنُّكْتَةِ العَابِرَةِ، يُصَرِّحُ بِهَا أَحْيَانًا، وَيَسْتَتِرُ أَحْيَانًا أُخَرَ.
- إِنَّ أَسَالِيبَ التَّعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طَوقَان فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ تَنْحُو مَنْحىً مُغَايِرًا لِمَا أَلِفَهُ أَهْلُ النَحْوِ وَالصَّرْفِ، وَهُوَ مَنْحَى الشُّعَرَاءِ الرُّومُانْسِيِّينَ الَّذِينَ تَهُزُّهُمْ لَفْتَةُ طَرْفٍ، أَو بُغَامُ ظَبْيٍ، أَو مَيسَةُ غَانِيَةٍ، أَو لَمْحَةُ بُطُولَةٍ.

إِنَّ قَضِيَّةَ الحُبِّ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طَوقَان يَلْتَقِي فِيهَا مَعَ شَقِيقَتِه فَدْوَى، فَكِلاهُمَا يَبْحَثُ عَنْ الحُبِّ الضَّائِعِ، وَلَكِنَّ حُبَّهُما كَانَ الوَطَنَ أَوَّلاً وَآخِرًا، وَمِنْ هُنَا وَجَدْنَا فِي بَحْثٍ لَنَا سَابِق مَوْسُومٍ بـ "ظَاهِرَةِ الاشْتِقَاق فِي شِعْرِ فَدْوَى طَوقَان" دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ عِنْدَهَا أَسَالِيبُ نَحْوِيَّةٌ كَثِيرَةٌ تَصْلُحُ لِلدِّرَاسَةِ؛ وَلأَنَّهَا عَمَّرَتْ طَوَيْلاً، أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَقد مَزَجَ بَينَ الوَطَنِ وَالحُبِّ الحَقِيقِيِّ، وَلَكِنَّ حُبَّهُ الحَقِيقِي كَادَ أَنْ يَطْغَى عَلَى حُبِّهِ لِوَطَنِهِ، حَتَّى أَودَى دَلِكَ الحُبُّ الضَّائِعِ بِحَيَاتِهِ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ.

الهوامش والتعليقات:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٧

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٤٥.

(٣) لسان العرب (عجب) ١/ ٥٨١.

(٤) تهذيب اللغة ١/ ٢٤٧.

(٥) سورة البقرة آية ٢٨.

(٦) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، ١/ ٧٣.

(٧) سورة الصافات آية ١٢.

(٨) سورة الكهف آية ٦٣.

(٩) سورة آل عمران آية ٣٧.

(١٠) الأعمال الشعرية الكاملة، إبراهيم طوقان، ص ٤٩ -٥٠.

(١١) الصافات آية ١٢.

(١٢) التيسير في القراءات السبع ص ١٥١

(١٣) اتحاف فضلاء البشر جـ ٢ص ٤٠٨ – ص ٤٠٩

(١٤) البقرة آية ١٥.

(١٥) معاني القرآن للفراء، جـ٢ ص٣٨٤.

(١٦) الجامع لأحكام القرآن، جـ١٥ ص٧٤.

(١٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٥٧.

(١٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص١٠٩.

(١٩) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ج٣،ص٢٤.

(٢٠) البقرة أُية ٢٨.

(٢١) ديوان رؤبة بن العجاج ص١٦٨.

(٢٢) معاني النحو ج٤،ص٢٣٩.

(٢٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٨١-٨٢.

(٢٤) ديوان امرئ القيس، ص٤٣.

(٢٥) حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل ج٢،ص٨٩.

(٢٦) البقرة أية ١٧٥.

(٢٧) الدر المصون ج١،ص٤٤٥.

(٢٨) الجامع لأحكام القرآن ج٢،ص٢٤٠-٢٤١.

(٢٩) سري: أي رجل كبير الشأن وكأنه يقول: إن فلسطين خلت من الحكماء في زمانه، أي: كلهم تجار وسماسرة للوكالة اليهودية.

(٣٠) لباب الآداب ص١١٢.

(٣١) سورة هود آية ٨٧.

(٣٢) أمالي ابن الشجري ج٢، ص٥٥٣.

(٣٣) عبس آية ١٧.

(٣٤) تفسير البحر المحيط ج٨، ص٤٢٠.

(٣٥) معاني القرآن وإعرابه ج٥، ص٢٨٥.

(٣٦)أمالي ابن الشجري ج٢، ص٥٥٣

(٣٧) الأعمال الشعرية الكاملة ص٥٧.

(٣٨) البقرة آية ١٨.

(٣٩) الاعمال الشعرية الكاملة ص٩٠.

(٤٠) ديوان مجنون ليلى ص١٣٠.

(٤١) شرح الرضي على الكافية ج٤ ص٢٣٠، وانظر شرح الاشموني على ألفية ابن مالك ج٢ ص٢١.

* سراة البلاد هم حكماء الناس الذين افتقدهم الوطن في زمانه.

(٤٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٥٨.

(٤٣) البيان والتبيين ج١، ص٩٧.

(٤٤) البصائر والذخائر ج١، ص٧.

(٤٥) آل عمران آية ١٠٦

(٤٦)البقرة أية ٢٨.

(٤٧) الفوائد الضيائية ج٢ ص٢٠٦، وانظر حاشية الصبان ج٣ ص٢٣.

(٤٨) حاشية الصبان ج٣ ص٢٣.

(٤٩) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج٢ ص٢٠.

(٥٠) ديوان الأعشى ص٧٥.

(٥١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٦٩-٧٠.

(٥٢) الكتاب ج٢ ص٩٥، وانظر مغني اللبيب ص١٤٥.

(٥٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٧٢-٧٣.

(٥٤) كيف هنا بمعنى تشبه، وكأنَّه يقول حالي كيف حَالُك، أي: مثلُكَ تماماً، أي: بمعنى الحال من بعضه، كما تقول العامَّة.

(٥٥) المدخل إلى دراسة النحو العربي في ضوء اللغات السامية ص٦١-٦٢.

(٥٦) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٩٠-٩١.

(٥٧) انظر اللغة العربية مبناها ومعناها، ص٣٤٢_ ٣٧١.

(٥٨) شرح الأشموني ج٢، ص٢٧.

(٥٩) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٠٣.

(٦٠) سورة الفرقان آية ٧.

(٦١) سورة النساء آية ٤١.

(٦٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٠٨- ١٠٩.

(٦٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٠٨.

(٦٤) الإنفطار آية ١٧.

(٦٥) الفوائد الضيائية ج٢، ص٣١٠.

(٦٦) هود آية ٧٢.

(٦٧) معاني النحو ج٤ ص٢٥٣.

(٦٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١١١.

(٦٩) سورة الملك آية ١.

(٧٠) سورة المؤمنون آية ١٤.

(٧١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص٩٥.

(٧٢) سورة الرحمن آية ٣٦-٣٧.

(٧٣) الجآذر: هو ابن البقرة الوحشية المشهورة بجمال عينيها.

(٧٤) اللباب في الجمع بين السنة والكتاب ص ٦٣٥.

(٧٥) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١١٩-١٢٠.

(٧٦) ص آية ٥.

(٧٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٣٦- ١٣٧.

(٧٨) مثل عمرو بن أبي ربيعة، ونزار قباني، وتشيلي وجون دون وسواهم.

(٧٩) بغام ظبي هو صوت ابن الغزال.

(٨٠) ميسة غانية: المشي بانكسار وتمايل مثل عارضات الأزياء.

(٨١) العربية والوظائف النحوية ص٢٧٨.

(٨٢) انظر معاني النحو ج٤ ص٢٤٨-٢٥٣.

(٨٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٣٨-١٣٩.

(٨٤) الأعمال الشعرية الكاملة ص١٣٩.

(٨٥) حياة الحيوان الكبرى ج١، ص١٨٥.

(٨٦) العربية والوظائف النحوية ص٢١٥.

(٨٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٤٠-١٤١.

(٨٨) سورة الحج آية ٢.

(٨٩) انظر معاني النحو ج٤، ص٢٣٩.

(٩٠) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٥٨.

(٩١) البقرة آية ٢٨.

(٩٢) صحيح مسلم، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس حديث رقم٣٧١ ج١ / ص ٢٨٢

(٩٣) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ج٢، ص٨٩، وانظر معان النحو ج٤،ص٢٤٥-٢٤٥.

(٩٤) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٦٥ -١٦٦.

(٩٥) ديوان امرئ القيس، ص٢٨.

(٩٦) غاية الأماني في الرد على النبهاني جـ١ ص ٥٦٢.

(٩٧) ديوان طرفة بن العبد، ص٣٢.

(٩٨) ديوان الأعمال الكاملة لـ هاشم الرفاعي ص١٧٣.

(٩٩) معاني النحو ج٤ ص٢٤٥.

(١٠٠) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٧٢-١٧٣.

(١٠١) ديوان جميل بثينة، ص١٧.

(١٠٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٩٠.

(١٠٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٩٠ – ١٩١.

(١٠٤) معاني النحو ج٤، ص٢٣٨.

(١٠٥) شرح ابن يعيش ج١، ص١٣١.

(١٠٦) الكتاب ج ٣، ص ١٢٨.

(١٠٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢٠٤ – ٢٠٦.

(١٠٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢١٤.

(١٠٩) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢٢٥ – ٢٢٦.

(١١٠) مجمع الأمثال ٢ / ٩٧ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج٢ ص١٢٤.

(١١١) معاني النحو ج٤، ص٢٥١.

ثبت المصادر والمراجع:

١- اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا،تحقيق و تقديم د.شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٢- الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم طوقان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.

٣- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي ت١٠٣٣هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١،١٤٠٦هـ.

٤- أمالي ابن الشجري: هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي ت ٥٤٢هـ، تحقيق ودراسة محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢م.

٥- البصائر والذخائر: أبو حيان علي بن محمد العباسي التوحيدي ت٤١٤هـ تحقيق داود القاضي، دار صادق، بيروت ط١٤١٩،٤هـ.

٦- البيان والتبيين: الجاحظ ت٢٥٥هـ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، بدون ت.

٧- تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بـــ" أبي حيان الأندلسي ت ٧٤٥هـ، دراسة وتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٨- تهذيب اللغة، أبو منصور بن محمد بن أحمد الأزهري ت ٣٧٠هـ، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٩- التيسير في القراءات السبع:أبو عمرو عثمان بن سعد الداني(ت٤٤٤هـ)،عنى بتصحيحه أوتويرتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٠- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مراجعة وضبط وتعليق د. محمد ابراهيم الحفناوي، وتخريج د. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

١١- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: شرح وتعليق تركي فرحان المصطفى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

١٢- حاشية الصبان على شرح الأشموني: الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي ت ١٢٠٦هـ، ضبط وتصحيح وتخريج إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٧،١م.

١٣- حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين محمد بن موسى الدميري ت ٨٠٨ هـ، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.

١٤- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: شهاب الدين أبو العباس بن يوسف المعروف بـــ" السمين الحلبي"، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

١٥- ديوان الأعشى: ميمون بن قيس، دار صادر، بيروت، بدون ت.

١٦- ديوان امرئ القيس: تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٧- ديوان جميل بثينة، تقديم بطرس البستاني، دار بيروت، بدون ت.

١٨- ديوان طرفة بن العبد: تقديم بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، بدون ت.

١٩- ديوان عمر بن أبي ربيعة: تقديم أحمد أكرم الطّبّاع، دار القلم، بيروت، بدون ت.

٢٠- ديوان قيس بن الملوح: ترجمة وتحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م.

٢١- ديوان هاشم الرفاعي: المجموعة الكاملة، جمع وتحقيق محمد حسن بريغش، مكتبة المنار، الأردن، ط١٩٨٥،٢م.

٢٢- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، بدون ت.

٢٣- شرح الرضي علي الكافية: رضي الدين الأستر أبادي، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بدون ت.

٢٤- شرح المفصل: موفق الدين ابن يعيش، طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون ت.

٢٥- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله_صلى الله عليه وسلم_: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي _بيروت، بدون ت.

٢٦- العربية والوظائف النحوية: د. ممدوح الرَّمالي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٧- غاية الأماني في الرد على النبهاني: أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي(ت١٣٤٢هـ)، تحقيق أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.

٢٨- الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب: نور الدين عبد الرحمن الجامي ت ٨٩٨هـ، دراسة وتحقيق د. أسامة طه الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٨٣م.

٢٩- الكتاب: أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر المعروف بـــــــ " سيبويه"، تحقيق أ. د محمد كاظم البكّاء، دار البشير، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.

٣٠- لباب الآداب: أبو منصور الثعالبي النيسابوري، تحقيق أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٩٩٧.

٣١- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ت ٧١١ هـ، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٣٢- اللباب في الجمع بين السنة والكتاب: جمال الدين علي بن زكريا بن مسعود الأنصاري الخزرجي المنبجي (ت٦٨٦هـ)، تحقيق د محمد فضل عبد العزيز المراد، دار القلم، سوريا،

ط٢، ١٩٩٤م.

٣٣- اللغة العربية مبناها ومعناها: د. تمام حسَّان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩م.

٣٤- مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجبل، بيروت بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

٣٥- مجموع أشعار العرب، ديوان رؤبة بن العجاج: اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد البروسي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٣٦- مدخل إلى دراسة النحو العربي في ضوء اللغات السامية: د. عبد المجيد عابدين، مطبعة الشبكشي، القاهرة، ط١، ١٩٥١م.

٣٧- معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السِّري الشهير بـــ"الزجاج"، شرح وتحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٣٨- معاني القرآن: أبو زكريا يحيي بن زياد الفراء ت ٢٠٧ هـ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

٣٩- معاني النحو: د. صالح السامرائي، دار الفكر، الأردن، ط٢، ٢٠٠٣م.

٤٠- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١هـ، تحقيق وتعليق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت ط٥، ١٩٧٩.

فضاء المئذنة
في روايتي الزيني بركات وكتاب التجليات لجمال الغيطاني

د. وذناني بو داود

أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات - جامعة عمار ثليجي - الأغواط - الجزائر

ورد البحث في ٥/ ٩/ ١٤٣٥هـ وقُبل للنشر في ١٤/ ١١/ ١٤٣٥هـ

فضاء المئذنة في روايتي الزيني بركات وكتاب التجليات لجمال الغيطاني

د. وذناني بو داود

ملخص البحث

تحتل "المئذنة" في الوجدان الروحي الإسلامي مكانة خاصة فهي من الناحية الدينية تعبير عن إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. ومن الناحية الهندسية تعتبر مثال للجمال المعماري الإسلامي. فمنذ نشأتها الأولى في العهد الأموي وإلى اليوم، عرفت تطورا كبيرا. في فن هندستها ومعماريتها مع تطور العصور وأذواق الشعوب التي دخلت الإسلام. وكذا اختلاف الفرق الدينية التي عرفها الإسلام فقد رسمت بصمات الكل على هيكلها المعماري. كما تعددت أسماؤها فهي المنارة، والصومعة، والمئذنة، أسماء تضرب في عمق الثقافة الإسلامية. فلا غرو عندئذ أن أصبح هذا الرمز الديني يشكل حصنا له أبعاده الروحية والثقافية والاجتماعية، تمتزج فيه الحقيقة بالخيال. فقد اتخذت "المئذنة" أشكالا عدة ألهمت الفنانين والمبدعين، والذين تفاوتت أعمالهم نوعا وكيفا. فهناك أعمال إبداعية استأثرت فيها المئذنة بخيال الروائيين. كرواية (الصعود إلى المئذنة) لأحمد حرب. ورواية (الإعصار والمئذنة) لخليل عماد الدين. ورواية الكاتبة السودانية ليلى أبو العلا الموسومة بـ(مئذنة ريجنت بارك regent's park) وهي باللغة الانجليزية ترجمت إلى اللغة العربية.

ولعل جمال الغيطاني يعد من أبرز الروائيين العرب الذين احتلت المئذنة مكانة في أعمالهم الروائية. نظرا لامتلاكه طاقة فكرية وإبداعية كبيرة، ووعي بفلسفة التراث الإسلامي، مما جعلها تتحول في بعض أعماله الروائية، إلى عالم مشحون بالرموز،

ومكتنز بالحقائق والأسرار التاريخية الخفية. ومن بين الأعمال الروائية الهامة التي أبدع فيها روايتا (الزيني بركات و كتاب التجليات) حيث أظهر فيهما شعرية كبيرة، وقدرة فائقة على تطويع أساليب التعبير السردي، كما أظهر فيهما اهتماما كبيرا بالفضاء الديني الإسلامي، من خلال فضاء "المئذنة" حيث جاءت في مشهد جديد غير مألوف في النصوص الروائية العربية، الأمر الذي جعلها تتحول في أعماله إلى أيقونة متعددة الدلالات والمعاني. و تتميز بحضور غير مألوف. فقد نقلها من الحيز الجغرافي المتناهي الأبعاد، إلى فضاء خيالي مطلق فسيح تلاشت فيه المعالم والحدود، مما قوى الوظيفة الشعرية لرمزيتها، وشد من عضد سلطانها فتطاولت على ما حولها. فهي وعلى الرغم من أنها لم تلد مع المسجد إلا أنها قد باتت في زمن العولمة أحد رموز الصراع الحضاري. ومن هنا جاءت هذه الدراسة والتي نحاول من خلالها الوقوف على الكيفية التي تعامل بها الغيطاني مع فضاء المئذنة سرديا.

ABSTRACT

The minaret Occupies a special place in the Islamic spiritual conscience, from the religious aspect it is an expression of the sincerity of worship to God, alone with no partner. And from an engineering standpoint is an example of the beauty of Islamic architecture. Since its first establishment in the Umayyad period and to this day, it Knew a great development In the art of engineering and architecture with evolution of the ages and tastes of the peoples that entered Islam. As well as the different religious groups that Islam has known, it has painted all their marks (imprints) on its architectural structure. As it has several names, it is "Manara" the lighthouse, "Sawma'a" the tower, and " Mi'dhana" the minaret, names rooted in depths of the Islamic culture. It is no wonder that this religious symbol has become constitutes a bulwark with its own spiritual, cultural and social dimensions, in which fact and fiction are mixed. The Minaret has taken several shapes which inspired artists and creators, who varied their works in terms of type and quality. The minaret took hold of the imagination of novelists, in many creative works. As the novel (boarding the minaret) of Ahmad harb, the novel (the cyclone and the minaret) of Imad Eddin Khalil, and the novel of the Sudanese writer Leila Aboulela tagged (Regent's Park Minaret) which is in English, translated into Arabic.

Perhaps Gamal Ghitani is one of the most prominent Arabs novelists of which the minaret occupied a high position in their novels. Due to his possession of a large intellectual and creative energy, and the awareness of the philosophy of Islamic Heritage, making it turn in some of his novels, to a world charged with symbols, and hoarded of facts and hidden historical secrets. Among the important literary works which he excelled where two novels (Zini Barakat and Kitab Atajaliat) where he showed in both a great poetry, and ultra-ability to tame narrative expression methods, also

he showed a considerable attention in the Islamic religious space, through the minaret's space, where it came in new scene unfamiliar in the Arabic fiction texts, a fact which make it turned in its works to an icon with multiple connotations and meanings. And is characterized by an unusual presence. He moved It from the geographic domain of the finite dimensions to an imaginary and roomy absolute space, faded away in it the historic monuments and the borders, which strengthened the poetic function for its symbolism, and tighten its suzerainty, then it overlooks on all around. Although it did not give birth with the mosque, but it may become in the age of globalization, one of the symbols of cultural conflict. And here came this study, which we are trying to stand on how Al-Gheitani treated with minaret's space narratively.

استهلال نظري:

يطرح مصطلح الفضاء (L'éspace) إشكالا في فهم مدلوله، لذلك يحتاج إلى توضيح أكبر. ومن هنا كان ولابد من تقديم توضيح، وإن كنا نعلم بأن هناك دراسات كثيرة حوله، قدمت من طرف نقاد غربيين وعرب، يأتي في مقدمتهم دعاة الشعرية في الغرب، فقد كان لهم اهتمام بالفضاء الروائي. فقد عرف النقد الأدبي في الغرب مجموعة كبيرة من النقاد الذين اهتموا بدراسة الفضاء الروائي محاولين ضبط مصطلحاته مثل: يوري لوتمان الروسي (Louri.Lotman). ومن الألمان نجد وروبير بيتش (R.petsch)، وهيرمان مير (H.meyer). ومن فرنسا نجد جورج بولي (Geurge.poulet) وجلبير دوران ورولان بورنوف (Roland Bourneuf) وهنري ميتران (Henri.metterand) وغاستون باشلار. وقد كان لهؤلاء الفضل في لفت الانتباه إلى أهمية الفضاء الروائي في بنية النص. فهناك من يذهب إلى "أن الفضاء هو أحد العناصر التي يتأسس عليها الحدث"[1] بل نجد شارل كريفل (charles grivel) يذهب إلى أن الفضاء الروائي هو فضاء خاص[2]. ولذلك يتعدد إلى فضاءات كالفضاء الجغرافي، وفضاء النص، وفضاء الكتابة، وفضاء اللغة.

وقد أخذ النقاد العرب عن النقد الغربي مصطلح الفضاء الروائي، إلا أنهم اختلفوا فيه. وإن كان الاختلاف الحاصل بينهم حول مصطلح الفضاء بديهي، نظرا لعدم وجود هيئة علمية تقوم بالترجمة وتضبط المصطلحات. فهناك من استخدم مصطلح المكان، وأخر مصطلح الحيز، أو مصطلح الحيز المكاني. وإن كان مصطلح المكان الأكثر استعمالا. لأن من بين النقاد العرب من يرى الفضاء والمكان شيء واحد. وقد أدى هذا الخلط بالناقد المغربي حميد لحمداني إلى التصريح بأنه "لم يصادف

ضمن الأبحاث التي اطلع عليها دراسة تميز بشكل دقيق بين الفضاء والمكان "[٣] وهو من الذين يقلون بالفرق بين الفضاء والمكان لذلك يرى بـ" أن الفضاء في الرواية هو أوسع، وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تدرك بالضرورة، وبطريقة ضمنية مع كل حكاية."[٤] وقد استمد موقفه هذا من رولان بورنوف الذي يذهب فيه إلى أن " الفضاء داخل الرواية، هو أكثر من مجموع الأمكنة الموصوفة "[٥] وقد نتج عن هذا الطرح رأي يذهب إلى أن الفضاء أشمل من المكان فهو " ليس مجرد تقنية أو تيمة أو إطار للفعل الروائي، بل هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية، ولكل كتابة أدبية. فقط تحتاج هذه المادة لكي تدرك إلى توجه مختلف، إلى منظور متفهم ورؤية عاشقة." [٦] وإذا كان النص الروائي، في حقيقته، هو حقل من العلامات تتناسل فيما بينها، فإن الفضاء الذي يشمله هو فضاء حدسي، يختلف عن الفضاء المسرحي والسينمائي القابل للإدراك. فقد توجد بداخله " أمكنة متنوعة، تجري فيما بينها علاقات تناظر أو تضاد، أو تجاذب، أو توتر أو إقصاء" [٧]. وكل ذلك يجعلنا نستخلص بأن الفضاء مطعى معرفي تجريدي بل هناك من يراه مفهوم فوق نظري (métathéorique) كما يذهب إلى ذلك الناقد المغربي عبدالله المدغري [٨] وبما أن هذه الدراسة هي من قبيل شعرية النص الأدبي، فإن التركيز فيها كان على شعرية الفضاء الديني.

١ - النص الروائي وشعرية الأشياء:

إذا كان النص الروائي يعتبر " أفقا حقيقيا لذوبان مجموعة من التطلعات والاستيهامات، من خوف وقلق، وتصادم بين الوعي واللاوعي، بين المحتمل واللا محتمل، والإفرازات المتعددة والمتباينة " [٩] فإن النبض السردي في الأعمال الروائية

الجادة هو الذي يجعل المتلقي يتحسس الأشياء محاولا إعادة تشكيلها أو محاورتها لفهم كنهها. فالروائي وأثناء نسج نصه "يعيد تنظيم الأشياء وتصنيفها عبر وصف خصائصها أو سرد ما يحف بها من أحداث. فيستعمل مختلف سبل الإضاءة والتعتيم والتقطيع والتركيب والإبراز والإهمال والتدقيق حتى يزج بالأشياء في عالمها الجديد ويكسبها وظيفتها الجديدة ويحملها مختلف الأبعاد عبر ما يضفيه إليها من ظلال ومعان حافة ذات إيحاء."[١٠] و بذلك يوفر للمتلقي شبكة من الرموز والعلامات تتعدد وتتنوع مكوناتها، منها الظاهر ومنها الخفي. عليه أن يفض مغاليقها لكي يقف على بعض أسرارها. ومن هنا فشعرية النص الروائي، تتأتى من شعرية الأشياء التي تساهم في بنائه، فهناك أشياء بسيطة يودعها الكاتب في نصه، قد لا يلتفت إليها، ولا يهتم بها، و لكنها في الحقيقة تحمل أسرارا كثيرة. لأن توظفها في النص لم يكن توظيفا محايدا، بل من أجل مقاصد مضمرة. لذا يجب الاهتمام بها خارج أبعادها الحقيقية، حتى نتمكن من معرفة حقيقة حضورها في النص.

إن العالم الذي يحيط بنا، عالم مملوء بالأشياء، و بالأسرار الكونية. وأن الأشياء الصغيرة والهامشية، التي لا نلقي لها بال، قد تحدث في حالة الاهتمام بها، أثرا بالغا في نفوسنا." إن معاني العالم الذي حولنا الآن ليست إلا جزئية ومؤقتة ومتناقضة وقابلة دائما للنقاش والبحث."[١١] و الحقيقة التي يجب معرفتها هي أن الأشياء التي تبعث في النص الأدبي، تمتلك وجوها مخادعة ومختلفة، نظرا لتحولها من حال إلى آخر، فقد تظهر في صورة غير مألوفة، غامضة عصية عن الفهم، لأن اللغة الإبداعية بطبعها مراوغة دائما، قد تقول شيئا وتقصد أشياء أخرى.[١٢] لعلاقتها بالرمز، والرمز يوحي بالفكر، وفق رؤية [بول ريكور] فـ « العبارة توحي في نفس الوقت أن كل ما قد قيل إنما قد قيل بطريقة ملغزة، ومع ذلك ينبغي على الدوام إعادة الكَرَّة في إطار

الفكر. هذا التمفصل بين الفكر الذي يسفر عن نفسه في مملكة الرموز، وبين الفكر الذي يتأمل نفسه ويفكر، هو ما أريد أن أباغته وأفهمه » [١٣] وتلك حقيقة يجب أن نعرفها عن اللغة بصفة عامة، واللغة الإبداعية بصفة خاصة، لأنها لغة رمزية عصية عن الهضم. فـ" الأدب العظيم هو ذلك الذي يكون قادرا على النفاذ إلى ظواهر الوجود العام والوجود الإنساني كما تتجلى في تجربة الذات، التي هي تجربة الأديب، من خلال أصغر الأشياء وأكثرها بساطة. إنها تجربة الأسئلة الكبرى كما تتجلى من خلال الأشياء الصغرى المألوفة على نحو يثير دهشتنا." [١٤] فالأشياء الصغيرة لحظة تفعيلها تتحول داخل النص إلى أشياء مدهشة، بل قد تتحول داخل النص الروائي إلى بؤرة تحرك مسارات الحكي، أو إلى مفتاح يحمل سر سراديبه.كالفضاءات الدينية في بعض النصوص الروائية.

٢ - سلطة الفضاء الديني:

يتمتع الفضاء الديني بسلطة روحية نافذة في بواطن الذوات تنعدم في غيره من الفضاءات الأخرى. نظرا لقداسته وأهميته في حياة الأفراد والجماعات، فهو منبع الطاقة الروحية في الأرض فـ" ثمة أمكنة قدسية، وبالتالي " قوية " هامة، وأمكنة أخرى لا تتصف بالقدسية، وبالتالي لا بنية لها ولا تماسك. بكلمة واحدة، عديمة التماسك"[١٥] فالفضاء الديني هو فضاء مفارق لغيره من الأمكنة الأخرى، لأن ارتباطه بالسماء وبالغيب جعلا منه فضاءا متميزا له جاذبية خاصة (حيث أن الوجود البشري غير ممكن إلا بفضل... الاتصال الدائم بالسماء"[١٦] الأمر الذي جعل الفضاءات الدينية كالمساجد والكنائس والمزارات والأضرحة وغيرها، تحتل مساحات متفاوتة في النصوص الروائية العربية. إلا أن تناولها من طرف النقاد، لم يكن بالقدر المطلوب[١٧]. مما خيب أمنية الناقد والروائي العربي " غالب هلسا " عندما أشار في مقدمة ترجمته

لكتاب: غاستون باشلار [جماليات المكان] قائلا "ربما يدفع هذا الكتاب إلى دراسة موضوعات وجوانب من جماليات المكان العربي مثل الجامع والمئذنة والبيت والمقهى.. إلخ "[١٨] فقد تحقق الاهتمام بالفضاء اللا ديني، وغاب الاهتمام بالفضاء الديني. و لا يفهم من كلامنا الغياب الكلي للفضاء الديني، فهناك بعض الإشارات هنا وهناك، في بعض الأعمال النقدية. ونعتقد أن لتلك المواقف ما يبررها:

١- أن البعض من النقاد العرب لا يرون أهمية للفضاء الديني في الخطاب الروائي العربي، إذا ما قرن بالأماكن الأخرى التي تلعب دورا كبيرا في حياة الناس كالأماكن العمومية، مثل، الشارع، المقهى، والسوق، والإدارة والسجن وغيرها...إلخ.

٢- و هناك من لا يريد الخوض في الأماكن التي لها علاقة بالدين نظرا لقداستها، ومكانتها في الضمير الجمعي للمجتمعات العربية الإسلامية.

وذلك ما جعل بعض النقاد العرب يتحرجون من الخوض في الفضاءات الدينية.

٣ - الغيطاني و فلسفة الفضاء الديني:

هناك من الروائيين العرب من تناول الأماكن الدينية الإسلامية كالمساجد والمزارات والقباب وغيرها. إلا أن تناوله لها جاء خاليا من العمق الدلالي والرمزي، بحيث جاءت فضاءات عادية كما نعايشها في الواقع *. ولكن الذي نجده في روايات الغيطاني شيء آخر، نظرا لأنه "ينظر إلى الإبداع على أنه فعل حر يواجه الأديب به العالم "[١٩] فهو يقدمها في نصوصه الروائية، بعد استلهام فلسفة وجودها في هذا

الكون، في مشهد يحمل الكثير من الدلالات، محاولا معرفة ظاهرها وباطنها. لأنها في نظره ليست فضاءات لأداء طقوس العبادة والطهارة الروحية فحسب، وإنما هي رموز لسرمدية حضور المقدس في هذا الكون. لذا جاءت في نصوصه السردية فضاءات كونية تصل الأرض بالسماء، و نقطة التقاء الروحي بالمادي.، فبعد تأمله الطويل في العمارة الإسلامية، ووعيه بالدور الحضاري للتراث الروحي الإسلامي. أصبحت مآذن ومساجد القاهرة في نظره علامات تعبر عن عصور وأزمنة قد انتهت، ونفس الوقت تشكل متحفا لفن العمارة الإسلامية، "كل منها تعبر عن عصر بأكمله، ولكنها في مجموعها تشكل متحفا متكاملا حيا لفن العمارة الإسلامية."[٢٠] وهو بذلك يجسد سلطة المكان الديني الرمزية المتعددة الدلالات. فبعد أن استفاد من معمارية مآذن ومساجد القاهرة القديمة، والتي تمثل في نظره أرشيفا للعمارة الإسلامية. "أنا شخصيا استفدت كثيرا من تأملاتي وفهمي لتركيب العمارة الإسلامية وما تخفيه من مضمون فلسفي ورؤية خفية، خاصة في مساجد القاهرة"[٢١] فالعلاقة الحميمية التي تربط الغيطاني بالقاهرة القديمة قد مكنته من إدراك تلك الأسرار الخفية والغامضة لمساجد ومآذن القاهرة القديمة. وإن كان يدرك صعوبة بعث أسرارها وعجائبها الخفية التي تكتنز بها. لأن الفضاء الديني في حقيقته، لا يبوح بأسراره بسهولة، نظرا لعلاقته بالمقدس و بالسماء وبالعجيب والغريب. ومن بين الأعمال الروائية الهامة التي أبدع فيها الغيطاني روايتا (الزيني بركات و كتاب التجليات) فهما من أنضج أعماله الروائية التي كتبها، والتي أظهر فيها شعرية كبيرة، وقدرة فائقة على تطويع أساليب التعبير السردي. وما يلفت النظر فيهما ذلك الاهتمام الكبير بالفضاءات الدينية الإسلامية. فهو يتعامل معها، بحساسية كبيرة، وبعشق لا يمكن وصفه، وأنها لا تبعث في أعماله، في آنيتها الهندسية كما يفعل بعض الروائيين العرب. بل تبعث في شكل

مغاير مجلل بالروحانيات، بعد أن يستلهم هندستها المعمارية وأزمنتها التاريخية. محاولا من خلال بعثها الكشف عن الخفي و المسكوت عنه من أسرارها، التي طواها الـزمن. وإذا كان الكثير من النقاد قد تناولوا أعماله الروائية، وتطرقوا للكثير من القضايا التي طرحها. فإنهم من جانب آخر قد أغفلوا تناوله لتلـك الفضـاءات الدينيـة كالمسـاجد والمآذن التي تهيمن على بعض نصوصه الروائية.

٤ -تجلي فضاء المئذنة:

لكل روائي طريقته وفلسفته في تشكيل أمكنته داخـل عملـه الإبـداعي، سـواء كانت دينية أو دنيوية. ونظرا لاعتماد الغيطاني تقنية جديدة مبتكرة، فإن نـص روايـة [الزيني بركات] قد جاء مفتوحا على تأويلات شتى، بسبب هيمنة المسحة الدينية على مسارات الحكي فيه.

ولعل من بين الفضاءات الدينية التي تلفت نظر المتلقي في النص فضاء المئذنـة. والتي تعد من أبرز رموز المسجد الدالة على حضوره المكاني، باعتبارها الجزء المشرف منه على ما حوله والمميز له عن غيره مـن الأمـاكن، فهـي تـربط الكـوني بالـدنيوي، والظاهر بالباطن، الخارج بالـداخل، والخـالق بـالمخلوق. وحضـورها "يعمـق الـوعي المكاني من خلال ثنائية الداخل الخارج، والجزئي والكوني انسجاما مع الحس التأملي وقدرة واستنباط الكل من خلال الجزء "[٢٢] فهي تعلن عن فلسـفتها وهندسـتها مـن خلال شكلها الخارجي، المتميز والمتولد عن التلاقح الحضـاري للأمـم الـتي احتواهـا الإسلام، فالأصل والمنشأ، ثابتين وإن تغيرت العصور وهندسـة الأمكنـة لأن "المكـان يساهم في خلق المعنى داخل الرواية ولا يكون دائما تابعـا أو سـلبيا"[٢٣] ووفـق هـذه النظرة تتجلى مآذن مساجد القاهرة بكل جمـال معماريتهـا وكثافـة تاريخهـا في الـنص

الروائي الغيطاني. فهي تتحول في نصه إلى عوالم سحرية، قائمة بذاتها لها فلسفتها الروحية و الجمالية المتميزة، والتي تمتد في اللامتناهي لتعانق السماء. تبعث من جديد من سباتها، بعد أن نفض عنها غبار العصور الذي تراكم فوقها لتعلن عن حضورها تاريخيا وجماليا. فتبرز شامخة، مجللة بالقداسة وبالجمال والسحر والعجائبية، تتحدى العصور والأزمنة لتبوح بأسرارها الخفية، بعد أن كاد الزمن أن يطويها، في بحر النسيان ويجعلها نسيا منسيا. إن فكرة إعادة بعث الفضاء الديني من جديد، في النص الروائي الغيطاني، ترتبط في نظره بحقيقة جوهرية وأساسية هي رغبة الذات الإنسانية في البقاء والخلود، وهنا تبرز فلسفته الخاصة بالفضاء الديني، والمتمثلة في أن الفضاء الديني هو المحرك لحقيقة التاريخ ونبض الحياة في هذا الوجود. الأمر الذي جعل المئذنة القاهرية في رواية [الزيني بركات] تحتل مكانة استثنائية كفضاء معماري مكتنز بالأسرار والأحداث التاريخية، بل تتحول في معماريتها إلى مشهد يقرأ السارد على واجهته ما حدث وما سيحدث. بعد أن أزاح الكاتب عنها عصورا من النسيان واللامبالاة، فتجلت بأبعادها الروحية التي تأسر الأنفس.

وقد ترتب عن هذه الرؤية أن انفتح النص على شتى القراءات، و التأويلات. ونص روائي بهذا الحجم لابد وأن يطرح إشكالا يصعب الجواب عنه. لأن نصوص الغيطاني "كثيرة الاحتفال بالأسطورة والتصوف، وأنماط أخرى من المكونات التراثية، فقد انسحب هذا المنزع الاحتفالي على المكان أيضا."[٢٤] لذلك يجد المتلقي نفسه من البداية في حيرة نظرا لأن مشاهد المئذنة فيها جاءت مرتبطة بالرحالة البندقي، كما يجد نفسه من جهة أخرى أمام تداخل الأنا مع الآخر الأجنبي وفق تقنية الظاهر/ الباطن، فالآخر الأجنبي ممثلا في الرحالة البندقي يعلن عن حضوره في النص من خلال مشاهداته. وقد جاء صوته للتعبير عن منظومة قيم تختلف كل الاختلاف عن منظومة

قيم مجتمع النص، وبذلك يثير ظهوره مخاوف كثيرة، كالجوسسة، أو الدعوة لنشر المسيحية، أو التمهيد لغزو استعماري. خاصة وأنه ينتمي لمنظومة ثقافية لها أطماعها الاستعمارية، و الدينية. لذلك فهو ليس صوتا بريئا، بل يحيل على صمت مخيف، يثير حيرة المتلقي. مما يجعله يتحسس أن هناك نية مبيتة من وراء حضوره، و أن أمرا ما يخفيه، خاصة وأنه يبعث في ظرف صعب تمر به الأراضي المصرية. وأن النص يتناول أعمال البصاصين (المخبرين) وهو عالم غامض تكتنفه أسرار خفية فـ" التعامل مع الآخر غالبا ما تحكمه نزعة عدوانية قائمة على الإقصاء أو الميل إلى الصدام معه أو إبداء روح التكبر والاستعلاء."[٢٥] فشخصية الرحالة البندقي، شخصية تحوم حولها شكوك كثيرة. وهذه الشكوك تبدأ مع بداية النص حيث ينفتح بمقتطف (أ) من مشاهدات الرحالة البندقي، " تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام، وجه القاهرة غريب عني، ليس ما عرفته في رحلاتي السابقة، أحاديث الناس تغيرت، أعرف لغة البلاد ولهجاتها، أرى وجه المدينة مريضا يوشك على البكاء."[٢٦] فهذا الإحساس بتدهور الأوضاع في مصر، يسلط الأضواء على هذه الشخصية المتلبسة بقناع الرحالين، لمعرفة حقيقة دورها في أحداث النص. ولكن الذي يلفت الانتباه أكثر ليس حضورها في النص، وإنما علاقتها بفضاء المئذنة، وتفاعلها معها بطريقة تلفت الانتباه وتطرح الكثير من الأسئلة، أكثر مما تقرر من حقائق وإجابات، سواء عن العلاقة، أو عن تموقع المشهدين اللذين تظهر فيهما تواصلها مع المئذنة. حيث جاء ترتيب المشهدين وفق استراتيجية محكمة البناء أعطت للنص ملمحا جديدا وبعدا جماليا. فقد اعتمد الكاتب تقنية التقديم والتأخير لمشاهد الرحالة البندقي، الأمر الذي يربك لا محالة المتلقي ويدفعه إلى التدقيق في مجريات النص، ومتابعة تحركات شخصياته، لعله يظفر بحقيقة النص المضمرة من وراء التقديم والتأخير. فمعمارية النص تتأسس وفق

التقسيم التالي في البداية مقتطف للرحالة البندقي وفي الأخير مقتطف له، وبينهما سبع سرادقات تتخللها ثلاثة مقتطفات، وداخل هذا التقسيم يتموضع صوت الرحالة البندقي في النص تموضعا واعيا له دلالة قوية الحضور.

٤-١ - المئذنة وفتنة اللامرئي:

يتعامل جمال الغيطاني مع التراث الإسلامي، برؤية فلسفية عميقة النظر، نظرا لامتلاكه خبرة كبيرة في استعمال اللغة في الكتابة السردية. فهو يظهر تعاملا خاصا مع فضاء المئذنة، حيث تتعدد مرجعياتها ودلالاتها ومعانيها، واللافت للنظر أنها في بداية النص تتلبس بعدم الظهور. مما يثير حيرة المتلقي لأن الشيء اللامرئي يحدث فتنة كبيرة في النفس، وبذلك يحرك سواكنها الداخلية ويوقظ تلهفها، فالشيء الخفي يتلبس دائما بالغموض، وبسحر لا يقاوم. و من طبع الذات الإنسانية الرغبة في معرفة ما يخفيه الشيء اللامرئي، ولحظة اكتشافه تحس بنشوة كبيرة.

إن رغبة الرحالة "البندقي" في رؤية المئذنة في بداية النص يطرح أكثر من سؤال، خاصة وأن رغبته لا تتحقق نظرا لحاجز الظلام الذي يفصل بينه وبينها. "أطل من مشربية البيت محاذرا أن يراني أحد، أطل والظلام يلف البيوت، لا أرى مئذنة جامع السلطان الغوري الجديد، لم تمض سنوات على بنائه، لم أراه عندما جئت هنا آخر مرة قبل رحيلي الطويل إلى الشرق." [٢٧] فالزمن الليلي، يتوافق مع الحالة النفسية المضطربة للرحالة البندقي، نتيجة اضطراب الواقع الاجتماعي المصري. وهنا يظهر "التفاعل بين الشخصية والمكان" [٢٨] لأن التواصل الحاصل بين الذات والمكان الديني هو تواصل داخلي يتأسس من خلال جدلية الحضور والغياب / الظاهر والخفي، في زمن يلف فيه ظلام الليل البيوت، ويحجب الرؤية. وهنا تفقد حاسة العين دورها في

رؤية الأشياء، فتغيب عنها مكونات المشهد. مما يترتب عنه سيطرة الخوف والرعب على ذات السارد "أطل برأسي قليلا، أخاف انفتاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب"[٢٩]. فحاجز الظلام الكثيف الذي يحول بين الذات ورؤية ما ترغب فيه، يحيل على الكثير من علامات الاستفهام. و أن وراء ذلك سر ما، فالرحالة البندقي ينتمي لـ (الهناك) ولعقيدة مسيحية، وفضاء المئذنة ينتمي لـ(الهنا) ولعقيدة إسلامية. و معرفة ذلك السر يمر بالتأكيد، "بمعرفة الشفرة التي أبدع في إطارها العمل"[٣٠]. وهو ما يصعب من مهمة المتلقي، فالنص الروائي كلما احتوي على أشياء محجبة، كلما كان أكثر ثراء وغنى، وأكثر جاذبية. فالأشياء المحجبة بما تختزنه من دلالات ومعاني، تدفع المتلقي إلى الغوص في مسارات الحكي، لعله يظفر بسر من أسرار النص الخفية. " فالنص ليس نصا في ذاته، بل هو نص في حدود إحالته الضمنية أو الصريحة على نصوص أخرى."[٣١]

وإذا كان الليل هو عالم الأسرار، فإن كثافة ظلامه، قد ضاعفت من توهج الذات واندفاعها لرؤية المئذنة، لأن معايشتها للزمن الليلي، قد عمق من دلالتها ورمزيتها. فالرمز" هو وحده القادر على بعث الدلالات من رمادها. فعوالم الرمز مفتوحة على كل الواجهات، المبهم منها والغامض والسحري والمغري: ما خفي وما تنكر في ثوب التفاصيل المألوفة، ما مضى وما سيأتي، ما كان وما سيكون "[٣٢]

إن تلميح النص إلى الجانب الخفي من الفضاء المرغوب في رؤيته يعطي للأشياء معاني متعددة، وللنص بعدا جماليا، مما يوثق العلاقة بين فسحة التخييل، وضائقة المرجع. كما يظهر في نفس الوقت ما للفضاء الديني من دور كبير في تحريك مسارات الحكي في النص. فالمئذنة هي " الفضاء الذي ما يزال شاهدا على اللحظة التي حاول الخطاب تدوينها." [٣٣] ولكن اللحظة المقصودة ليس من السهل الظفر بها، خاصة وأن

المكان الروائي الذي تتحرك فيه شخصيات النص، هو قاهرة عصر المماليك. ومن بين تلك الشخصيات شخصية الرحالة البندقي، والتي قدمها الكاتب وهي تتحرك تحت تأثير سحر مآذن مساجد القاهرة لما تمثله من علامات حضارية لا تزال شاهدة على عصور قد مضت، ونظرا لتأثيرها القوي، فإن ذات الرحالة قد أصبحت تتلهف للإمساك بلحظة من لحظات إشراقها لعلها تقرأ من خلالها "اللا مكتوب" واللا معبر عنه "في الوثائق والكتب الرسمية"[٣٤] وما كان ليحدث لها ذلك لولا سحر المئذنة، وقوة حضورها.

٤-٢ - المئذنة و جدلية المرئي واللامرئي:

يعمل الغيطاني في كل نصوصه على أن يكون الفضاء الديني، متين العلاقة بالعناصر السردية الأخرى، حيث تبعث في النص وفق استراتيجية محددة ودقيقة. وهو ما يكشف عن عبقرية الكاتب في تجسيده للفضاء الديني بكل أبعاده الهندسية والروحية. فـ"أنا الكاتب" القابعة وراء "أنا الرحالة"، هي التي توجه سرد الأحداث، الأمر الذي يعمق من دلالة الأشياء، ويزيد من جدلية المرئي واللامرئي في المشهد. وحتى يظهر العمق الدلالي للمشهد عمل السارد على تجاوز حاسة البصر، إلى بصيرة القلب، نظرا لتأثر الكاتب بالمعرفة الصوفية. فهو يرى أن عين القلب تبصر بواطن الأشياء، بينما عين البصر تبصر ظاهرها فقط، فعين القلب ترى عالما روحيا، مملوءا بالعجائب والغرائب والسحر، فيه تنتاب الذات لحظات من الدهشة والذهول، والاحتراق والمحو."أيقنت جمال المنظر لو صعدت فوق المئذنة الجديدة التي بناها السلطان الحالي هنا، تشبه ذات الأربع رؤوس والمنبثقة من جامعه الجديد في أول سوق الشرابشيين. هذه المئذنة أدمنت النظر إليها. المرور من تحتها. يتساقط فوق

روحي وهج رخامها الملون.عصور سحيقة أراها في الصباح. أعود إليها وغبار العصر يغطيها فألقى منظرا جديدا. أجلس في دكان مشروبات قريب من الأزهر، أرقبها تغوص بقمتها، برؤوسها الأربع في الليل، حتى تندمج بظلامه. أخشى عليها من ضياع. أرجع إليها من جديد" (٣٥)

فهذا المشهد الذي يحتفي فيه الرحالة البندقي بالمئذنة ورد في المقتطف (ح) في السرادق الرابع. وهو من ناحية الترتيب الكرونولوجي يأتي في الرتبة الثانية بعد المقتطف (ب) و قبل المقتطف (أ) الذي أفتتح به النص. وترتيب المقتطفات على هذا النحو يظهر استراتيجية الكاتب في تعامله مع مشاهد الرحالة البندقي، وفي نفس الوقت يربك المتلقي، لحظة مواجهته لما يحدث في النص من تقديم وتأخير. إن دقة الوصف قد زرعت الحياة في زوايا المكان وبعثته من جديد، في حركة تربط ماضيه بحاضره، فتتحول إلى علامة مفتوحة على كل التأويلات، علامة يتواصل من خلالها المتلقي مع مقاصد المبدع للنص. " تبدأ العين بالتفاصيل، بالأجزاء والمقاطع للإمساك بالشامل والممتد، تبدأ بالمرئي للإمساك باللامرئي." (٣٦)

فالفضاء المكاني في النص السابق ينهض من خلال مجموعة من المشاهد، تقوم العين باستجلائها، وتفصيل مفرداتها، (جمال المنظر، المئذنة الجديدة، ذات الأربع رؤوس، جامعه الجديد) وهي أوصاف ليست بريئة، بل أوصاف دالة، عن نوايا مضمرة في نفسية السارد. فالمشهد ينفتح على لحظة تتحسس فيها دواخل الآخر الأجنبي مكونات المكان الديني الإسلامي. من خلال رؤية نافذة في معمارية المئذنة، وهنا تتجلى الذات الخفية للكتاب في تحريك المشهد بصورة تجعل الآخر يقف مبهورا أمام روعة المئذنة وما تحمله من أحداث تاريخية، و تنوع معماري إسلامي، الأمر الذي يجعل بصيرته تنفتح على عوالم سحرية من كنوز حضارة الشرق الإسلامي.

ومن خلال محمولات المئذنة " يرحل الغيطاني إلى أقاليم الماضي، فقرأ أسئلته وتنفس هواءه، كما لو كان قد استوطن زمنا أبصرته الروح ولم تر منه العين إلا ما رأت." (٣٧) وكل ذلك يزيد من رغبة الآخر الأجنبي في إماطة اللثام عن ما يختزنه المكان من تراكمات زمانية، وفنون معمارية. فصوت الكاتب المتخفي وراء صوت الرحالة الإيطالي [فياسكونتي جانتي] يجعل المتلقي يدرك بأن الذات المأخوذة بجمال مآذن مساجد القاهرة، هي ذات الكاتب، لأن التوهج الروحي لا يصدر إلا عن ذات ترتبط روحيا بقداسة المكان. " إن سمات المكان لم تعد تحدد من الموصوف ذاته كما هو الشأن في منطق الإبصار، وكما هي العادة عند الواقعيين مثلا، وإنما هي تحدد من خلال ذات الشخصية ووفق أحاسيسها ورؤاها، فيكون الحاصل من الوصف في الحقيقة فكرة الشخصية لا صورة للمكان ذاته "(٣٨) وبذلك تتحول المئذنة إلى فضاء مملوء بالأحداث التاريخية والأسرار الخفية التي أغفلها التاريخ، بعد أن تجلى ظاهرها وباطنها في لحظة من لحظات الحكي.

إنها لحظة تتجاوز فيها رؤية الكاتب الأبعاد المرئية للفضاء الديني بعد امتصاص مكوناته الخفية ثم صبها" في دائرة الرؤية الإبداعية. الرؤية الخلاقة التي تتيح للنص الروائي أن يتوفر على روائيته، وليس على صورة للواقع والشخوص المتحركة فيه بشتى أوضاعها وأزمنتها.أن يتوفر على أدبيته الخاصة. "(٣٩) فالتناسق الحاصل بين أجزاء المنظر، والحركة التي تسري في مكوناته، كل ذلك يضاعف من شعرية المشهد، ويزيد من اندفاع الذات نحو ما هو خفي من المشهد.

كما أن التداخل الحاصل بين المرئي واللامرئي، و الحاضر والغائب قد جعل المئذنة تتحول في مخيلة السارد إلى مرآة تعكس مشاهد أعمق وأشمل من تاريخ مصر، فهي تبعث في مشهد جديد غير مألوف، بل تتحول إلى أيقونة متعددة الدلالات

والمعاني، قلما نجد لها مثيلا في النصوص الروائية العربية. وأن تعامل الروائي معها وفق هذه الرؤية، قد جعل مقاربته لها لا تنحصر في بعدها الديني بقدر ما تتعدى ذلك إلى بعدها المعماري و التاريخي و الإنساني والحضاري. "وبذلك ينفتح الباب على الماضي من أجل استعادة زمن لن تقوى الذاكرة على استبقائه إلا بالحنين."(٤٠) فحنين السارد إلى الماضي جعل الحاضر يتصالح مع الماضي لبناء مشهد حضاري يحمل ديمومة التواصل مع حركة الزمن المتجهة دوما نحو المستقبل. فيقظة الذات ووعيها بأهمية الفضاء الديني وبعده الحضاري، قد دفعها إلى التوغل في معمارية المئذنة إلى درجة الغياب في سراديب عمقها التاريخي والثقافي والاجتماعي. وهنا يبرز المنطق الفلسفي الذي يتبناه الكاتب في تعامله مع الفضاء الديني، وخاصة المئذنة. وهو منطق شديد الصلة بالتراث الروحي الإسلامي.

٤ – ٣ – المئذنة وجدلية الصعود والهبوط فيزيائيا وروحيا :

إذا كان الشكل المعماري للمئذنة يقوم عموديا فإن الكلام عنها يعني الكلام عن الأعلى في مقابل الأسفل. فالأعلى يعني السماء، والأسفل يعني الأرض. وبذلك يحقق شكلها العمودي التواصل بين السماء والأرض. والحاصل في المشهد السابق أن المئذنة قد مارست سلطتها على السارد، وأن الرغبة في الصعود إلى أعلى، تعني رغبة الذات في العروج إلى السماء، و تعلقها بالملكوت الأعلى. كما أن التضاد الحاصل بين الصعود فوقها، والمرور من تحتها، يشكل ثنائية الأعلى/ الأسفل، ويوحي بدلالات كثيرة، فالصعود فوقها، ليس كالمرور من تحتها، فإذا كان الصعود من أجل استجلاء المنظر. فإن المرور من تحتها يعني الخضوع لعظمتها وصمودها في وجه متغيرات الزمن. فالسارد وحتى يسيطر على جزئيات المكان وضع المئذنة تحت مجهر النظر حتى لا يغيب عنه جزء من جزئياتها، يمكنه أن يخفي حادثة تاريخية ما، أو شكلا هندسيا لعصر

من العصور، أو شخصية من الزمن الغابر تركت بصماتها في المكان هنا أو هناك، فحاسة البصر تمثل عدسة الرصد. و بذلك تمثل حافزا سرديا يفضي إلى التطلع إلى ما يؤول إليه الحكي. إن استلهام الكاتب لفلسفة ومعمارية ومكونات الفضاء الديني، جعل المئذنة تبعث في سياق جديد غير مألوف. فلحظة التواصل معها تتجاوز ذات السارد عالم الواقع، إلى عالم الممكنات الذي تتفاعل فيه الأشياء البسيطة مع بعضها لخلق عوالم تخييلية مملوءة بالسحر والجمال. عالم تتحول فيه الأشياء البسيطة والهامشية إلى أشياء مشحونة بأبعاد ودلالات متعددة، مما يجعلها تتحول إلى بؤرة مركزية تحرك مسارات الحكي في النص السردي.

فذات السارد تعيش لحظة مشبعة بالتأمل والحيرة، جعلتها تبوح بجملة من الأسرار المودعة في باطن المئذنة، فهناك خط طويل من الزمن مملوء بالأحداث والحقائق يمتد من لحظة نشأتها الأولى إلى لحظة وقوف السارد أمامها. وهي لحظة تتجاوز فيها رؤية السارد تلك الحواجز التي تفصل بين الأشياء، وتنفذ إلى داخلها. و"هكذا يمكن للأشياء الصغيرة أن تصبح عوالم تضيء ما لا يضاء عادة في قراءاتنا العربية المشبعة بالجاهز "[٤١]

ومن خلال هذه الرؤية تأخذ المئذنة أبعادا شتى منها الحاضر ومنها الغائب، وهي تتجلى في فضاء جديد مملوء بالأسرار، وبإيقاع جمالي خاص، غير مألوف في النصوص الروائية العربية. إن العمل الحفري الذي قام به السارد في هيكل المئذنة من أجل استقراء التحولات التاريخية التي رافقت وجودها، وهندسة معماريتها مع مرور العصور، قد جعلها تتحول من هيكل لأداء الأذان، إلى فضاء حضاري مملوء بالأسرار. ومرآة عاكسة يقرأ السارد على واجهتها أحداث تاريخية كثيرة، ومعايشة أشكال هندسية إسلامية متنوعة لحقب زمانية متباعدة. بل جعل منها لوحة أثرية

مكتنزة بالأسرار والأحداث التاريخية، يقرأ على واجهتها حوادث كثيرة، وسير شخصيات مجهولة لها علاقة بها قد غيبها الزمن، فهي قديمة جديدة، في قدمها ترقد عصور سحيقة، وفي جديدها تتجسد العبرة والهوية.

إن ما قام به السارد في المشهد السابق هو عبارة عن عملية تناظرية أقرب ما تكون إلى ما أشار إليه الفيلسوف الفرنسي (روني غينون)، حين أشار إلى طبيعة التناظر بين الزمان والمكان في النظام الكيفي الذي تستند إليه الهندسة المعمارية المفعمة بالروحية في كل الأنظمة الدينية: «في النظام الكيفي، يترجم التناظر بطريقة ملفتة للنظر، عن طريق التطابق الموجود بين رمزية المكان من جهة، ورمزية الزمان من جهة ثانية... وحينما يتعلق الأمر بالرمزية، يصبح الارتكاز على الاعتبارات الكيفية، وليس على الاعتبارات الكمية» (٤٢) فالفضاء الديني هو فضاء مشبع بالرموز، يحيا من خلالها، ويحقق وجوده بتفاعلها.فالمئذنة ذات الأربع رؤوس تحيل على موضوع فلسفي يتعلق بمصير الوجود والإنسان والكائنات، فالرؤوس الأربعة، ترمز إلى الجهات الأربع للكون، كما تشير إلى أقطاب الصوفية الأربعة وإلى أقطاب النظام الحاكم الذي تتناوله الرواية (السلطان. والزيني بركات. وزكريا بن راضي. والشيخ أبو السعود.) وهنا تظهر قدرة الفضاء الديني على التشكل عبر الأزمنة، الأمر الذي يترتب عنه إحداث مقروئية متعددة الدلالات. " لأن المكان لا يعرف سوى الاختلاف والدلالة المنزلقة أبدا، ومفاجأة القارئ بأدوار جديدة في السياق النصي." (٤٣) و قد ترتب عن تلك الانزياحات والانكسارات التي عرفها المكان جمالية خاصة تجلت في جوانب النص. كما ترتب عن علاقة الرحالة البندقي بالمئذنة حضور قوي للفضاءات الدينية في النص، جاءت موزعة داخله وفق استراتيجية مدروسة. وكان توزيعها في مشاهد الرحالة البندقي على النحو التالي:

المقتطفات	مسجد	جامع	مئذنة	المؤذن
المقتطف (أ)	٠١	٠٢	٠١	
المقتطف (ب)	٠١	٠	٠	
المقتطف (ح)	٠٧	٠٣	٠٢	
مقتطف من مذكرات الرحالة الإيطالي	٠	٠	٠	٠١
مقتطف أخير من مذكرات الرحالة الإيطالي	٠	٠١	٠	

أما في السرادق فقد جاءت موزعة كالتالي

السرادق	مسجد	جامع	جامع الأزهر	مئذنة	المؤذن	الأذان
السرادق الأول	١٠	٠٧	٠٣	٠٢	/	/
السرادق الثاني	٠٩	٠٥	٠٣	٠١	/	/
السرادق الثالث	٠١	٠٥	/	/	/	/
السرادق الرابع	٠٨	٠٤	٠١	٠٢	٠١	/
السرادق الخامس	٠٢	٠٢	/	٠١	/	٠١
السرادق السادس	٠١	٠١	/	/	/	/
السرادق السابع	٠١	٠١	/	/	/	/

وقراءة في الجدولين السابقين تبين مدى هيمنة الفضاء الديني على مسارات الحكي في النص. كما تظهر فاعلية تقسيمها داخله، و علاقة الرحالة البندقي بها.

٤-٤ - المئذنة والكتابة في الفضاء:

إذا كان الكاتب قد قدم المئذنة في مشاهد الرحالة البندقي من خلال رؤية نافذة في الأشياء جعلت منها فضاء روحيا قائما بذاته يتحدى جبروت الزمان، ويتأسس في النص من خلال بعدين بعد تاريخي، وآخر معماري هندسي، يتبدلان الحضور والغياب لحظة تتابع مسارات السرد في الحضور الآني. فإنه في السرادق الخامس من النص يفاجئ المتلقي بمشد للمئذنة غير مألوف، يستمده من علاقته بالتراث الصوفي، حيث تتحول إلى حرف مجمد في الهواء "المآذن حروف تجمدت في الهواء "(٤٤) ففي هذا المشهد يبعث الكاتب المآذن في عالم سحري عجيب تتحول فيه إلى حروف سائلة لتتجمد في الهواء. وبذلك تنتقل المئذنة من حيزها الجغرافي إلى عوالم غيبية عجيبة، مملوءة بالسحر والعجائب، عوالم تتحول فيها الأشياء، بعد أن تخرج عن صفاتها المعروفة و تفقد شكلها المحسوس، إلى فضاءات أخرى عجيبة غريبة، فتصبح المئذنة فيها حرفا سابحا في الفضاء لا يحده زمان ولا يحتويه مكان. وحقيقة الأمر في ذلك كله أن الغيطاني من الروائيين المعجبين بالحرف العربي، فهو يرى بأن هناك علاقة بين الإنسان والحروف، فـ"الإنسان يودع أنفاسه ضمن تلك الحروف، ويهمس ويسري عبرها إلى الفضاءات العليا "(٤٥) بحيث تتحول الحروف إلى جسر عبور بين الإنسان والملكوت الأعلى. في عالم تتجاوز فيه الأشياء عالم المحسوسات إلى عالم الغيبيات الكثير التشكل والتلون، حيث تفقد الأشياء أشكالها وألوانها. وهنا تظهر قوة التجريد لدى الكاتب، لانفتاحه على الوجود المطلق اللانهائي، لحظة توهج الذات ومعراجها في عالم التجلي والخفاء المطلق."عندما تتخلص العلامة من لحظة التعيين الأولى، تنسخ لنفسها شبكة من الانزياحات الدلالية التي لا يمكن التحكم في انتشارها"(٤٦).

فعلاقة المئذنة بالحرف والهواء، هي علاقة روحية غيبية تتوافق مع ما يذهب إليه المتصوفة كالشيخ ابن عربي الذي يذهب إلى أن "الحروف سر من أسرار الله تعالى والعلم بها من أشرف العلوم المخزونة عند الله تعالى وهو العلم المكنون المخصوص به أهل القلوب الطاهرة من الأنبياء والأولياء"(٤٧)

فالغيطاني وهو الروائي المتشبع بالتراث الصوفي لا يمكنه إلا أن يجعل من المئذنة حرفا مجمدا في الهواء وبذلك يضع المتلقي أمام ثلاث أيقونات. (المئذنة. الحرف. الهواء) عليه فك شفراتها. وعندما نرجع إلى عالم الرؤيا والمكاشفة في المعرفة الصوفية نجد أن الحرف هو ما يخاطبك به الحق من العبارات. وأن الهواء هو الغيب الذي لا يصح شهوده(٤٨).

ومن خلال هذا الطرح تنزاح المئذنة في معماريتها إلى فضاءات عجيبة غير مألوفة. ويمكننا أن نذهب إلى أن الحروف التي كان يعنيها الكاتب في نصه السابق هي: [أ. ط. ظ] فالمئذنة الطويلة الشكل تشبه حرف [أ]، لأن شكلها العمودي يوحي بذلك، "ومآذن نحيلة، وقباب"(٤٩) والمئذنة الطويلة مع قبة المسجد تشبه حرفي [ط و ظ].وهذه الرؤية للمئذنة تؤطرها رؤية فلسفية صوفية، يشوبها تصعيد روحي إلى درجة الاحتراق. وهي رؤية موغلة في العمارة الإسلامية تحاول النفاذ إلى بواطنها، وإعادة بعثها في النص الروائي، في صورة غير معهودة في النصوص الروائية العربية التي تناولت الفضاءات الدينية. ويمكننا إرجاع ذلك "للخبرة الصوفية التي تسقط في دواماتها الشعورية والفكرية أركان العالم المألوف المتداعية، في نفس الوقت الذي تأخذ فيه شمس عالم آخر جديد في البزوغ، عالم هو دائما قيد التكوين تنكشف ملامحه لنا لحظة بعد أخرى وسطرا وراء سطر. ويتخلق بأكمله في مستوى مغاير كلية لمستوى إدراكنا الأولى الاعتيادي."(٥٠).

ومن خلال المشاهد التي عرضها الكاتب في رواية [الزيني بركات] يكـون قـد مهد للمشاهد اللاحقة في روايته [كتاب التجليات] حيث تصبح مشاهد الفضـاءات الدينية أكثر روحانية وعجائبية وسحرية، ويصبح السارد أكثر هيامـا بجمالهـا. خاصـة وأن الفن المعماري في نظر الغيطاني هو تعبير عن علاقة العبد بخالقه "فليس الفـن إلا وسائل للتعبير والتقرب وتجسيد العبادة، عبادة من خلال العمارة ذاتها "[٥١] فالفن هو صلة الوصل بين الخالق والمخلوق.

٤ – ٥ - المئذنة وتجلي صوت المؤذن:

إذا كانت المئذنة في رواية [الزيني بركات] قد ظهرت في النص كعلامة مشفرة عبر محطات تنحل فيها إلى أبعاد تاريخية وأسرار خفية قد طواها الزمن. فإنها في رواية [كتاب التجليات] تظهر كأيقونة مقدسة مجللة بالروحانيات. فقد جاء النص من أوله إلى آخره محكوما بالدال الديني، ومكتنزا بحقائق تحيل على عوالم كـثيرة، يتـداخل فيهـا السياسي بالعجائبي، والخيالي بالواقعي، والحاضر بالغائب، والكـل محكـوم بالتسـريد الديني، فتعددت الفضاءات الدينية وتنوعت، ونظرا للاستراتيجية التي اتبعها الكاتـب فإن حضور المئذنة في رواية [الزيني بركات] قد جاءت مرتبطة بحاسة البصر (العين) لإظهار حقيقة المشهد، خاصة وأنها جاءت في النص مرتبطة بمشاهد الرحالة البندقي، ولكنها في رواية [كتاب التجليـات] جـاءت في البدايـة مرتبطـة بحاسـة السـمع، إلى جانب حاسة النظر، و ذلك لاظهار المفارقة بين البعدين، وعلاقتهما بـالعوالم الغيبيـة. فالمئذنة في رواية [كتاب التجليات] تمتلك قوة نصية وجمالية تشد المتلقي إلى الـنص. فكان أن جاء ظهورها في البداية مرتبطا بصوت المـؤذن، حيـث يتجلـى صـوته لحظـة حلول الزمن الديني (آذن الفجر)، فتهتز نفس السارد، وتسمو إلى عالم الروحانيـات. "

صوت الحنين، وآذان الفجر من المسجد القديم"[٥٢] وقد ورد هذا المشهد في السفر الأول من الرواية. وهو مشهد يظهر العلاقة الجدلية بين المئذنة والمؤذن. فصوت المؤذن ليس مجرد صوت، بل صوت تتجلى من خلاله حمولة نصية إيمانية، تنفتح مباشرة على المقدس، لتتصعد من خلالها روحانية الإيمان إلى السماء، بعد أن تضرب في بواطن الذوات المؤمنة. فالآذان هو صوت السماء الأزلي الذي يعيد للذات علاقتها بالسماء. فـ" هو نداء جاذب للروح من طينها اللازب "[٥٣] ومن هنا تتأتى جمالية النص وتتعدد دلالاته، حيث يجد المتلقي نفسه أمام سرد ديني صوفي، وأمام سارد متعلق بالعتبات المقدسة. الأمر الذي يفتح أفق نظره على عوالم غيبية، متعددة الدلالات. فـ" الكتابة هي إنتاج علامات مرئية لأصل مسموع "[٥٤].

٤-٥ -١ - فتنة الصوت:

يحدث الصوت في دواخل الذات المستقبلة له انفعالات إما بالقبول أو بالرفض. وحسب ذبذبات الاستقبال، يكون رضا النفس عنه أو نفورها منه. فالصوت الجميل يحدث فتنة في النفس، عكس الصوت القبيح الذي يحدث نفورا لحظة سماعه. ولذلك "يمتاز الصوت بكونه ليس من صفات الشيء فليس له إطار مكاني بل ينتشر في الزمان ويتمتع بقرابة... فالصوت يغمرنا ويلج إلى أعماقنا إلى حيث لا يلج النور الخاضع لحدود المدى "[٥٥] وإضفاء صوت الحنين على الآذان من طرف الكاتب هو من أجل حل لغز المفارقة الحاصل بين صوت المؤذن الحزين في رواية [الزيني بركات] " الأذان حزين يدفع بالعمر مائة سنة "[٥٦] وصوت الحنين في رواية [كتاب التجليات] فصوت المؤذن الحزين جاء ليعبر عن أوضاع المجتمع المتردية الحزينة. بينما جاء صوته في رواية [كتاب التجليات] ليضاعف من الشحنة الإيمانية للسارد، لذلك يبعث في

سنفونية جميلة تسلب العقول وتحدث فتنة في النفوس. وهنا تجب الإشارة إلى أن الكلام عن عذوبة صوت المؤذن لحظة زمان الفجر في الخطاب الروائي العربي يرجع فضل السبق فيه للروائي السوداني الطيب صالح حين أشار إلى ذلك في رواية [مريود] الجزء الثاني من بندر شاه. (٥٧) حيث ركز على عذوبة وسحر أذان الفجر، بينما جمال الغيطاني عمل على توزيع صوت المؤذن بطريقة دقيقة بحيث تكرر في مشاهد عدة من النص، ليغطي أزمنة الصلاة باستثناء زمن العصر. وقد عمل السارد على الربط بين جمالية "المئذنة" وروعة صوت المؤذن. نظرا لانتمائه لنفس المنظومة العقدية والفكرية التي ينتمي إليها المؤذن. "عرفت أنه شيخ موقر موفور الهيبة في البلدة، له كلمة مسموعة، وحرمة، يؤم المصلين، يؤذن لأوقات الصلاة الخمسة بصوت جميل، عذب، قوي، يسمع في سائر أنحاء البلدة ويتجاوز فضاءها إلى النجوع المجاورة والكفور القريبة، بعض مشايخ البلدة ورجالها المعمرين وأصحاب الكلمة فيها يقصدونه ويقفون على مقربة يصغون إلى أذانه الشجي الورع، الصاعد إلى السماء كعين ماء سلسبيل يتدفق ماؤها من أسفل إلى أعلى" (٥٨) من خلال هذا التدفق الروحي يقدم السارد صوت المؤذن، لإحداث مشهد كوني يجمع بين قداسة المكان وصوت التوحيد المنطلق نحو السماء، صوت يحي النفوس كما يحي الماء الكائنات. وفي نفس الوقت يربطها بالملكوت الأعلى. "إذ ارتفع صوت شجي بآذان الظهر، لم أدر مصدره، ومن أي موضع ينبعث أو يأتي، ولما بدأ مألوفا لي، محببا إلى قلبي، قريبا إلى فؤادي، أمعنت السمع وأدركت أنه نفس صوت المؤذن الذي طالما شجاني، وقلب عيني وسدد نظراتي إلى العلو الأسمى" (٥٩).

إن التواصل الروحي الحاصل بين السارد و صوت المؤذن، قد جعل الأذان يتحول في النص إلى دواء سحري يشفي النفس ويبعد عنها الوساوس. فلحظة

انطلاقه نحو السماء تتحرر من حالة الاضطراب والقلق، فتطمئن وتهدأ "عندما أجلس في ميدان سيدي ومولاي الحسين قبل الغروب أرقب المارة وسفر النهار وبشائر الليل، ثم يعلو صوت المؤذن داعيا لصلاة المغرب، فتخبو همومي وتشف نفسي، وأصير إلى حزن حزين، ولما سمعت الآذان باللهجة القاهرية في فاس المغربية أنس قلبي "[٦٠] فهذا الإحساس القوي بصوت المؤذن يؤنس قلب السارد ويطمئن نفسه، ويدفعه للإكثار من الأوصاف الجميلة له: (صوت الحنين. ـ صوت جميل، عذب، قوي. ـ أذانه الشجي الورع). فعذوبة صوت المؤذن، متأتية من كونه صوت سماوي روحاني يحدث خلخلة في النفس، لينقلها من عالم المحسوسات إلى عالم الروحانيات لتعيش متعة عوالم الغيبي. و اللافت للنظر في النص أن السارد، قد بدأ بآذان الفجر، وختم بآذان الفجر. وهي تقنية لم تأت بمحض الصدفة، وإنما جاءت وفق رؤية فكرية للكاتب حاول من خلالها بناء عالم متكامل لفضاء "المئذنة" في النص. وكأنه بذلك يريد أن يعطي صورة يستشف منها أن الوجود الإنساني متجدد كما يتجدد آذان الفجر بداية كل يوم في هذا الكون.

٤ـ٦ - المئذنة وأبدية الحضور:

في لحظة من لحظات تتابع مسارات الحكي في نص [كتاب التجليات] يحاول السارد في مشهد دقيق تحويل مئذنة مسجد الحسين إلى نقطة ارتكاز كوني حيث يتجلى من خلالها المقدس فتتحول إلى مركز للكون ومدار للأفلاك. ومن خلال مشهد صنيع مخيلة الكاتب. لأن « المخيلة ليست مجرد سلطة تجريبية أو مضافة إلى الوعي، بل إنها الوعي بأكمله حين يتحقق. فكل وضعية عينية وواقعية للوعي في العالم تكون مشحونة بالمتخيل حين تتقدم دائما باعتبارها تجاوزا للواقع »[٦١] حيث تقوم مخيلة

الكاتب بتشكيل المئذنة في نص [كتاب التجليات] في مشهد عظيم يهز النفوس ويجعلها تعيش لحظة غياب وذهول صوفي، و خشوع وتأمل. "خشعت في ظلال مآذن استامبول، أدركت بشارات الأبدية إذ تأملت سعف نخيل الواحات في ثباته وعدم ميله مع الهوى أو الغرض"(٦٢) إن شحنة الإيمان التي غمرت السارد لحظة وقوفه أمام مآذن استامبول جعلته يخشع، وفي خشوعه أدرك بشارات الأبدية، أبدية الحضور الدائم لتلك المآذن في هذا الوجود، فهي صامدة في وجه متغيرات الزمان. و في صمودها وتحديها للزمان تقابلها مآذن أخرى تقف معها شامخة. "عند حد الأفق تقوم مآذن مهيبة، ظلال أبدية، تصل السفل بالعلو، تنتهي بجواسق وأهلة، وقرب منتصفها الأعلى أعمدة نحيلة يتخللها الضوء، فتبدو الفراغات محددة"(٦٣).

فمآذن القاهرة المهيبة تضفي على المكان قداسة، كما تضفي عليه مسحة حضارية، دائمة التجلي والحضور. و أن التواصل الحاصل بين السارد والمئذنة، قد دفع به إلى أن يقوم بأنسنتها بحيث تصبح كالأم التي تحنو على ولدها "رأيته يقف بساحة الجامع الأزهر، وسط الصحن المكشوف، تحنو عليه مئذنة قايتباي، ومئذنة الغوري ذات الرأسين"(٦٤) والملاحظ هنا أن الغيطاني لا يتعامل في نصوصه الروائية مع المئذنة في حضورها الآني، وإنما من خلال حضورها الأثري، و ما تحمله من أسرار تاريخية.

٤ – ٧ – المئذنة وكونية المركز:

إذا كان السارد قد أظهر في النص تعلقه بصوت المؤذن، فإنه في السفر الثالث من رواية [كتاب التجليات] والمعنون بالآية الكريمة [فهل ترى لهم من باقية] يستوقف المتلقي عند مشهد جميل للمئذنة تتعدد فيه الحركة بتعدد مآذن مساجد

القاهرة ثم تتوحد في مئذنة واحدة. "تلك مآذن أفقي الجنوبي، لكل منها حضور ألقى ظلا في قلب أصلي، منها السامق، مآذن مسجد محمد علي النحيلة، المهيمنة عند الحد، ومآذن السلطان حسن والرفاعي المتقاربة المهيبة، مآذن قصيرة غير أنها تعلو على البيوت المجاورة، تعلن عن مثاوى أحباب مجهولين، أو جند مجاهدين، أو أغراب من أهل الطائفة قضوا هنا، قمم بعضها مدبب، والآخر مستدير، كلها حافة، متحلقة بالمئذنة الأوضح، الأول، الألطف، الأقرب إلى الأفئدة، الطالعة دائما، مستمرة الصعود في ثباتها، إنها القائمة على مثوى الضريح القاهري لناصر المستضعفين، لمن حيل بينه وبين الماء فقضى ظمأ، الإمام الحسين. مئذنة يراها أول النهار وحتى غروبه، في ليالي رمضان يتقلد خصرها بطوق من ضوء أخضر، في ظهيرة حادة يتطلع جنوبا"[٦٥]، يظهر هذا المشهد المشحون بالروحانيات المكانة التي تحتلها مئذنة مسجد الحسين بين مآذن القاهرة، فهي تتجلى وسطها في عوالم روحانية وهندسية متعددة لتصبح عالما قائما بذاته دائم التواصل مع السماء. بل يجعل منها تحفة هندسية رائعة يقرأ السارد على واجهتها عبقرية العمارة الإسلامية التي تنوعت عبر قرون من الزمن، وبذلك تأخذ دلالتها الحضارية في النص الروائي، وإن كانت كل مئذنة من تلك المآذن التي تحيط بها تعبر عن معرفة مذهبية وعن عصر من العصور في إطار النسق الثقافي الإسلامي. فالآية القرآنية التي تصدرت السفر، والتي تحيل على العدم والنهاية، كان القصد منها تنبيه المتلقي إلى أن الفضاءات الدينية الواردة في المشهد هي أثار لأناس قد طواهم الزمن ولم يبق من أثارهم إلا تلك المآذن الشامخة الصامدة في وجه الأحداث، فهي الشاهد على زمنهم وعلى أحداثه ووقائعه الأليمة التي قد عاشوها. ومن جهة أخرى عمل السارد على إثارة وعي المتلقي وفتح أفق نظره على علاقة مآذن القاهرة بمئذنة جامع الحسين. والتي تتجلى من خلالها سطوة المقدس. وقدرته على الانبعاث

من جديد في جمالية سردية داخل النص الروائي، كمكان مشبع بالروحانيات وأحداث التاريخ ورفات شخصيات تركت بصماتها فيه. و بـذلك يتأكـد حضـور المئذنـة حيـة شامخة تتحدى جبروت الزمان، لتحافظ على بقاء التاريخ حيـا يتجـدد في كـل لحظـة، ولتعلن عن حضـور فلسـفة العمـارة الإسـلامية في هـذا الوجـود، وعلـى صـمودها وتحديها لتحولات الزمن. وهو موقف تتعدد دلالاته وتتشعب وتتنوع في النص.

فمئذنة مسجد الحسين هي نقطـة المركـز الـتي تقابـل السـماء، وبـذلك "تنجـز التواصل المباشر مع الله"[٦٦] لأنها ترتبط بعوالم غيبيـة تمتـد مـن الأرض إلى السـماء. فالمشهد يضع المتلقي أمام تلك التقابلات التي تحدث بينها وبين المـآذن الأخـرى الـتي تحيط بها، في حركة تنم عن توهج روحي ينبعث من ضريح الحسين. ومن خلال هذه الحركة تخرج مئذنة مسجد الحسين من سكونيتها الأبدية إلى فضاء متعدد الحركـة والتموجـات. لتصبح أيقونة لمآذن القاهرة القديمة، بحيث تأخذ أبعادا جديـدة، فهـي مئذنـة سماويـة كونية قائمة بذاتها، لا يحدها زمـان ولا يحـيط بهـا مكـان، مجللـة بالأسـرار الكونيـة، وعوالم عجيبة، ساحرة تخطف الأبصار، وتأخذ بالألباب. "فالرؤية هـي الـتي سـتمدنا بالمعرفة الموضوعية أو الذاتية التي تحملها الشخصية عن المكان وتحيطنا علمـا بالكيفيـة التي تدرك بها أبعاده وصفاته."[٦٧] إن العلاقة الحميمية التي تربط السارد بمئذنة مسجد الحسين هي التي جعلته يعيش لحظة كشف ومكاشفة، بين عالم مملوء بالأسـرار، وذات متوهجة تعيش لحظة وجد صوفي، وانجذاب وتواصل خيالي ومرئـي. ذات تـذوب و تحترق، لحظة تجلى المقدس في مئذنة الحسين. "جذورها الخفية ضاربة في صندوق فؤاد أصلي كذا فؤادي"[٦٨] و بذلك يدخل السارد في طقوس خاصـة مـع مئذنـة مسـجد الحسين طقوس روحية آسـرة للـنفس، وهـو يتأمـل عظمتهـا وتجليهـا الروحـي. "إن للأشياء تاريخا مرتبطا بتاريخ الأشخاص، لأن الإنسان لا يشكل وحدة بنفسه"[٦٩].

فشعرية مئذنة مسجد الحسين في المشهد السابق تتأسس من خلال تلك الدفقات الروحية التي تربط الكاتب بالتراث الإسلامي. ونظرا لتمكن الغيطاني من آليات الكتابة فإنه قد استطاع أن يقدم المئذنة في لوحة جميلة. "شأنه شأن الرسام والمصور، يجتزئ، في البداية، قطعة من الفضاء، ويؤطرها ويقف عن مسافة معينة منها"(٧٠).

وبذلك تحولت مئذنة مسجد الحسين إلى أيقونة جمالية للفن المعماري الإسلامي. كما أخذت المآذن التي تحيط بها دور الحاكي لأحداث التاريخ من خلال أشكالها وأنواعها، فهي الرابط بين الماضي والحاضر، والمحافظ على اللحظة الزمنية الحية، من الانفلات والذوبان في بحر النسيان. تتعدد في أشكالها وأنواعها وتاريخ نشأتها ثم تتوحد في مئذنة واحدة، هي مئذنة مسجد الحسين. إشارة إلى المركز الذي يدور حوله كل شيء في هذا الوجود، فمئذنة مسجد الإمام الحسين لم تعد دالة على مسجد، بقدر ما أصبحت مركزا مقدسا للوجود، وللكون. وبذلك تنتقل من عالم الواقع إلى عالم البرزخ، لتتحول إلى مئذنة سماوية، وشعاع نوراني يربط الأرض بالسماء. فهي تتجدد في معماريتها، في كل لحظة، لأنها المركز الذي تدور حوله كل الموجودات. يحيل على الوحدة والتعدد، وعلى الثابت والمتغير، فالثابت هو المركز والباقي يدور حوله. وأن سر بقاء مآذن القاهرة هو في تعددها وتشكلها وتوحدها، وسر خلودها وبقائها هو في تمركزها حول مئذنة مسجد الحسين، التي تستمد وجودها و حقيقتها من السماء. فهي في كل زمان تتلبس بشكل يزيد من ديمومتها وجمال منظرها. حاضرة دائما تواجه النسيان والغياب والعدم. وبذلك يفتح السارد للمتلقي نافذة يطل منها على مجريات التاريخ الماضي والحاضر ليقف على ما كان مسكوتا عنه، من تاريخ مآذن القاهرة القديمة.

ووفق هذا المنظور تعامل الغيطاني مع المئذنة فهي تبعث في أعماله كمئذنة كونية سماوية، متجاوزة لوجودها كرمز دال على مكان للعبادة يعمه المسلمون. وهو لا يقدمها إلا بعد استلهام فلسفتها، ثم يبعثها في صورة رمزية تتجاوز أبعادها المحسوسة إلى عوالم خيالية متعددة الرموز والدلالات. بعد أن تعلب حاسة البصر دورا كبيرا في إجلاء معماريتها، وتحديد هندستها وأطوارها، وكل ما هو ظاهر منها. ويمكننا أن نستشف من الجدول التالي مدى سطوة المكان الديني في رواية [كتاب التجليات] وكيف كان توزيعه على الأسفار الثلاثة:

السفر	مسجد	مسجد الحسين	جامع الأزهر	المؤذن	الآذان	المئذنة
السفر الأول	١٧	٩	٢		١	٢
السفر الثاني	٣٣	٢		٢	٤	٢
السفر الثالث	٢٨	٤	٤		٢	١٨

وعلى كل فالفضاء الديني في أعمال الغيطاني الروائية له خاصيته الفنية المتأتية من كونه مكانا خياليا له أبعاده الجمالية والدلالية التي أصبح يعرف بها في النص الروائي، وإن كانت صلته بالأصل تبقى قائمة رغم محاولة المبدع إخفاءها، عن طريق عملية الانزياح التي يقوم بها.

وإلى جانب اهتمامه بالفضاء الديني الإسلامي اهتم أكثر بالمئذنة لأنها في نظره أكبر رمز دال على الحضارة الإسلامية فقام بتفعيل دورها في نصوصه الروائية، وشحنها بطاقة روحية وحضارية وتقديمها بهذا الشكل جعلها تتناغم مع معمارية النص الروائي، وتحيل على وظيفة دلالية كبيرة تتسرب في كل مفاصل النص، وهي وإن كانت مئذنة استعارية، إلا أنها تتشكل من خلال مظهرين مظهر معماري، وآخر

تاريخي حضاري. في الأول تتجلى جمالية هندسة العمارة الإسلامية بذلك التنوع الذي عرفته عبر العصور. وفي الثاني تتجلى الأحداث التاريخية التي رافقت وجودها في البناء الحضاري. وبفضل تلك الرؤية النافذة في التراث الروحي الإسلامي، أخرج الغيطاني الفضاءات الدينية ممثلة في المئذنة من سكونيتها وجمودها وتحجرها، وبعثها في معمارية جديدة، أعطت للرواية العربية شعرية كبيرة و تقنية جديدة في الكتابة الإبداعية. بحيث تجلى الفضاء الإسلامي في النص الروائي العربي بتعدد مرجعياته الدينية والأسطورية والتاريخية والعجائبية والأيديولوجية والصوفية، من خلال تقنية جديدة، وبرؤية حداثية. وعلى كل فالمئذنة في نصوص الغيطاني تتحول إلى نص مكتمل الأبعاد، مكتنز بالحقائق والأحداث، متعدد المعاني والدلالات، يجسد الإعجاز المعماري الإسلامي. إلى جانب أحداث التاريخ المنسية والمغيبة.

الهوامش والتعليقات:

١ - جنيت وآخرون، الفضاء الروائي، تر/ عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢، ص١٤٦.

٢ - جنيت وآخرون، الفضاء الروائي، ص٧٣.

٣ - حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩١، ص٦٢.

٤ - حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص٦٤.

٥ - جنيت وآخرون، الفضاء الروائي، ص ٤١.

٦ - حسن نجمي، شعرية الفضاء، ص٥٩.

٧ - جنيت وآخرون، الفضاء الروائي، ص٨٩.

٨ - ينظر: حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط١/ ٢٠٠٠، ص٦٠.

٩ - شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، الدار العربية للعلوم، ط١/ ٢٠٠٩، بيروت، ص ١١.

١٠ - صلاح الدين بوجاه، في الواقعية الروائية- الشيء بين الوظيفة والرمز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١/ ١٩٩٣، بيروت، ص ١٦.

١١ - ألان روب جرييه، نحو رواية جديدة، تر / مصطفى إبراهيم، دار المعارف بمصر، ص ١٢٥.

١٢ - ينظر: سعيد توفيق، عالم الغيطاني، ص٩/ ١٠.

13 - Paul Ricœur: Le conflit des interprétations, Essais d'herméneutique, Édition Seuil, 1969. p. 284.

١٤ - سعيد توفيق، عالم الغيطاني - قراءات في دفاتر التدوين، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٠.

١٥ - مرسيا إلياد، المقدس والدنيوي(رمزية الطقس والأسطورة) تر/ نهاد خياطة، دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢/ ١٩٨٧، ص ٢٣.

١٦ – مرسيا إلياد، المقدس والدنيوي، ص ٣٥.

١٧ – ينظر الكتب التالية:

– غالب هلسا، المكان في الرواية العربية، دار ابن هاني، ط١/ ١٩٨٩.

– شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، الؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١/ ١٩٩٤.

– خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، كتاب الرياض، عدد ٨٣/ ٢٠٠٠.

– أحمد طاهر وأخرون، جماليات المكان، دار قرطبة للطباعة، ط٢/ ١٩٨٨، الدار البيضاء.

١٨ – غاستون باشلار، جماليات المكان، تر/ غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص ١٠.وانظر: إدوار الخراط، رواية يقين العطش، يوسف القعيد، الأعمال الكاملة– المجلد الرابع، محمد زفزاف، رواية أرصفة وجدران.

١٩ – يوسف زيدان، التقاء البحرين (نصوص نقدية) الدار المصرية اللبنانية، ط١/ ١٩٩٧، ص ١٧.

٢٠ – جمال الغيطاني، ملامح القاهرة في ألف سنة، ص ١١٢.

٢١ – محمد برادة وآخرون، الرواية العربية واقع وأفاق، دار بن رشد، ط١/ ١٩٨١، ص٣٢٩.

٢٢ – منصور نعمان الدليمي، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط١/ ١٩٩٩، ص ١٣٠.

٢٣ – حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩١، ص ٧٠.

٢٤ – مأمون عبد القادر الصمادي، جمال الغيطاني والتراث، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ١٧٣.

٢٥ – يوسف أحمد، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار المفاهيم والآليات، منشورات مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب– مكتبة الرشاد للطباعة، سيدي بلعباس، ٢٠٠٤، الجزائر، ص ٦٣.

٢٦ – جمال الغيطاني، رواية الزيني بركات، ص ٧.

٢٧ – جمال الغيطاني، رواية الزيني بركات، ص ٧.

٢٨ - ينظر: الصادق قسومة، علم السرد، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ط١/ ٢٠٠٩ص ٣٤١.

٢٩ - جمال الغيطاني، رواية الزيني بركات، ص ٧.

٣٠ - سيزا أحمد قاسم، القارئ والنص العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، القاهرة، ص ٢١٣.

٣١ - سعيد بنكراد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش.س. بورس، ط١/ ٢٠٠٥، المركز الثقافي العربي، ص٣٤.

٣٢ - سعيد بنكراد، مسالك المعنى، دار الحوار، ط١/ ٢٠٠٦، ص٦١.

٣٣ - سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩٢، ص ٩٧.

٣٤ - سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، ص ٩٧.

٣٥ - رواية الزيني بركات، ص٢٠٢-٢٠٣.

٣٦ - حسن نجمي، شعرية الفضاء، المركز الثقافي العربي، ص ١٠٩.

٣٧ - فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩٩، ص٢٢٩.

٣٨ - الصادق قسومة ع، لم السرد، ٢٠٠٩، ص ٣٤٠.

٣٩ - أحمد المديني، أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر، دار الطليعة، ط١/ ١٩٨٥، بيروت، ص٨٧.

٤٠ - عبد السلام الككلي، الزمن الروائي، مكتبة مدبولي، ١٩٩٢، القاهرة، ص ١٤٧.

٤١ - حسن نجمي، شعرية الفضاء ص١٤٠.

42 - René Guénon; Le règne de la quantité et les signes des temps, Éditions Gallimard, 1970. P 59.

٤٣ - خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص ١١٩.

٤٤ - رواية الزيني بركات، ص٢٦٦.

٤٥ – جمال الغيطاني استعادة المسافر خانة (محاولة للبناء من الـذاكرة)، دار الشـروق، ط١/ ٢٠٠٧، القاهرة ص

٤٦ – سعيد بنكراد، مسالك المعنى، ص١٧٩.

٤٧ – الشيخ بن عربي، كتاب سـر الحـروف، تـح/ عبـد الحميـد صـالح حمـدان، المكتبـة الأزهريـة للتراث، القاهرة، ص ١٤.

٤٨ – ينظر وذناني بوداود، المختصر في المصطلحات الصوفية، مطبعة ابن سـالم، لأغـواط، الجزائـر، ص ٢٥ و ص ٨١.

٤٩ – رواية كتاب التجليات، ص ٦٩٩.

٥٠ – حسني حسن يقين، الكتابة إدوار الخراط ومراياه المتكسـرة، المجلـس الأعلـى للثقافـة، ١٩٩٦، القاهرة، ص ٢٠٤.

٥١ – جمال الغيطاني، استعادة المسافر خانة (محاولة للبناء من الـذاكرة) دار الشـروق، ط١/ ٢٠٠٧، القاهرة، ص٣٧.

٥٢ – رواية كتاب التجليات، ص ١٩٧.

٥٣ – أحمد بلحاج أيـة وارهـام، الرؤيـة الصـوفية للجمـال، مؤسسـة البشـير للتعلـيم الخصوصـي، ط١/ ٢٠٠٨، مراكش ص ١١٩.

٥٤ – سيزا أحمد قاسم، القارئ والنص العلامة والدلالة، ص١٩٤.

٥٥ – جان برنيس، المخيلة، تر/ خليل الجر، المنشورات العربية، ط ١/ ١٩٨٤، بيروت، ص ٦٩.

٥٦ – رواية الزيني بركات، ص ٢٥٨.

٥٧ – ينظر: الطيب صالح، رواية مري، ص ٤٧–٤٨، ص٥٨.

حيث أورد مشاهد تجلى من خلالها صوت آذان الفجر، لحظة تناولـه لشخصـية حسـن المـدعو بلالا. "يروي الذين حضروا زمانه أنه كان حين يؤذن لصلاة الفجر، تحس أن الصوت لا يصل إليك من مئذنة الجامع، ولكنه ينبع من قلبك. كان أمرا عجيبا" فهذا المشهد يخرج صوت المؤذن

من حالته العادية إلى حالة أسطورية بحيث يصبح صوتا كونيا نافـذا في القلـوب يحـرك سـواكن الذوات. فقد "انتبه أهل البلد فجأة إلى هذا الإنسان البديع الذي يخلب جمالـه القلـب، ويفتـت صوته الصخر ويلين الحديد، كان حين ينادي مع الفجر بصوته الأعجم... تحس كأن ود حامـد كلها، بإنسها وحيوانها وشجرها وحجارتها، ورملها وطينها، من أسفلها إلى أعلاها، ومن برها إلى بحرها، قد اهتزت وارتجت وأصابتها قشعريرة." وهنا يصبح صوت المؤذن صوتا عجيبا نظـرا لأنه يصدر عن شخصية متلبسة بهالة أسطورية تتواصل مع عوالم الغيب.

٥٨ - رواية كتاب التجليات، ص٣٠٦.

٥٩ - رواية كتاب التجليات، ص ٣٧٦.

٦٠ - رواية كتاب التجليات، ص ٣٧٦.

61- Jean Paul Sartre*: L'imaginaire; Ed. Gallimard, 1940, P. 19.*

٦٢ - رواية كتاب التجليات، ص٥٢٤.

٦٣ - رواية كتاب التجليات، ص٦٦٤.

٦٤ - رواية كتاب التجليات، ص ٦٤٧.

٦٥ - رواية كتاب التجليات، ص ٦٧٩.

٦٦ - نورالدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال، ط ١/ ٢٠٠٥، ص ٣٥.

٦٧ - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩٠، ص ٤٢.

٦٨ - رواية كتاب التجليات، ص ٦٨٠.

٦٩ - ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر/ فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بـيروت، ط٢/ ١٩٨٢، ص ٥٥.

٧٠ - جنيت وآخرون، الفضاء الروائي ص ٩٩.

مصادر البحث و مراجعه

النصوص الروائية :

١- جمال الغيطاني، رواية الزيني بركات، دار الشروق، ط٢/ ١٩٩٤، بيروت.

٢- جمال الغيطاني، الأعمال الكاملة- كتاب التجليات -الأسفار الثلاثة -المجلد السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، القاهرة.

٣ - إدوار الخراط، رواية يقين العطش، ط١/ ١٩٩٦، دار شرقيات، القاهرة.

٤ - يوسف القعيد، الأعمال الكاملة- المجلد الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.

٥ – الطيب صالح، مريود- الجزء الثاني، دار العودة، ١٩٨٧، بيروت.

المراجع العربية :

١- أحمد بلحاج أية وارهام، الرؤية الصوفية للجمال، مؤسسة البشير للتعليم الخصوصي، ط١/ ٢٠٠٨، مراكش

٢- أحمد طاهر وأخرون، جماليات المكان، دار قرطبة للطباعة، ط٢/ ١٩٨٨، الدار البيضاء.

٣- أحمد المديني، أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر، دار الطليعة، ط١/ ١٩٨٥، بيروت.

٤- جمال الغيطاني، ملامح القاهرة في ألف سنة، شركة نهضة مصر، ط٣/ ٢٠٠٦، القاهرة.

٥– جمال الغيطاني، استعادة المسافر خانة (محاولة للبناء من الذاكرة) دار الشروق، ط١/ ٢٠٠٧، القاهرة.

٦- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩٠، الدار البيضاء-المغرب.

٧- حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، ط١/ ٢٠٠٠، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب.

٨- حسني حسن يقين الكتابة إدوار الخراط ومراياه المتكسرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦، القاهرة.

٩- حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩١، الدار البيضاء- المغرب.

١٠- خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، كتاب الرياض، عدد ٨٣/ ٢٠٠٠.

١١- سعيد بنكراد، السميائيات والتأويل مدخل لسميائيات ش.س. بورس، ط١/ ٢٠٠٥، المركز الثقافي العربي، الدار البضاء - المغرب.

١٢- سعيد بنكراد، مسالك المعنى، دار الحوار، ط١/ ٢٠٠٦.

١٣- سعيد توفيق، عالم الغيطاني: قراءات في دفاتر التدوين، دار العين للنشر، ٢٠٠٨، القاهرة.

١٤- سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، ط١/ ١٩٩٢ المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب.

١٥- سيزا أحمد قاسم، القارئ والنص العلامة والدلالة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢ القاهرة.

١٦- شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، الؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١/ ١٩٩٤، بيروت.

١٧- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، الدار العربية للعلوم، ط١/ ٢٠٠٩ بيروت.

١٨- صلاح الدين بوجاه، في الواقعية الروائية: الشيء بين الوظيفة والرمز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١/ ١٩٩٣، بيروت.

١٩- عبد السلام الككلي، الزمن الروائي، مكتبة مدبولي، ١٩٩٢، القاهرة.

٢٠- غالب هلسا، المكان في الرواية العربية، دار ابن هاني، ط١/ ١٩٨٩.

٢١- فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط١/ ١٩٩٩، الدار البيضاء-المغرب.

٢٢- مأمون عبد القادر الصمادي، جمال الغيطاني والتراث، مكتبة مدبولي، القاهرة.

٢٣- محمد برادة وأخرون، الرواية العربية واقع وأفاق، دار بن رشد، ط١/ ١٩٨١.

٢٤- منصور نعمان الدليمي، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن ط١/ .١٩٩٩

٢٥– نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال، ط ١/ ٢٠٠٥، المغرب.
٢٦- يوسف أحمد، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار: المفاهيم والآليات، منشورات مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، مكتبة الرشاد للطباعة، سيدي بلعباس، ط/ ٢٠٠٤، الجزائر.
٢٧ – يوسف زيدان، التقاء البحرين(نصوص نقدية) الدار المصرية اللبنانية، ط١/ ١٩٩٧.
٢٨- الشيخ بن عربي، كتاب سر الحروف، تح/ عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
٢٩- وذناني بوداود، المختصر في المصطلحات الصوفية، ط١/ ٢٠٠٩، مطبعة بن سالم، الأغواط –الجزائر.

المراجع المترجمة:

١- ألان روب جرييه، نحو رواية جديدة، تر: مصطفى إبراهيم، دار المعارف بمصر.
٢- جان برنيس، المخيلة، تر: خليل الجر، المنشورات العربية، ط ١/ ١٩٨٤، بيروت.
٣- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
٤ – جنيت وأخرون، الفضاء الروائي، تر: عبد الرحيم جزل، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢، الدار البيضاء.
٥ – مرسيا إلياد، المقدس والدنيوي (رمزية الطقس والأسطورة) تر: نهاد خياطة، دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢/ .١٩٨٧
٦ – ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، ط٢/ ١٩٨٢، بيروت.

المراجع الأجنبية:

- Paul Ricœur: Le conflit des interprétations, Essais d'herméneutique, Édition Seuil, 1969١
- René Guénon; Le règne de la quantité et les signes des temps, Éditions Gallimard, 1970. ٢
- Jean Paul Sartre: L'imaginaire; Ed. Gallimard, 1940, ٣

مدارات التركيب للجملة الإنشائية في الأمثال العربية القديمة "جمهرة الأمثال للعسكري أنموذجا"

د. أمل شفيق العمري

أستاذ مساعد اللغة و النحو العربي

قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم

جامعة البلقاء التطبيقية - كلية عجلون الجامعية /الأردن

مدارات التركيب للجملة الإنشائية في الأمثال العربية القديمة "جمهرة الأمثال للعسكري أنموذجا"

د. أمل شفيق العمري

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الجملة الإنشائية في الأمثال العربية القديمة تناولا أسلوبيا،متخذا من كتاب أبي هلال العسكري مادة تطبيقيّة لموضوعه؛ وذلك لخصوصية الأسلوب التركيبي الذي تتمتع به جملة المثل، من حيث شكل الإيجاز والتكثيف القادر على إعطاء الدلالة بأسلوب خاص، إذ تنحو جمل الأمثال العربية بأغلب أحوالها نحو التركيب الثنائي؛ من حيث هي تتكون من جزأين، هما – مثلا-: جملة الأمر بصيغة فعل الأمر وجملة جواب الأمر،في أسلوب الأمر، وجملة الطلب وجملة مبيّنة لسبب ذاك الطلب،كما في أسلوب النهي، وهي أنماط إنشائية تقع في أعلى هرم الثنائيات التركيبيّة للجملة العربية، وتبنى عليها حالات من الاتصال والانفصال والمفارقات والأسباب والنتائج.

فالتركيب الثنائي في جملة المثل قادر على حمل الدلالات والإيحاءات التي تكتنز فيها، حيث تشيع الأساليب الإنشائية الطلبيّة على وجه الخصوص في الأمثال العربية شيوعاً جليّا؛ وهي سمة أسلوبية مهيمنة في كتاب جمهرة الأمثال للعسكري. وقد تمثلت النماذج المختارة في أربعة من مدارات التراكيب الإنشائية في أمثال العسكري هي: مدار الأمر، ومدار النهي، ومدار الاستفهام، ومدار الشرط.

Orbit structure of the sentence categories: in the old Arabic proverbs In Abu Hilal Askari Book

BY

Amal shafeeq Al-omary

Abstract

This research deals with Arab proverbs sentences based on Abu Hilal Askari Book.

Proverb sentences tend to apply the bilateral structure. This means that most proverb sentences consist of two parts, such as the conditional sentences (if clause and main clause) and the imperative sentences.

The chosen models in this study were represented in the following sentence categories: imperative, interrogative, and conditional sentences.

(١)

التمهيد

أجمعت أغلب المعاجم العربية على أن المشابهة والمماثلة والتسوية هي المعاني اللغوية للفظة (مَثَلْ)[١]، فقد جاء في لسان العرب قول ابن منظور:" يقال هذا مِثْلُهُ ومَثَلُهُ كما يقال: شبهه وشبهه.. والمثل والشبه الشيئ الذي يضرَب لشيئ مثلا فيجعل مثله"[٢].

أما في الاصطلاح فهو كما يقول التهانوي:" المثل في أصله بمعنى النظير، ثم نقل منه إلى القول السائر أي الفاشي الممثّل بمضربه وبمورده؛ والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، والمضرب الحالة المشبّهة بها التي أريدت بالكلام، وهو من المجاز المركّب،بل لفشوّ استعمال المجاز المركب بكونه على سبيل الاستعارة سمي بالمثل"[٣].

فالمثل جملة موجزة مركّزة تقدّم دلالة بلاغية مقصودة، وإن هي لا تتخلّى عن وظيفتها القصصيّة المصاحبة لذلك الأمر. يقول الزمخشري: "هي قصارى فصاحة العرب العرباء وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة والركن البديع إلى ذرابة اللسان، وغرابة اللّسن، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوّحت فأغرقت في التصريح، وكنّت فأغنت عن الإفصاح"[٤]. فالزمخشري بقوله هذا جمع الخصائص الفنية اللغوية والتعبيرية للأمثال العربية القديمة، والتي أضيفَ إليها فنيا "إيجاز اللفظ وقصر العبارة، وإصابة المعنى، وإطالة المغزى وحسن التشبيه وجودة الكناية والشيوع والسيرورة والانتشار وثبات الصيغة وعدم تبدّلها أو تغيّرها بتغيّر المخاطب تذكيرا أو تأنيثا أو إفرادا أو جمعا أو تثنية"[٥].

ونحن إذ نتعامل مع جملة مركّزة مكثّفة قد أخذت صفة المنتج الجماعي النخبوي وليس صفة المنتج الفردي، فهي خلاصة لخبرة أجدادنا الأفذاذ وإنعكاس لأنماط الوعي الجمعي المشترك للعرب وتصوّرهم عن الحياة والعلاقات بين البشر بجميع مستوياتها وكافة شرائحها – فإن هذا الموروث الفنّي في مضمونه ولغته يستحق منا الوقوف والدراسة والتحليل – خاصة مع وجود مصادر موسوعيّة جمعت هذه الأمثال بين دفّتيها ووصلنا أغلبها[٦].

فعلى الرغم من وجود دراسات متنوعة حظيت هذه الأمثال بها[٧] إلا أن هذه الدراسات بالنسبة لحجم هذه الأمثال وأثرها وأهميتها واتّساع مادّتها وغناها والكم الكبير من مصنفاتها قليلة – على صعيد اللغة والأدب، وهي دراسات بلا ريب تبتعد عن مقصد هذا البحث ومبتغاه ومضمونه، وبما أنّ جملة المثل بناء لغوي تركيبي يتشكّل من جمل موجزة، وقد قُدّمت بأساليب خبرية وإنشائية متباينة ومتنوّعة؛ فإنّي سأحاول في هذه الدراسة تناول الجملة الإنشائية من الأمثال راصدة مدارات هذه الجملة من حيث المعنى و التركيب. فالجملة الإنشائية في الأمثال العربية لها أنماط متعددة منها:الأمر، والنهي، والاستفهام، والشرط وغيرها، وعليه؛ فقد اتخذت من رصد تلك الجمل وفق الأسلوب الذي حضرت هي فيه،وتحليل هذا الأسلوب من حيث التركيب منهجا لبحثي، معتمدة في جمع هذه المادة على كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) والذي يعدّ من أسبق كتب الأمثال التي وصلت إلينا [٨].

(٢)

يشكّل المستوى التركيبي- الذي هو: تنفيذ الكلام ونظمه لتشكيل سياق الخطاب الأدبي- [٩] مرحلة مهمة من المستويات اللغوية التي تتألّف منها النصوص،

فهو من المرتكزات والاتجاهات المهمة التي تنحو الأسلوبية نحوها للكشف عن الدلالة، حيث يعمد الأسلوبي، حين ينوي دراسة هذا المستوى من المستويات في نص ما إلى التراكيب المهيمنة على النصّ، وتعني الهيمنة: أن تكون تلك التراكيب قد زادت في النصّ على غيرها بحضورها، فيحصرها ويحصوها، ثم يربطها بظلالها الدلاليّة التي اقتضتها هذه الهيمنة[١٠]، كاشفا عن الأنماط التي حضرت هي في ذاك النصّ، ومُجيبا عن التساؤل المطروح، ومضمونه: لماذا هذا النمط دون ذاك، ولماذا هذا الحضور دون غيره؟.

وقد اختارت الباحثة الأمثال العربية لدراسة هذا المستوى التركيبي، لخصوصية جملة المثل، ولما تتمتع به من شكل الإيجاز والتكثيف القادر على إعطاء الدلالة بأسلوب خاص؛ ذلك أن جمل الأمثال العربية تنحو بأغلب أحوالها نحو التركيب الثنائي؛ من حيث هي تتكون من جزأين، هما – مثلا-: فعل الأمر وجواب الأمر، في أسلوب الأمر، أو فعل للطلب وتعليلا وبيانا لسبب ذاك الطلب،كما في أسلوب النهي. وهي أنماط إنشائية تقع في أعلى هرم الثنائيات التركيبيّة للجملة العربية، و تبنى عليها حالات من الاتصال والانفصال والمفارقات والأسباب والنتائج.

وقد سبقتني أماني داود القول إلى إن التركيب الثنائي في جملة المثل "قادر على حمل الدلالات والإيحاءات التي تكتنزها فيها، وهو تركيب قابل للتوسّع الدلالي في أكثر الألفاظ إيجازاً، بل إن هذا التركيب الثنائي يجعل جملة المثل جملة مكتملة مغلقة؛ تنفتح بالوهلة الأولى من التركيب وتغلق بالثانية وهي بهذا تشكّل ضربة إيقاعيّة على مستوى الصوت، وبنيه مميزة خاصة على مستوى التركيب وفضاء واسعا للمعاني على مستوى الدلالة...إذ تشيع الأساليب الإنشائية الطلبيّة على وجه الخصوص في الأمثال العربية شيوعاً جليّا؛ ولأنها تراكيب تنطوي على خطاب صريح فإنّ المتلقي لا

يكون حياديّاً إزاءها، إنّها توجّه خطابها إليه، تأمر وتنهى وتستفهم وتنادي، فيصبح شريكا لها في خطابها، بل إنها لا تتحقّق إلّا بشراكته وتداخّله"[١١].

ووجدت الباحثة أن هذا الأسلوب وتلك الظاهرة هي سمة أسلوبية مهيمنة في كتاب جمهرة الأمثال للعسكري. وقد تمثلت النماذج المختارة في أربعة من مدارات التراكيب الإنشائية في أمثال العسكري، تلك هي: مدار الأمر، ومدار النهي، ومدار الاستفهام، ومدار الشرط.

أولا: مدار الأمر

الأمر من المدارات الطلبيّة التي شاعت في الأمثال العربية أكثر من غيرها؛ فهو أحد الغايات المهمة في تجربة المثل عند العربي، وهو المنحى الاجتماعي الذي تسعى إليه الأمثال، فنجد فعل الأمر إمّا في أول المثل أو في آخره أو في أوسطه. ويحتاج الأمر إلى جهتين لتحقّقه، الأولى: (المرسل) الذي يوجه طلباً للمخاطب، والثانية: المخاطب (المرسل إليه) المكلف بالقيام به، وهذا الطلب يمثله (فعل الأمر) بصيغته، وهي الوظيفة الأصلية للأمر؛ من حيث إن الأمر في اللغة هو:"قول يعبّر عن فعل واجب الأداء"[١٢]، ومعلوم أنّ أسلوب الأمر يجيء لـ"طلب الفعل بصورة مخصوصة، على جهة الاستعلاء"[١٣]، وقد وضع فعل الأمر في اللغة لاعتبار طلبي لا لاعتبار زمني"[١٤]، ويدلّ في الأصل على "انتفاء حدث الفعل وقت إصداره والرغبة القوية في زوال هذا الانتفاء في أول أوقات الإمكان على وجه الإلزام؛ أي إن كان هناك ما يجب فعله فليكن (الفعل)"[١٥]، تكليفا[١٦]، وزمانه الحاضر[١٧].

ومن الناحية التركيبيّة فقد وجدت أنّ تراكيب الأمثال التي احتوت على أسلوب الأمر[١٨] متنوّعة فقسّمتها إلى الأنماط الآتية:-

النمط الأول لأسلوب الأمر: جملة أمر بصيغة فعل الأمر وجملة جواب الأمر بصيغة المضارع:

ومن ذلك:

- قولهم:" **اطلبْ تَظفَرْ**".ويضرب مثلاً في الحثّ على الاكتساب وترك التواني في طلب الرزق.[١٩]

- وقولهم: " **زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً**". والغِبّ: أن تزور يوماً وتدع الزيارة يوماً.[٢٠] جاء في لسان العرب:" أغبّ القومَ، وغبّ عنهم: جاء يوماً وترك يوماً، وأغبَّ عَطاؤه، إذا لم يأتِنا كلّ يوم، وأغبّت الإبلُ: إذا لم تأتِ كلَّ يوم بلبن، وأغبّنا فلان: أتانا غبّا، وفي الحديث: أغبّوا في عيادة المريض وأربِعوا....وقال الكسائي: أغببت القوم وغببت عنهم، من الغبّ جئتهم يوماً وتركتهم يوماً"[٢١].وقد قال بعض الشعراء:

وَقدْ قالَ النَّبيُّ وكان بَرّا إذا زُرْتَ الحبيبَ فَزُرْه غِبّاً

ومن هذا النمط قولهم:

- ومنه قولهم: " **اسمَحْ، يُسمَح لك**[٢٢]

- وقولهم: " **عِشْ رَجَباً، ترَ عَجَباً** [٢٣]

النمط الثاني: أسلوب أمر معلّل: جملة أمر بصيغة فعل الأمر وتعليل الأمر:

- ومن ذلك قولهم: " **أرْخِ يَديْكَ واسترْخِ، إنّ الزِّنادَ من مَرْخ**".[٢٤] حيث جاءت عبارة (إنّ الزِّنادَ من مَرْخ) تعليلا للطلب:(أرْخِ يَديْكَ واسترْخِ). أي: خفّض عليك في الطّلب، فإنّ صاحبَك كريم، وإذا كانت الزّناد من مَرْخ اكتُفِيَ بالقليل من القَدْح، والمرْخ: شجر يقال له بالفارسيّة (سمن)، يكثر نارُه، مثل العفار، وفي المثل "في كل شجرةٍ نارٌ، واستَمْجَدَ المَرخُ والعَفار" أي عَظُمَ نارهما، وأصل المجد الكبر والعِظَم "[٢٥]

ومما جاء في لسان العرب عن هذا المثل قول ابن منظور:"عود المرخ سريع الاتقاد، والمرخ من شجر النار معروف، وقالوا: أرْخِ يَدَيْكَ واسترْخِ، إنّ الزنادَ من مَرْخ، يقال ذلك للرجل الكريم الذي لا يحتاج أن تكرهه أو تلحّ عليه".[٢٦]

- وقولهم: **"أحْبِبْ حبيبَك هَوْناً ما عسى أنْ يكونَ بغيضَك يوماً ما"**[٢٧]. فقد جاء التركيب (عسى أنْ يكونَ بغيضَك يوماً ما) توضيحا وتعليلا للطلب (أحْبِبْ حبيبَك هَوْناً ما). والمثل لأمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه. ومعنى هوناً: أي قصداً لا إفراط فيه. قال صاحب لسان العرب:"جاء عن عليّ رضي الله عنه: أحبب حبيبك هوناً ما: أي حباً مقتصداً لا إفراط فيه، وإضافة (ما) إليه تفيد التقليل: يعني لا تسرف في الحب والبغض، فعسى أن يصير الحبيب بغيضاً والبغيض حبيباً، فلا تكون قد أسرفت في الحب فتندم، ولا في البغض فتستحي"[٢٨].وقال النمر بن تولب:

وَأَحْبِبْ حبيبَك حباً رويداً ... لِئَلاّ يَعولُكَ أَنْ تَصْرِما
وأَبْغِضْ بَغيضَك بغضاً رويداً ... إذا أنت حاولْتَ أن تحكُما

ومنه قول عمر رضي الله عنه: لا يكن حبُّك كَلَفا، ولا بُغضُك تَلَفاً"[٢٩]

- ومنه قولهم: **"احذَر الصِّبْيان لا تَصِبك بأعْقائِها"**[٣٠]. إذ جاء التركيب (لا تَصِبك بأعْقائِها) بيانا للسبب الذي من أجله حضر الطلب (احذَر الصِّبْيان). وهو مثال يقال في التحذير من صحبة من يعيبك من الوضعاء والأدنياء، وصحبة الدنيء تَضَعُ الشريف، وتقصِّر الهمّة، وتخمد الذِكر، وتُفْسِد الجاه، ومثل الشريف يخالط الدنيء مثل المسك تخلطه بالرماد فيأتي على جميع محاسنه، ويهلك سائر مفاخره، وقلت: والإعقاء: جمع عِقْي، وهو الذي يخرج من الصبي ساعة يولد، والعَقي بالفتح المصدر، وفي هذا المعنى قولهم: صديق السوء كالقَيْن، إن لم يُحرقْك بناره يؤذِك بدخانه"[٣١]، عقا: العِقي (بكسر العين)[٣٢].

- ومنه قولهم: "**ادْرَعوا الليلَ؛ فإنَّ الَّليلَ أخفَى للوَيْل**".فجملة (فإنَّ الَّليلَ أخفَى للوَيْل) حضرت تعليلا للطلب (ادْرَعوا الليلَ).وهو مثل يضرب للرجل يجدّ في طلب الحاجة، تدّرع فلان الليل: إذا دخل في ظلمته يسرى، والأصل فيه تدرع: كأنه لبس ظلمة الليل فاستتر به.[٣٣] ولتأكيد مضمون هذا التعليل، وضمان قبوله في النفس فقد جاءت الجملة متصدرة بـ(أن) المؤكدة من جانب، وجاءت ثابتة بتبوت الجملة الإسمية؛ ذلك أن الجمل الإسمية أثبت في التعبير من الجمل الفعلية.

- وقولهم: "**اتْرُكِ الشَّرَّ كما يَتْرُكَك**".حيث حضر التركيب (كما يَتْرُكَك) بيانا للطلب (اتْرُكِ الشَّرَّ). ومعناه: إنّما يصيبُ الشرُّ من يتعرَّض له. والمثل للقمان بن عاد، قاله لابنه: اترك الشرَّ كما يتركك، أي **كيما** يتركك، وكما لغة في كيما [٣٤]، قال الشاعر:

أَنِخْ فاصطبِغْ قُرْصاً إذا اعتادَك الهوَى ... بِزيتٍ كما يكفيك فَقْدُ الحَبائبِ

أي: كيما[٣٥].

النّمط الثالث: أسلوب أمر (بصيغة فعل الأمر؛ خارج عن معناه الأصلي الى معان سياقيّة:

فالأصل في الأمر، أن يكون لطلب الفعل على سبيل الإيجاب، ولكنّه قد يُمنح علاوة على وظيفته الأصليّة (الإيجاب والإلزام) دلالات بلاغيّة كـ: النّصح والإرشاد والحضّ والتقريع والتوبيخ وغيرها، وهي دلالات ومعان تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، ويتطلّبها السياق كالدعاء والتهديد و النّصح و الإرشاد و التحدّي والاستهزاء وغيرها، ومن ذلك قولهم:

- **"احفظي بيتك ممّن لا تَنْشُدين"[٣٦]**؛ "أي ممّن لا تعرفينه فتنشُدينه، أي تطلبينه، والنِّشدان الطلب، والناشد الطالب، والمنشد: المعرِّف، وقولهم: أنْشُدُك الله؛ أي أحلّفك بالله لِتَصدُقَنّي عما أطلبُه منك". [٣٧] وقد قال المفضل: زعموا أن امرأة قالت لابنتها: احفظي بيتك ممن لاتنشدين، أي لا تعرفين[٣٨]

- وقولهم: **"أعطِ القوسَ باريها"[٣٩]**؛ أي استعن على عملك بمن يُحسِنُه، وهو من قولِ القائل:

يا باريَ القوسِ بَرْياً لستَ تُحْكِمُه ... لا تَظلِمِ القوسَ أَعْطِ القوسَ باريها

وظُلْمه لها إفساده إياها، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "استعينوا على كل صناعة بأهلها"[٤٠]. ومن هذا النمط قولهم:

- البس لكل حالة لبوسها [٤١]
- برّقي لمن لا يعرفك [٤٢]
- ولّ حارّها مَنْ تولّى قارّها [٤٣]
- خَلِّهِ دَرَجَ الضَّب [٤٤]
- ولّ المالَ ربَّه[٤٥]
- دعْ عنك نهَباً صيحَ في حَجَراتِه [٤٦]
- ألقِ دلوَك في الدّلاء[٤٧]
- أعطِ أخاك من عَقْنَقَلِ الضَّب[٤٨]
- اعصُبْه عَصبَ السَّلَمة[٤٩]
- اشدُدْ يَديْك بِغَرْزِهْ[٥٠]

- اشدُدْ حَيازيمَكَ لِلأمْر[٥١]

النمط الرابع: أسلوب أمر: جملة بصيغة فعل أمر (عطف عليه) أسلوب نهي:

ومن ذلك قولهم:

- "**عَشٍّ ولا تَغْتَرّ**"[٥٢]. ويضرب مثلاً للاحتياط والأخذ بالثقة في الأمور، وأصله أن رجلاً أراد أن يُفوّز بإبله عند الليل، وهو في عشب، فترك أن يُعشّيَها[٥٣] منه واتّكل على عشبٍ ظنّ أنه يجده في طريقه، فقيل له: عَشّها من هذا الحاضر ولا تغترّ بالغائب، فلعلّه يفوتك، وجاء رجل الى ابن عباس فقال: كما لا تنفع مع الشرك حسنة، فكذلك لا يضّر مع الإيمان ذنب، فقال له ابن عباس: عش ولا تغتر، أي لا تغترّ بهذه الشبهة، واعمل فإن الإيمان قولٌ وعملٌ، ومن أمثالهم في الاحتياط قولهم: حِفْظُ ما في الوعاء شدُّ ما في الوِكاء".[٥٤]

- ومنه قولهم:"**أَرْسِلْ حَكيماً ولا تُوصِهِ**"[٥٥]

النمط الخامس: أسلوب أمر معطوف على أسلوب أمر آخر: ومن ذلك قولهم:

- **بَقٍّ نَعْلَيْك وابْدُل قدمَيك**[٥٦]. حيث عطف الفعل (ابدُل) على فعل الأمر(بَقٍّ).

- ومنه قولهم: **عارِك بِجَدٍّ أوْ دَعْ**[٥٧]

- ومنه:**كُنْ واسِطاً وامْشِ جانباً**[٥٨]

ثانيا: مدار النّهي

النهي هو طلب سلبي، أي طلب الكفّ عن الفعل، والامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام، وله صيغة تركيبية واحده، هي المضارع المقترن بلا الناهية"[٥٩]. ويأتي النّهي بصورة نهي حقيقيّة وأخرى مجازيّة إذ "يخرج عن معناه الحقيقي إلى معان

مجازية تفهم من سياق الكلام وبمعونة القرائن التي توحي بالمعنى البلاغي الذي يفهمه الأديب من تذوّقه للنص،وهذه المعاني المجازية هي التي ترتفع بالأسلوب عن وظيفته التقريرية من مجرد الفهم والإفهام إلى مرتبة أعلى تعطيه دلالات وإيحاءات فنيه لها غايات تسعى لتحقيقها وهي تمتّع الفكر وتثري الوجدان، وتفتح مجال الخلق والابتكار"*[٦٠].

وتقول أماني داوود:" يخرج النهي من المعنى الأصلي أو الحقيقي فلا يعود أمرا بالكفّ أو الامتناع عن فعل ما من مرسل إلى متلق بقدر ما هو محمولات ثقافية تمثّل ما يشبه القوانين أو التعاليم التي لا يجوز خرقها، أو ينبغي التمسّك بها بوصفها معايير أساسية يراعيها المجتمع الذي تستخدم فيه الأمثال، ويمكن ربط ذلك بما في القوانين من ضوابط ومحدّدات لا تتيح الأشياء كما يريدها المرء،بل تضع خطوطا وموانع تنهى عن تجاوزها، لذا لا نجد في أسلوب النهي في الأمثال ما يمثّل أحكاما وحكما مجردة في ذات الوقت، ومن ناحية أخرى فإنّ الممنوعات في حياة المرء أكثر من المسموحات،وطلب الكفّ عن فعل الأشياء أكثر من الرضا عن فعلها، فكأنّ أسلوب النهي في الأمثال بمثابة إصبع مرفوع في وجه الناس يحول دون الحريّة المطلقة،ويمارس دور السلطة التي تراقب سلوك الأفراد وتحاول ضبطه بما يستقيم مع قيم العصر والمجتمع"[٦١]. وربما يحتاج هذا القول إلى إعادة نظر، من حيث إن المسموحات أكثر من الممنوعات، إذ الأصل في الأشياء الإباحة؛ وهي الأكثر.

وبعد تتبعي للأمثال في جمهرة الأمثال وجدت أن أسلوب النهي قد ورد على صور متنوعة[٦٢] فكانت أنماطه كالآتي:

١. **النمط الأول**: أسلوب النهي منفردا:

– ومنه قولهم: **" لا تبرقل علينا"**[٦٣]. والبرقلة: الكلام بلا فعل، مأخوذ من البرق بلا مطر، يقال: برق الرجل: تهدّد وأوعد، كأنه أراه مخيلة الأذى كما يُرى البرق مخيلة المطر[٦٤] وهو مثل الحوقلة: من لا حول ولا قوة إلاّ بالله. والبسملة من: بسم الله، وحكى الخليل: حيعل من قول المؤذن: حيّ على الصلاة.

وقد خرج هذا المثل إلى معنى مجازي وهو الكلام بلا فعل ويضرب هذا المثل للمتصلف، ويخرج النهي عن طلب الكف عن البرقلة؛ إذ إن المرسل يعبر عن خلجات نفسه تجاه المتلقي فيوبّخه ويؤنّبه، مع ما في المثل من تهكّم، وبذلك لا يكون النهي حاملاً لمعنى حقيقيٍّ.

– ومنه قولهم: **"لا تويسِ الثّرى بيني وبينك"**[٦٥]

أي لا تقطّع الودّ الذي بيننا، وقد خرج هذا المثل إلى دلالة النصح والتوجيه، والثرى هاهنا تمثيل، وأصله: النَّدِيُّ. قال جرير:

ولا تويسوا بيني وبينكم الثرى فإنّ الذي بيني وبينكم مُثري[٦٦]

وقد جاء في اللسان: الثرى... التراب النّدي. قال ابن السكيت: ثري بذلك يثرْى، أي يفرح، وقولهم: ما بيني وبين فلان مثرٍ: أي أنه لم ينقطع، وهو مثل: وأصل ذلك أن يقول: لم ييبسَ فلان الثرى بيني وبينك، كما قال عليه الصلاة والسلام: "بلّوا أرحامكم ولو بالسلام".[٦٧]

والعرب تقول: شهر ثري وشهر مرعي: أي تمطر أولاً ثم يطلع النبات فتراه، ثم يطول فترعاه النَّعم، فأما قولهم: ثرى فهو أول ما يكون المطر فيرسخ في الأرض وتلين التربة. فهذا معنى قولهم: ثرى، والمعنى: شهر ذو ثرى، فحذفوا المضاف".[٦٨]

٢. النمط الثاني: أسلوب النهي معللا:

– ومن ذلك قولهم: **" لا تخربش فيحورَ َبك".** [٦٩] فجملة (فيحورَ َبك) بيان لعلة مجيء الطلب الناهي (لا تخربش).

– ومنه قولهم: **لا تَنْقُشِ الشوكةَ بمثلها فإنّ ضَلْعَها معها وإزالَتَها لها".** [٧٠] أي؛ لا تستعن في حاجتك بمن هو للمطلوب أنصح منه لك. والضّلع: الميل، يقول: إنّ الشوكة إذا نقشْت بها شوكة أخرى لم تخرجها وانكسرت معها فصار أمر الشوكة أشدّ تفاقماً، وقد نقشت الشوكة إذا استخرجْتَها، وأصل النقش الاستقصاء؛ وذلك أن الشوكة يُستَقصى عليها في الكشف عنها حتى تُستَخرَج. قال الشاعر:

لا تنقشنَّ برجل غيرك شوكةً فتقي برجلك رجلَ مَن قد شاكَها

وتقول: " شاكني الشوكُ إذا دخل فيك، وشُكتُ الشوك إذا أدخلت فيه ".[٧١] و"نقش الشوكة ينقشها نقشاً: أخرجها من رِجله،... وناقشه في الحساب مناقشة ونقاشاَ: استقصاه، وفي الحديث: مَن نوقِش في الحسابَ فقد هَلَك.[٧٢]... وأصل المناقشة: من نقش الشوكة اذا استخرجها من جسمه".[٧٣]

٣. **النمط الثالث:** أسلوب النهي المقترن بالحصر أو بالاستثناء:

– **ومنه** قولهم: **" لا تبق إلّا على نفسك".**[٧٤] وهو من النهي المجازي الذي يرد من الحرص بشدة على الرغبة في وقوع الفعل على هيئة معينة.وقد جاء التركيب على شكل طلب ناهٍ (لا تبق) متبوعا بأداة الحصر (إلا).

فمن خلال الأمثال السابقة جلّها نلحظ أن أسلوب النهي له إمكانات تعبيرية ثرية، تمثل ما يشبه القوانين التي لا يجوز خرقها، بوصفها معايير أساسيه لها اعتبارها وقيمتها في المجتمع الذي يستخدم هذه الأمثال ويحترمها. ويلاحظ أن كثيرا من هذه الأمثال تشترك في تركيب ثنائي يجعل جملة المثل مؤلفة من وحدتين لغويتين تعملان

معاً على توسيع الإمكانيات الدلاليّة، وهو ما يدل على غناء أسلوب النهي بمزيد من الإيحاءات، وبعد النظر في الأمثال التي جاءت على صيغة النهي، يلفت انتباهنا أن النصح والإرشاد هما المعنيان الأكثر دورانا في جملة المثل النهيية؛ وهو أمر يمكن أن نربطه بالوظيفة التربوية الاجتماعية للأمثال التي تسعى إلى تقديم مجموعة من القيم الإنسانية الواقعية.

ويمكن أن يضاف **التحذير** إلى مدار النهي بوصفه من الصيغ التي تقوم في جوهرها على معنى النهي،وقد سمّاه سيبويه النهي[٧٥].

ومما جاء على صيغة التحذير في كتاب العسكري قولهم: **إيّاكم وَخضْراءَ الدِّمَنْ**[٧٦]. والدمن: هو النبت ينبت على البعر، فيروق ظاهرة، وليس في باطنه خير، وضَرَبه مثلا للمرأة الحسناء في منبت السوء، وكره ذلك؛ لأن عرق السوء ينزع. وقال غيره: ليس هو منه في شيء، قال ومعناه: أن الدمنه هي الموضع الذي تبرك فيه الإبل، فتبول وتبعر فيه، فلا ينبت شيئا، فاذا أصابته السماء وسفّته الرياح أنبت، فيقول: ان ذلك الموضع قد ينبت بعد إن لم يكن ينبت فيتغير بالنبات، وتبقى حزازات النفوس لا تتغير. ويقول العرب: عرق السوء ينجث ولو بعد حين، اي استخرج منه ما هو كامن فيه. ودمنة الدار: أثارها، والدمنة آثار الناس وما سّودوا، وقيل: ما سودوا من أثار البَعَر وغيره، والجمع دِمن، ودمنت الماشية، المكان: بعرت فيه وبالت.

- ومثله قول العرب: **إيّاكم وعقيلةَ الملح،** يعيون الدرة، وهي تكون في الماء الملح، ومعناه النهي عن نكاح الحسناء في منبت السوء.[٧٧]

ثالثا: الإنشاء في حيّز الشرط

تتكون الجملة في العربيّة من ركنين: المسند والمسند إليه، وما عدا هذين الركنين، يسمى (قيداً) وهذا القيد قد يكون الشرط أو التوابع أو المفاعيل أو النفي. والجملة الشرطية هي جملتان: إحداهما: فعل الشرط والأخرى: جوابه أو منه، وقد تكون جملة الشرط من باب الخبر، وقد تكون من باب الإنشاء. فمما جاء من الأمثال في باب الخبر - وهو ليس مدار بحثي، وإنما أذكره من باب التمثيل والبيان – ولأني أشعر كما يشعر متلقي المثل العربي بوجود الأمر في جملة المثل حتى لو جاءت الصيغة خبرية كما في - قولهم:

النمط الأول: أداة الشرط (من) جملة فعل الشرط (مضارع) جملة جواب الشرط (مضارع). ومن ذلك قولهم:[٧٨]

- من يأتِ الحكم وحده يفلح [٧٩].
- من يبغ في الدين يصلف. [٨٠]
- من يجتمع تتقعقع عمده [٨١]
- من ير يوماً ير به[٨٢]
- من يسمع يخل [٨٣]
- من بطل ذيله يتعلق به [٨٤]
- من ينكح الحسناء يعط مهرها.[٨٥]
- من يبغِ في الدين يصلَف"[٨٦]

ونلحظ مما سبق كثرة مجيء أسلوب الشرط على هذه الشاكلة؛ أي أداة الشرط (مَن) وجملة فعل الشرط بصيغة (الفعل المضارع) وجملة جواب الشرط بصيغة (الفعل المضارع) كذلك، أما لماذا هذه الأداة دون غيرها فذلك لأنها هي الأداة الأكثر استخداماً في التركيب الشرطي للأمثال، وهي أداة شرط جازمة مرتبطة بالعاقل، ولا تستخدم مع غيره إلاّ بدلالة أسلوبية مقصودة، وهذا الارتباط بالإنسان يمنحها خصوصية التعبير عن التجربة الانسانيّة بصورة واضحة صريحة[٨٧]. وأما لماذا الفعل المضارع؛ فذلك لان هذا الفعل يعطي دلالة استمرار وقوع الحدث، والاستمرار في الحياة يعني استمرار للتجربة؛ فلاستمرارية التجربة اقتضى المثل حضور هذا الفعل دون غيره للتعبير عن ذلك بتناسق وإقناع مطلوبين.

النمط الثاني: أداة الشرط (مَن) ٰجملة فعل الشرط (ماض) ٰجملة جواب الشرط (مضارع منفي مجزوم)، ومن ذلك قولهم:

- مَن صانع بالمال لم يستح من طلب الحاجة [٨٨]
- مَن عالج بالشوق لم يستبعد الدار [٨٩]

ونلحظ هنا مجيء جملة فعل الشرط بصيغة الفعل الماضي وجملة جواب الشرط بصيغة الفعل المضارع المنفي بـ(لم) وهي بلا ريب أداة تنقل زمن المضارع الى الماضي مما يعني تناسق الأدوار في الدلالة على زمن الفعل، أما لماذا الماضي هنا فذلك لأن دلالة الأسلوب قد تعدت مستوى أن تكون محصورة بدلالة الألفاظ المباشرة الى مستوى الدلالات المجازية، وهي التحذير وتقديم المقابل، والبرهنة على أن هذا القول كلام محسوم القول فيه فلا مناقشة فيه، وليس مقبولا حتى التفكير برفضه، فالتجارب

الإنسانية خير شاهد على مضمونه وفحاوه، وهو عينه ما يفسر مجيء المثل وفق النمط المعكوس للنمط السابق:

النمط الثالث: أداة الشرط ٱجملة فعل الشرط (فعل مضارع منفيّ مجزوم) ٱجواب الشرط (فعل ماض). ومن ذلك قولهم:

- مَن لم يأس على ما فات ودّع نفسه [٩٠]

وهو عينه ما يفسر مجيء صيغة الماضي في فعل الشرط وجوابه في النمط الرابع الآتي: **النمط الرابع**: من ٱفعل الشرط (فعل ماض) ٱجواب الشرط (فعل ماض): وذلك قولهم:

- من ادّعى الباطلَ أنجح به [٩١]
- من استرعى الذئب ظلم [٩٢]
- من أشبه أباه فما ظلم [٩٣]
- من اشرى اشتوى [٩٤]
- من أكثر أُسقط [٩٥]
- من باع بعرضه أنفق [٩٦]
- من حب طب [٩٧]
- من حفر مغواة وقع فيها [٩٨]
- من حقر حرم [٩٩]
- من خاصم بالباطل أنجح به [١٠٠]
- من سره بنوه ساءته نفسه [١٠١]
- من سلك الجدد أمن العثار [١٠٢]

- من عجز عن الجواب ضحك من غير عجاب [١٠٣]
- من عز بز [١٠٤]
- من غاب غاب بطيبه [١٠٥]
- من قل ذل، ومن أمر فل [١٠٦]
- من قنع بما هو فيه قَرّت عينه [١٠٧]
- من لا حاك فقد عاداك [١٠٨]
- من سلك الجدد أمن العثار [١٠٩]
- من حفر مُغَوّاةً وقع فيها [١١٠]

وربما يأتي المثل العربي وفق النمط الآتي: **النمط الخامس:** أداة الشرط (مَـن) جملة الشرط (ماض) جملة جواب الشرط(ماض ناقص)، ومن ذلك قولهم:

- مَن فسدت بطانته كان كمن غصّ بالماء [١١١]

وعليه؛ فإذا كانت الأمثال العربية عموماً تميل الى التركيب الثنائي الذي يـرد في صورة **مقدمة ونتيجة** أو علة وسبب أو مـا أشـبه ذلـك، فـإن أسـلوب الشـرط يتـيح للامثال هذا القالب الثنائي بشـكل أميـز مـن غـيره، ذلـك أنـه يقـوم صـراحة علـى وحدتين: الأولى منهما جملة شرط والثانية جواب الشرط كما يترتب على هذا الخيـار الأسلوبي تصعيد للدلالة المرادة مـن خـلال الإيقـاع المترتـب علـى أسـلوب الشـرط وأبعاده الثنائية تلك.ويمكن أن يتكشف لنا هذا الأمر من الأمثلة الآتية وفق ما يقدمـه الإنشاء في جملة جواب الشرط من دلالة.

فمن خلال تتبعي لأمثال الجمهرة تبيّن لي ظهور أسلوب الشرط فيها في أربعة وثمانين مثلاً، استوعبتها أدوات الشرط الآتيـة: (مَـن، إن، إذا، لـو) إضـافة الى ورود أمثال محدودة مع أدوات أخرى مثل: (لولا، أينما، ما) مما لا يشـكل ظـاهرة أسـلوبية مكررة أو واضحة، كما وجدت كثرة مجيء الجملة الخبرية في جواب الشرط كمـا مـرّ سابقا من أمثلة في حين قلّت تلك الأمثلة التي استوعبت حضور الجملـة الإنشـائية في جواب الطلب كما سنتبين من الأمثلة اللاحقة وأن العدول عـن ذلـك هـو لضـرورة اقتضتها الدلالة، وقد توزعت الأمثال التي تصـدرتها أدوات الشـرط، وكـان جوابهـا جملة إنشائية، على النحو الآتي:

١. **أداة الشرط (مَن):**

ذكرنا سابقا ان (مَن) هي الأداة الأكثر استخداماً في التركيب الشرطي للأمثال، وهي أداة شرط جازمة مرتبطة بالعاقل، ولا تسـتخدم مـع غـيره إلاّ بدلالـة أسـلوبية مقصودة، وهذا الارتباط بالإنسان يمنحها خصوصـية التعـبير عـن التجربـة الانسـانيّة بصورة واضحة صريحة.وقد جاءت الأمثال العربية المتصدرة بــ(مَن) وفـق التراكيـب الآتية:

النمط الأول: أداة الشرط (من) ٰجملـة فعـل الشـرط (مـاض) ٰجملـة جـواب الشـرط (مضارع مقترن بلام الأمر). ومن ذلك قولهم:

- من حَفّنا أو رفّنا فلْيترك [١١٢]

وفي هذا المثل عُدل عن التركيب الأصـلي في جملـة جـواب الشـرط إلى صـيغة الأمر لا المضارع، ولهذا هدف مقصود مفـاده أن أسـلوب الشـرط خـرج عـن معنـاه المباشر الى التحذير، الأمر الذي يتطلب التعـبير عـن المعنـى بصـيغة تتضـمن الإلـزام

والاستعلاء فناسبها حضور صيغة فعل الأمر (فلْيترك) أي أن يكف عن الأمر على وجه السرعة، ولا يعود الى هذا الفعل مرة ثانية.

النمط الثاني: أداة الشرط ٱجملة فعل الشرط (فعل مضارع منفيّ) ٱجواب الشرط (أداة نهيٱمضارع مجزوم)، ومن ذلك قولهم:

- مَن لا يعلك فلا يهلك [١١٣]

وهنا جاءت جملة فعل الشرط بصيغة المضارع المنفي في حين جاءت جملة جواب الشرط بصيغة النهي وفي هذا عدول عن الأصل في أسلوب الشرط، من حيث إن جملة جواب الشرط قد جاءت بأسلوب إنشائي، وهو عدول مقصود مبتغاه الكف عن الإقدام على وجه الاستعلاء والإلزام مع خروجها إلى دلالة النصح والإرشاد فيما تقتصيه الوظيفة الاجتماعية لهذا المثل.

أداة الشرط (إن):

وهي حرف شرط جازم يجزم فعلين، فعل شرط وجزاؤه، وهي أم الباب (الجزاء) في أدوات الشرط[١١٤]. أما الأمثال التي تصدّرتها أداة الشرط (إن) فهي:

- إن شئت فارجع من فوق [١١٥]
- إن كنت بي تشد أزْرَك فأرْخِه [١١٦]
- إن وجدْت اليه فَا كَرِشٍ [١١٧]
- إن ضجّ فزده وقراً [١١٨]. ويضرب مثلاً للشدة على البخيل، ولإذلال الرجل والحمل عليه اذا دخله الاباء والعزة.

- ومثله قولهم: **إن أعيا فزده نوطا، وإنْ جرجر فزده ثقلا**، يقول: إذا بخل فألح عليه حتى تستخرج منه. والجرجرة: صوت البعير اذا ضجر، والنوط: كل ما علق على البعير وغيره، والجمع الانواط، ونطته نوطا اذا علقته وهو منوط ونوط اذا سمي بالمصدر".وجاء في لسان العرب قول الاصمعي:" ومن أمثالهم في الشدة على البخيل: ان فتح فزده وقرا، وإن أعيا فزده نوطا، وإن جرجر فزده ثقلا. [١١٩]

ومما يمكن تسجيله من ملحوظات على النمط السابق أن أسلوب الشرط قد تكون من أداة للشرط هي (إن)، وقد جاءت جملة فعل الشرط بصيغة الماضي:(شئت، كنت (فعل ماض ناقص)،وجدت، ضجّ، أعيا، جرجر) بينما جاءت جملة جواب الشرط بصيغة فعل الأمر: (ارجع، أرخه، أكرش، زده (مكررة)) مرتبطة برابط خفيف هو الفاء، وقد خرجت دلالات الجمل عن معناها الأصلي الى دلالات من مثل: المفارقة والتباين، السخرية والتهكم، التحدي والتنفير، كما جاءت جملة جواب الشرط مبنية على الأولى (جملة فعل الشرط) تابعة لها بيد أنها استطاعت السيطرة على التركيب، وقد طغت دلالاتها على البناء بأكمله، في فضاء يكشف عن رغبة في التحدي الضمني والتجاوز والتصعيد بين الأطراف المتداخلة في الصراع الإنساني وبما ينبيء عن تجربة إنسانية تعددت صور الحياة وأشكالها فيها بما يفرضه تناوب الضمائر الدالة على تلك الأطراف كحضور ضمير المتكلم في الأمثلة الثلاثة الأولى، وحضور ضمير الغائب في الأمثلة الباقية منها في جملة فعل الشرط وسيطرة ضمير المخاطب المستتر في جملة جواب الشرط.

٢. أداة الشرط (إذا):

وهي ظرف لما يستقبل من الزمان، يتضمّن معنى الشرط ولا يجزم، خافض لشرطه منصوب بجوابه، ولذا فإن (إذا) الظرفية تحتاج إلى جملتين، جملة الشرط التي تقع

بعد (إذا) مباشرة وتكون في محل جر مضاف إليه – وكثيرا ما يكون فعلها ماضيا،وأقل منه ان يكون مضارعا - وجملة جواب تكون (إذا) منصوبة به،ويقترن بالفاء إذا كان جملة اسمية أو طلبية أو كان جواب شرط فعلا جامدا أو منفيا أو مقترنا بسوف أو السين أو رب أو كأنما،وتقوم (إذا) مقام الفاء في جواب إن الشرطية [١٢٠] و" تستعمل (إذا) فيما هو محقق للوقوع، و تستعمل"إن" فيما هو مشكوك فيه [١٢١]. وقد جاءت الأمثال العربية المصدرة بـ(إذا) على النمطين الآتيين:

النمط الأول: (إذا) الداخلة على الماضي وجوابها أمر مقترن بالفاء، ومنه قولهم:

- إذا رأيت الريح عاصفة فتطامَن [١٢٢]
- إذا كنت كذوبا فكن ذكورا [١٢٣]
- إذا ارجحَنَّ شاصياً فارفع يدا [١٢٤]
- إذا عزّ اخوك فهُنْ [١٢٥]
- إذا نزا بك الشرّ فاقعد[١٢٦]؛ أي: لا تسارع الى الشر وإن أُحْوِجْتَ الى المسارعة إليه؛ يحثه على مجانبة الغضب، ولا أعرف في الحث على مجانبة الشر أجود من قول معاوية " إني لأكرم نفسي أن يكون ذنبٌ أعظم من حلمي؛ وما غضبي على من أملك، وما غضبي على من لا أملك ! معناه: إذا كنت مالكاً له فإني قادرٌ على الانتقام منه؛ فلم ألزم نفسي الغضب؟ وإن كنت لا أملكه فلا يضره غضبي؛ فلا أدخل الضرر على نفسي بغضب لا يضرّ عدوًا. وخاب أخو الشرِّ فلا تَكُنْهُ. وقيل: إياك والشرَّ، فإن الشَرّ للشرِّ خُلِق !! غابَ أخو الشَّرّ فلا تَكُنْه [١٢٧]

وجاء في اللسان: " أنه لنزيٌّ إلى الشرِّ ونزّاء؛ أي: سوّار إليه، والعرب تقول: إذا نزا بك الشر فاقعد؛ يضرب مثلاً للذي يحرص على أن لا يسأم الشر حتى يسأمه صاحبه، ويُقال: إنّ قلبه لينزو إلى كذا أي ينزع الى كذا.... "[١٢٨]

ومما يمكن تسجيله من ملحوظات على النمط السابق أيضا أن أسلوب الشرط قد تكون من أداة للشرط هي (إذا)، وقد جاءت جملة فعل الشرط بصيغة الماضي: (ارجحَنَّ، كنت (فعل ماض ناقص) رأيت، عزّ، نزا) بينما جاءت جملة جواب الشرط بصيغة فعل الأمر: (فارفع، فتطامَن، فكن، فهُنْ، فاقعد) مرتبطة برابط خفيف هو الفاء، وقد خرجت دلالات الجمل عن معناها الأصلي الى دلالة التنبيه مما هو قادم في المستقبل. في حين تزامنت دلالة التنبيه الى الزمن ذاته الذي يقع فيها فعل الكذب في قولهم: إذا كنت كذوبا فكن ذكورا، وإن دلّت أداة العطف الفاء على التعقيب مباشرة؛ ذلك أن أمر التنبيه هذا يجمع بينهما في الزمن،فإن كنت كذوبا فلا بدّ أن لا تتخلى عن أن تكون ذكوريا بمعنى رجلا.كما جاءت جملة جواب الشرط مبنية على الأولى (جملة فعل الشرط) تابعة لها بيد أنها استطاعت السيطرة على التركيب، وقد طغت دلالاتها على البناء بأكمله، في فضاء يكشف عن رغبة في النصح والإرشاد والتنبيه بين الأطراف المتداخلة في الصراع الإنساني، وإن كنت أنت من يمثل الطرفين معا، وبما ينبيء عن تجربة إنسانية تعددت صور الحياة وأشكالها فيها بما يفرضه تناوب الضمائر الدالة على تلك الأطراف كحضور ضمير المتكلم في المثالين الأولين، وحضور ضمير الغائب في الأمثلة الباقية منها في جملة فعل الشرط وسيطرة ضمير المخاطب المستتر في جملة جواب الشرط.

النمط الثاني: إذا الداخلة على المضارع المجزوم بـ(لم) وجوابها أمر مقترن بالفاء،ومنه قولهم:

- إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون [١٢٩]
- إذا لم تغلب فاخلب [١٣٠]

وقد نقلت أداة النفي الجازمة (لم) الفعل المضارع (يكن، وتغلب) الى الزمن الماضي؛ ذلك أنها تجعله خالصا للزمن الماضي المطلق في جميع الأزمنة[١٣١]، وقد خرجت دلالتها الى النصح والإرشاد بما تفرضه طبيعة المثل من إنعكاس لطبيعة التجربة الإنسانية من توجيه وإرشاد في صياغة الشرط الذي حضرت هي فيه، وفي هذا التركيب الكاشف عن برهنة لما لم يقع وقد ترتب عليه فعل ما يبتغى: (فأرد، فأخلب).

٣. أداة الشرط (لو):

وهي حرف امتناع لامتناع غير عامل، متضمن معنى الشرط؛ أي امتناع حصول جواب الشرط لامتناع حدوث فعله، نحو: لو أصغى لفهم، فامتنع الفهم لامتناع الإصغاء، وغالبا ما يليها الفعل الماضي لفظا ومعنى، وإن وليها الفعل المضارع يقلب معناه إلى الماضي.[١٣٢] ومن الأمثلة التي جاءت مصدرة بأداة (لو) وقد حضرت فيها جملة فعل الشرط بصيغة الماضي على الأصل قولهم:

- لو وجدت اليه فأكرش[١٣٣].

رابعا: مدار الاستفهام

الاستفهام في الاصطلاح: طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً للسائل من قبل بإحدى أدوات الاستفهام[١٣٤]؛ أي أن غايته "طلب الفهم بأداة مخصوصة"[١٣٥]، وسماه ابن يعيش (الاستخبار)[١٣٦]. وهو "تحويل تركيب إخباري إلى استفسار، باستعمال أدوات خاصّة وتنغيم خاصّ أو الاكتفاء بالتنغيم أحياناً"[١٣٧]، فالاستفهام الذي هو أسلوب إنشائي لابد أن يكون بأداة استفهام مذكورة أو محذوفة يدلّ عليها بقرائن منها التنغيم؛أي نغمة الأداء للعبارة.

والاستفهام "من أكثر التراكيب اللغوية الفنّية استدعاء للمثيرات عند المتلقي، فهو يمارس إثارة الدهشة الناجمة عن قطع رتابة التلقّي المستكين، ورضوخ المتلقي لخمول وطأة التراكيب الجاهزة، ويمارس فعل المفاجأة التي تنتهك جمود التوقّع لتنشأ جدليّة حيويّة حركية بين المبدع والمتلقّي عبر تركيب السؤال،ذلك الذي يجعل المتلقي فاعلا أصيلا في التجربة الإبداعية بما تتضمّنه من جدليّة لا تزول بين المبدع والمتلقي"[١٣٨]

وقد ورد الاستفهام في الأمثال بوصفه أحد الأساليب الإنشائية التي أتاحت إمكانية فضفاضة للتعبير عن معان ودلالات متنوعة خرجت عن المعنى الأصلي للاستفهام إلى معان بلاغية مجازية،فالاستفهام كما قال عيد بلبع: "يفتح عالما من الرؤى حين يصطدم المتلقي في موقف تتشعّب فيه الآثار بتشعّب المؤثّرات"[١٣٩]، ومما يثير في جملة الاستفهام أنها "تمنح متعة حواريّة صريحة أو ضمنيّة بين المتلقي والمتكلّم"[١٤٠]. ومما يتصل بالاستفهام في الأمثال أنه يكاد في مجموعه لا يرد في معنى الاستفهام الأصلي، ولعل هذا يتواءم في انزياحه البلاغي مع طبيعة المثل المتضمن استفهاما؛حيث لا ينتظر من المتلقي عند إيراده في موقف ما جوابا على هذا الاستفهام، وهذا ما يغني ذلك الموقف بالدلالات والإيحاءات.

وقد توزّعت الأمثال على أدوات الاستفهام وتنوّعت بتنوّعها في كتاب الجمهرة فجاءت على النحو الآتي:

أولا: حرف الاستفهام: الهمزة:

وهي أصل أدوات الاستفهام[١٤١]، وهي حرف مبني على الفتح، ترد للتصوّر وللسؤال عن المفرد، كما ترد للتصديق (السؤال عن النسبة) بخلاف أدوات الاستفهام

الأخرى التي تكون للتصوّر فقط، ما عدا (هل) التي للتصديق فقط، وقد تخرج همزة الاستفهام عن معنى الاستفهام الحقيقي (وهو طلب الفهم والسؤال عن مجهول) إلى معان بلاغية منها: التعجب والإنكار، والتقرير، والتهكّم والتوبيخ إذا كان ما بعدها واقعا وأنت تلوم فاعله[١٤٢]، ولها أحكام معلومة في كتب النحو[١٤٣]، وقد حضرت في الأمثال لمثل هذه الدلالات، حيث خرجت الى:

- الاستفهام المتضمن الدلالة التقريرية، وهو:"حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده"[١٤٤] بثبوته أو نفيه[١٤٥]. وقد تحدّث الجرجاني عن دلالة هذا النوع من الإنزياح التركيبي في الخطاب الاستفهامي، في أصل تفسيره الدلاليّ (طلب الفهم) مراعاة لمبدأ إيجاد التوافق بين المقام والمقال، ويمكن إجمال حديثه في وجوب تقديم ما يُشك فيه في التركيب الاستفهامي، فيقدم الفعل إذا أريد الاستفهام عنه، وكان الشك في الفعل نفسه، ويقدم الاسم إذا كان الشك فيه، والتردد فيه أيضا[١٤٦]؛ بمعنى أن تنظيم عناصر التركيب الاستفهامي يختلف باختلاف فصيلة المسؤول عنه[١٤٧]، وإن ذهب بعضهم الى أنّ الأصل في الاستفهام أن يدخل على الأفعال[١٤٨].ونضرب لهذا مثلا قولهم:

- **أمعنا أنت أم في الحيش**؟ أي أعلينا أنت أم لنا؟"[١٤٩].

- ومنه قولهم: **أعندي أنت أم في العِكْم؟** ويضرب مثلاً للرجل القليل الفهم، والعِكم: الحِمْل، والعَكم: شدّه. وإن يشي المثل بقليل من السخرية علاوة على التقرير، فالمطلوب الإجابة بالنفي أو الإثبات.

كما حضرت للدلالة على الاستفهام المتضمن الإنكار التوبيخي، وقد ذهب الجرجاني الى أن الغرض الأساسي من الإنكار يكمن في تنبيه السامع وأيقاضه ليرجع

الى الصواب ويرتدع عن فعله، إما لكونه ادّعى الدراية والمهارة في فعل ولم يحسنه، أو لضعة الفعل الذي همّ القيام به وفساده أو لإصراره على وجود أمر محال، فينبه الى ذلك كله منكرا عليه؛ لئلا يقدم عليه مرّة أخرى[١٥٠]. وهي دلالة تتفرع الى: الإنكارية التكذيبية أو الإبطالية الدالة على أن المستفهَم عنه أمر منكر عرفا وشرعا[١٥١]، والإنكارية التوبيخية أو التقريعية التي تقتضي أن المخاطب فعل فعلا يستلزم توبيخه عليه وتقريعه[١٥٢]. وقد أوما سيبويه والمبرد الى إفادة الاستفهام دلالة التنبيه والإعلام[١٥٣]. ومن ذلك قولهم:

- أمكرا وأنت في الحديد !

ويضرب للرجل يحتال وهو أسير ممنوع، والمثل لعبد الملك بن مروان قاله لعمرو بن سعيد الأشدق، وكان عمرو خلعه، وأراد الأمر لنفسه، فكتب إليه عبد الملك، رحمتي إياك تصرفني عن الغضب عليك؛ وذلك لتمكّن الخُدع منك وخذلان التوفيق لك، نهضت بأسبابٍ، ووهمتك نفسك أن تستفيد بها عزّاً، وأنت جدير الاّ تدفع بها ذلاّ، ومن رحل عنه سوء الظنّ، واستعبدته الأماني ملك الحَين تصريفه، واسترت عنه عواقب أموره، وعن قليل تبيّن مَن سلك سبيلك بمثل أسبابك، أنه صريع الطمع وأسير خدع، والرحم تعطف على الصفح عنك ما لم تحل بك عواقب جهلك، فانزجر قبل الإيقاع بك وان فعلت فإنّك في كنف وستر، والسلام.

فكتب اليه عمرو: استدراج النّعم إياك أفادك البغي، وراحة القدرة أورثتك الغفلة، ولو كان ضعف الأسباب يوئس من شريف الطّلاب ما انتقل سلطان، ولا ذلّ عزُّ انسان، وعن قليل تتبين من صريع بغي وأسير عدوان، والسلام، ثم حُمِل عمرو الى عبد الملك أسيراً، فقال له: طالما رحّلت ثفال الغيّ،- والثفال هو الجمل الذي لا

ينبعث إلا كرهاً-، وههجهجت بالبعير: زجره وروعه بقعود الباطل - أفظننت أنّ الحق لا يلحق باطلك، والسيف لا يقطع كاهلك! وأمَرَ بقتله، وكان مُكَبّلاً؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن رأيت الاّ تفضحني بأن تخرجني الى الناس فتقتلني بحضرتهم! وأراد عمرو أن يخالفه، فيخرجه فيمنعه أصحابه؛ ففطن عبد الملك لذلك، وقال: يا أبا أميّة، أمَكراً وأنت في الحديد ! ثم أمر: فقطعوه، فكان ذلك أول غدر في الإسلام.[١٥٤]

- ومنه قولهم: **أحشفاً وسوءَ كِيلَةٍ!**[١٥٥].ويضرب مثلاً لجمعك على الرجل ضربين من الخُسران و نوعين من النقصان، والكيلة: ضرب من الكيل؛ مثل: القِعدة والجِلسة، والحَشف: رديء التمر، يقول: تعطي الحشَف وتسيء الكيلَ: وقال بعض الشعراء:

ان كنت لا تلطفيني فاقبلي لطفي لا تجمعي لي سوء الكيل والحشف

والعامة تقول: حشفا وسوء كيل، والصواب كيله بالكسر لانهم انكروا من الكيل شيئا، ونصبوا (حشفا) بفعل مضمر يريدون أتجمع حشفا؟ وعطفوا سوء الكيلة عليه. وقولهم: اكَسْفاً وامساكاً، اصله ان يلقاك بعبوس مع بخل، والبشر الحسن احدى العطيتين، وقيل: البشر علم من أعلام النجح، وأول من مدح بالبشر عن السؤال زهير:

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله[١٥٦]

الحشف من التمر: مالم ينو، فاذا ييس صلب وفسد،فلا طعم له ولا لحاء ولا حلاوة.

- ومنه قولهم: **أكسفاً وإمساكاً !**[١٥٧]. رجل كاسف الوجه: عابسة من سوء الحال، يقال: عبس في وجهي وكسف كسوفا، وفي المثل: اكسفا وامساكا؟ أي أعبوسا مع بخل.

- ومنه: "**أغيره وجبنا**".وأصله أنَّ رجلا تخلف عن قتال وترك الحي يقاتلون، ثم رأى امراته تنظر الى القتال، فضربها، فقالت: أغيرة وجبنا؟ قدمت هذه المرأة الغيرة، وهي من احمد اخلاق الرجال[١٥٨]
- ومنه قولهم: **أتُعْلمُني بضبٍّ أنا حَرَشْتُه!** ويضرب مثلاً لمعرفة الشيء من وجوهه، وأصل الحرش: الأثر بالشيء، وهو ها هنا بمعنى الإثارة، وهو أن تثير الضب من جحره، فتستخرجه؛ والمثل المعروف: هو أجلُّ من الحرْش وأصله في رموزهم: أن الضبّ كان ينعث الحرْش لحسوله أي أولاده، والواحد: حِسْل، ويقول: اذا أحسستُنّ بالحَرش فا صبرْن ولا تخرجن من حجرتكن؛ فصيْدَ الضبّ ذات يوم فوضع رأسه على حجر، وشُدّخ بحجراً آخر، فقلن: أهذا الحرْش؟ فقال: هذا أجلّ من الحَرْش، هذا الموت"[١٥٩]

وقال أبو عبيدة: ومن أمثالهم في مخاطبة العالِم بالشيء من يريد تعلمه: أتُعلمني بضبّ أنا حرشته؟ ونحوٌ منه قولهم: كَمُعَلّمَةٍ أمّها البضاع، وقال ابن سيده: ومن أمثالهم: هذا أجلّ من الحرش وأصل ذلك أنّ العرب كانت تقول: قال الضبّ لابنه يا بني: احذر الحَرْش، فسمع يوماً وقْعَ مِحفار على فم الجحر، فقال: بأبه أهذا الحرش؟ فقال: يا بني هذا أجلّ من الحرش.....، وقيل: الحرش أن تهيج الضبّ في حجره، فإذا خرج قريباً منك هدمت عليه بقية الحجر، قال الجوهري: حرش الضبّ بحرشه حرشاً صاده فهو حارش الضباب.... والاحتراش: الخداع "[١٦٠]

بقي أن نقول إن للأمثال التي استخدمت فيها همزة الاستفهام حضورا؛ إذ بلغ مجموعها ما تقارب اثني عشر مثلاً.

ثانيا: اسم الاستفهام كيف:

وهي اسم يجري مجرى الظروف ويسأل به عن الحال؛[١٦١] كقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمَّة بشهيد) أي: فكيف حالهم إذا جئنا، وقد اختلف النحاة في ماهيتها: فقال فريق بظرفيتها، وقال آخرون: هي اسم، ورأى آخرون بحرفيتها، وقال سيبويه:إنها ليست حرفا لأن الحرف لا يفيد المعنى مع كلمة واحدة، وكيف تفيد معنى[١٦٢] ومن معانيها:-

أ. التوبيخ كقولهم: **كيف بغلام أعياني أبوه**[١٦٣]

ب. التحذير كقولهم:**كيف توقي ظهر ما أنت راكبه**[١٦٤]

ت. التعجب: كقولهم: **كيف وهي أمنع من عقاب الجو**[١٦٥]

- ومنه قولهم: **كيف ظنُّك بجاركَ؟ قال كظنّي بنفسي.**ويضرب لمن يظنّ بالناس مثل طريقته وفعله.

قال المجنون:

وتحسب ليلى أنني إذا هجرتها ... حِذارَ الأعادي إنّما بي هُونُها

ولكنَّ ليلى لا تفي بأمانةٍ ... فتحسب ليلى أنّني سأخونها

وبي من هواها ما لو انّي أبثّه ... جماعةَ أعدائي بكتْ لي عيونها

وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

ويأخذ عيبَ الناس من عيبِ نفسِهِ....

ونحوه قول الآخر:

وأجرأُ مَن قد رأيتُ بظهر غيبٍ على عيبِ الرجال ذوو العيوبِ [١٦٦]

أما **(متى)**[١٦٧]: فقد وردت مرة واحدة في المثل التالي: **وهو قولهم: متى عهدك بأسفل منك.**

الهوامش والتعليقات:

١ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (ت911هـ)،لسان العرب، دار صادر،بيروت،مادة(مثل)، الجوهري، اسماعيل بن حماد(ت٣٩٣هـ)،تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٨٤م، مادة (مثل)

٢ ابن منظور، لسان العرب، مادة (مثل).

٣ التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون،تقديم ومراجعة وإشراف رفيق العجمي،تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان،بيروت،١٩٩٦م،ج٢/ ١٤٤٩-١٤٥٠.

٤ الزمخشري، (ت٥٨٣هـ) المستقصى في الأمثال'ط١،اعتنى بتصحيحه محمد عبد الرحمن خانوحيدر آباد الدكن، الهند،١٩٦٢م، ج١/ ص:ب ج.

٥ ابراهيم بن السيار (ت٢٢١هـ)،في مقدمة مجمع الأمثال للميداني.

٦ ومما وصلنا من هذه الكتب: جمهرة الأمثال للعسكري(ت٣٩٥هـ)، الزمخشري،(ت٥٨٣هـ) المستقصى في الأمثال'ط١، اعتنى بتصحيحه محمد عبد الرحمن خانوحيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٦٢م، ج١/ ص:ب ج.فصل المقال في شرح كتاب الأمثال،أبو عبيدة البكري (ت٤٨٧هـ)، مجمع الأمثال، الميداني،مجمع الأمثال،مجمع الأمثال،مجمع الأمثال (ت٥١٨هـ)، المستقصى في الأمثال، الزمخشري (ت٥٣٨هـ)،تمثال الأمثال،العبدري (ت٨٣٧هـ)، وغيرها.

٧ أبرز الدراسات: رودلف زلهايم،الأمثال العربية القديمة مع اعتناء خاص بكتاب البكري١٩٥٤، عبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم مقارنتها بنظائرها السامية١٩٥٦،محمود عبد المالك عيد، رسالة ماجستير بعنوان:الأمثال في العصر الجاهلي، جامعة اليرموك، ١٩٨٣م، الظواهر النحوية واللغوية البارزة في المثل العربي،رسالة دكتوراة،جامعة القديس يوسف، ١٩٩٤م، سالم عبد الرب السلطي، الخصائص الأسلوبية للمثل، أطروحة ماجستير، جامعة عدن، ١٩٩٩، محمد جمال صقر، الأمثال العربية القديمة،دراسة نحوية، ٢٠٠٠م، لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال، ٢٠٠٣م.

٨ جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،١٩٨٨م.

٩ السدي، نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج١/ ١٦٨.

١٠داوود، أماني سليمان،الأمثال العربية القديمة،دراسة أسلوبيةص١٠٤.

١١ داوود، الأمثال العربية القديمة،١٠٥ - ١٠٧.

١٢ابن منظور، لسان العرب،مادة (أمر)

١٣سيبويه،الكتاب،ج١/ ١٣٨،الهاشمي،جواهر البلاغة،٧٨ – أحمد مطلوب،البلاغة العربية / ٨٩.

١٤ مطهري، صفية،الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، ١٧٧.

١٥ السامرائي، فاضل، معاني النحو،٤/ ٤٠٩.

١٦ إسماعيل،محمد طالب، دراسة في تراكيب نحوية في النص القرآني، ص٢٦.

معجم الجملة القرآنية، القسم الثاني، ص٢٧٨.

١٧ تضاربت آراء النحاة والبلاغيين قديما وحديثا حول الدلالة الزمنية لفعل الأمر ولا مجال لعرضها هنا إلا أن فعل الأمر (لا يخلو من الدلالة الزمنية لأنه فعل)،للمزيد انظر: سيبويه، الكتاب،١/ ١٣٨، (دلالة الأمر على المستقبل)، ابن السراج،الأصول في النحو،١/ ٤١، ابن يعيش، شرح المفصل، ٧/ ٤-٦، الاستراباذي، شرح الكافية،٢/ ٢٦٧(فعل الأمر مفرغ من الدلالة الزمنية فهي مطلقة)، للسكاكي، مفتاح العلوم ٥٤٥،المطلبي،الزمن واللغة،١٨،ا(دلالة فعل الأمر الزمنية الحاضر).

١٨ وردت جملة الأمر في كتاب العسكري في ثمانية وثلاثين مثلا.

١٩ الجمهرة١/ ٦٤، الميداني،مجمع الأمثال ١/ ٢٩٥

٢٠ الجمهرة١/ ٤١١،الميداني،مجمع الأمثال ١/ ٢١٧.

٢١ لسان العرب،مادة غبب.

٢٢العسكري، الجمهرة١/ ٣٩٨،١٣٠

٢٣العسكري، الجمهرة٢/ ٤٧

٢٤ العسكري، الجمهرة١/ ١٤١

٢٥العسكري، الجمهرة١/ ١٤١ الميداني،مجمع الأمثال، ١/ ١٩٩

٢٦ لسان العرب، (مادة مرخ)

٢٧ الجمهرة ١/ ١٤٩

٢٨ لسان العرب (مادة هون)

٢٩ الجمهرة ١/ ١٤٩الميداني،مجمع الأمثال ١/ ٧١

٣٠ الجمهرة ١/ ٧٥

٣١ الجمهرة ١/ ٧٥الميداني،مجمع الأمثال ١/ ٨٩

٣٢ لسان العرب، مادة عقي

٣٣ العسكري الجمهرة ١/ ٧٦،الميداني، مجمع الأمثال١/ ٩٠، لسان العرب (مادة درع)

٣٤ وعند سيبويه:أّن ما و الكاف جعلتا بمنزلة حرف واحد،وصيّرت للفعل كما صُيّرت للفعل ربّما؛ والمعنى: لعلّي آتيك "الكتاب٣/ ١١٦

٣٥العسكري،الجمهرة ١/ ١٤١، الميداني،مجمع الأمثال، / ٣٢،٩٢

٣٦ الجمهرة١/ ١٢٢

٣٧العسكري،الجمهرة١/ ١٢٢ الميداني،مجمع الأمثال، ١/ ١٤٢

٣٨ لسان العرب مادة (نشد)

٣٩العسكري، الجمهرة١/ ٦٦

٤٠العسكري، الجمهرة١/ ٦٦ الميداني،مجمع الأمثال، ١/ ٣١٣، مع أنّ العسكري قد ذكر بأن هذا القول حديث للرسول صلى الله عليه وسلم إلّا أنّني لم أجد- في حدود اطّلاعي- لهذا الحديث أصلا في كتب الحديث الشريف.

٤١العسكري،الجمهرة١/ ١٦٠

٤٢العسكري،الجمهرة١/ ١٧٩

٤٣ العسكري،الجمهرة٢/ ٢٦٤

٤٤العسكري،الجمهرة ١/ ٣٣٥

٤٥العسكري،الجمهرة ٢/ ٢٠٥

٤٦ ١العسكري،الجمهرة/ ٣٦٧

٤٧العسكري،الجمهرة١ / ٦٤

٤٨العسكري،الجمهرة١/ ١٤٨

٤٩العسكري،الجمهرة٢/ ٩٦

٥٠العسكري،الجمهرة١/ ٦٤

٥١العسكري،الجمهرة١/ ٢٤٦

٥٢العسكري،الجمهرة٢/ ٤٢

٥٣ عشّيت الإبل: اذا رعيتها بعد غروب الشمس. لسان العرب مادة (عشا)

٥٤ الجمهرة٢/ ٤٢الميداني ١/ ٣١١

٥٥العسكري،الجمهرة١/ ٨٣

٥٦العسكري،الجمهرة١/ ١٧٧

٥٧العسكري،الجمهرة٢/ ٣٩

٥٨العسكري،الجمهرة٢/ ١٢٢

٥٩ سيبويه، الكتاب ج١/ ١٣٨-ج٣/ ١٠٠،٩٧،٩٣، فاضل السامرائي، معاني النحو، ج٣/ ١٢، فضل حسن عباس٢٣، البلاغة فنونها وأفنانها،.

٦٠ دراسات في المعاني،عبد الفتاح عثمان،ص٨٥

٦١ الأمثال العربية القديمة، ١٣٤

٦٢ ورد أسلوب النهي في كتاب العسكري في ثلاثة وعشرين مثلا.

٦٣العسكري،الجمهرة٢/ ٣١٩

٦٤العسكري، الجمهرة٢/ ٣١٩، الميداني،مجمع الأمثال، / ١٢٤ لسان العرب مادة (برق)

٦٥ الجمهرة ٢/ ٣١٦

٦٦ الجمهرة ٢/ ٣١٦الميداني مجمع الأمثال ٢/ ١١٩

٦٧ قال الألباني" وبالجملة فإسناد الحديث صحيح ولكنه (مرسل) إلا أنّ بعضهم لم يسم مرسله، وسماه آخرون وبه يتبيّن أنه ثقة،وقد روي موصولا من حديث ابن عباس أبي الطفيل وأنس بن مالك وسويد بن عمرو،أخرجه وكيع في "الزهد(٢/ ٧٤/ ٢)،وابن حبّان في "الثقات" في ترجمة سويد بن عامر بن زيد بن جارية الأنصاري الذي يروي"المراسيل" ١/ ٧٥،والقضاعي في "مسند الشهاب" (ق٥٥/ ١)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق(١٦/ ١٣٢/ ٢)" السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة (ج٤/ ص٢٧٦)،وذكره الأصبهاني في معرفة الصحابة (ج١٠/ ص٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (ج٦/ ص٢٢٦). وهو حديث ضعيف.

٦٨ لسان العرب، مادة (ثرى)

٦٩العسكري،الجمهرة٢/ ٣١١،٥٠

٧٠العسكري،الجمهرة ١/ ٣٠٧

٧١العسكري،الجمهرة ١/ ٣٠٧ الميداني،مجمع الأمثال، ٢/ ١٢٠ لسان العرب مادة ضلع

٧٢حديث صحيح:رواه البخاري في الصحيح (ج١/ ص١٥) (عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلّم، إذ قالت عندما سمعت قول الرسول:"من حوسب عذّب":أوليس الله تعالى يقول(فسوف يحاسب حسابا يسيرا) قالت:فقال: إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك)،ورواه مسلم في الصحيح (ج٨/ ص١٦٤)، وورد في مسند أحمد بن حنبل (ج٦/ ص٢٠٦)،وفي سنن أبي داوود (ج٣/ ص١٥١)، وفي سنن الترمذي (ج٤ص٦١٧).

٧٣ لسان العرب مادة ضلع

٧٤العسكري،الجمهرة٢/ ٢٠٨

٧٥ سيبويه،الكتاب ج١/ ٢٧٩،٢٥٧،٢٥٣.

٧٦العسكري، الجمهرة ١\٢١-٢٢ الميداني،مجمع الأمثال، ١\١٢، وهو من الأحاديث الضعيفة، المتروكة؛ ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة (ج١/ ص٦٩) "فقال:"كذّبه الإمام أحمد والنسائي،وذكره القضاعي "في مسند الشهاب (ج٢/ ص٩٦)". سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة (ج١/ ص٦٩).

٧٧العسكري،الجمهرة ١\٢١-٢٢ الميداني،مجمع الأمثال، ١\١٢

٧٨ - العسكري الجمهرة ٢/ ٢١٠، العسكري الجمهرة ٢/ ٢٠٢، العسكري الجمهرة، ٢/ ٢١٩،١٣١، العسكري الجمهرة ٢/ ٢١٨، العسكري الجمهرة ٢/ ٢١٢، العسكري الجمهرة ٢/ ٢٠٥، العسكري الجمهرة ٢: ١٨٩.

٧٩العسكري،الجمهرة ٢/ ٢١٠

٨٠العسكري،الجمهرة ٢/ ٢٠٢

٨١العسكري،الجمهرة ٢/ ٢١٩،١٣١

٨٢العسكري،الجمهرة ٢/ ٢١٨

٨٣العسكري،الجمهرة ٢/ ٢١٢

٨٤العسكري،الجمهرة ٢/ ٢٠٥

٨٥ الجمهرة ٢/ ٢٠٢

٨٦ الجمهرة ٢/ ٢٠٢ الميداني مجمع الأمثال ٢/ ١٧٦

٨٧ معجم أدوات النحو،علي الحمد،ص122

٨٨العسكري،الجمهرة ١/ ١٩٢

٨٩العسكري،الجمهرة ١/ ٤٩٤

٩٠العسكري،الجمهرة ٢/ ٢٠٢ ١/ ٤٠١

٩١ من ادّعى الباطل أنجح به العسكري،لجمهرة ١/ ٣٠١

٩٢ من استرعى الذئب ظلم العسكري،لجمهرة ٢/ ٢١٤

٩٣ من أشبه أباه فما ظلم العسكري،لجمهرة ٢/ ١٩٩، ٢٦

٩٤ من اشرى اشتوى العسكري، لجمهرة ٢/ ٢٠٩

٩٥ من أكثر أُسقط العسكري، لجمهرة ١/ ٤٠١

٩٦ من باع بعرضه أنفق العسكري،لجمهرة ٢/ ٢٢٤

٩٧ من حب طب العسكري، لجمهرة ٢/ ١٨٨

٩٨ من حفر مغواة وقع فيها العسكري،لجمهرة ٢/ ٢٣٠

٩٩ من حقر حرم العسكري،لجمهرة ٢/ ٢٠٣

١٠٠ من خاصم بالباطل أنجح به العسكري،لجمهرة ٢/ ٢٢٢

١٠١ من سره بنوه ساءته نفسه العسكري،لجمهرة ٢/ ٢٠٠

١٠٢ من سلك الجدد أمن العثار العسكري،لجمهرة ٢/ ٢٠٨،٢٠٧

١٠٣ من عجز عن الجواب ضحك من غير عجاب العسكري،لجمهرة ١/ ٢٢

١٠٤ من عز بز العسكري،لجمهرة ٢/ ٢٢٩-٢٠٨، ٢٩

١٠٥ من غاب غاب بطيبه العسكري،لجمهرة ٢/ ٢١٧

١٠٦ من قل ذل، ومن أمر فل العسكري،لجمهرة ٢: ١٩٣

١٠٧ من قنع بما هو فيه قَرّت عينه العسكري،لجمهرة ١: ٤٠١

١٠٨ من لا حاك حقد عاداك العسكري،لجمهرة ٢/ ١٩١

١٠٩الجمهرة ٢/ ٢٠٨

١١٠ العسكري الجمهرة ٢/ ٢٣٠

١١١العسكري،الجمهرة ١ / ٤٩٤

١١٢العسكري،الجمهرة ٢/ ١٨٩

١١٣ العسكري،الجمهرة ١ /٤١٨

١١٤ سيبويه،الكتاب ج١/ ١٣٤معجم أدوات النحو،علي الحمد،٧٩.

١١٥العسكري،الجمهرة ١/ ١٤٣

١١٦ العسكري،الجمهرة ١/ ١٥٥

١١٧ العسكري،الجمهرة ١/ ١٢٥

١١٨ الجمهرة١/ ٩٥

١١٩ الجهرة١/ ٩٥ لسان العرب مادة(نوط)

١٢٠سيبويه،الكتاب ج٤/ ٢٣٢،ج٣/ ٦٠-٦١ معجم أدوات النحو،علي الحمد٣٥-٣٦.

١٢١ البلاغة فنونها وأفنانها،٣٥٢

١٢٢العسكري،الجمهرة١\١٣٨

١٢٣العسكري،الجمهرة ٢\٣٠٩

١٢٤العسكري،الجمهرة١\٥٦

١٢٥العسكري،الجمهرة ١\٥٧

١٢٦العسكري،الجمهرة ١/ ٥٦ الميداني،مجمع الأمثال، ١/ ٢٩

١٢٧العسكري،الجمهرة ١/ ٥٦ الميداني،مجمع الأمثال، ١/ ٢٩

١٢٨ لسان العرب مادة (نزا)

١٢٩العسكري،الجمهرة ١\٢٤٦

١٣٠العسكري،الجمهرة ١\٥٨

١٣١ المبرد،المقتضب،١/ ٤٦،الأنصاري، مغني اللبيب، ١/ ٢٧٧، الزمخشري، المفصّل، ٣٠٦، ابن يعيش، شرح المفصّل، ٨/ ١٠٩. عبد الحميد، ليث أسعد، الزمن النحوي في الشعر الجاهلي، ١٩٦.

١٣٢ سيبويه،الكتاب ٤/ ٢٢٤،معجم أدوات النحو' علي الحمد، ٢٨٨-٢٨٩.

١٣٣العسكري،الجمهرة ٢/ ١٧٦

١٣٤ سيبويه،الكتاب ج٣/ ١٧٥،الهاشمي،جواهر البلاغة٢٨٥،خليل عمايرة،أسلوبا النفي والاستفهام، ص٧،عبد الفتاح عثمان،دراسات في المعاني ص٨٩

١٣٥ انظر:عبد الفتاح عثمان،دراسات في المعاني والبديع،مكتبة الناشر،حلوان،١٩٨٢،ص٨٩.انظر كذلك:خليل احمد عمايرة،أسلوبا النفي والاستفهام في العربية في منهج وصفي في التحليل اللغوي،ص٧.

١٣٦ ابن يعيش،شرح المفصل ٨/ ١٥٠.

١٣٧ انظر: سمير شريف استيتية،الشرط والاستفهام في الأساليب العربية،٢٠٠٠،ص٩٨.

١٣٨ عيد بلبع،أسلوبيّة السؤال ص٧٦.

١٣٩ أسلوبية السؤال،٧٦

١٤٠ الأمثال العربية القديمة،٣٥

١٤١ سيبويه،الكتاب ج١/ ٢١٧،٩٩.

١٤٢ معجم أدوات النحو، علي الحمد١٦-١٧.

١٤٣ سيبويه، الكتاب ج١/ ١٠٠-١٠١،ومن هذه الأحكام: صدارتها في التركيب حتى قيل حروف العطف ودخولها على الشرط سيبويه، الكتاب ٣/ ٨٣،ودخولها على من الاستفهامية سيبويه، الكتاب ١/ ٩٩،وجواز حذفها،سيبويه ٣/ ١٧٤ ومابعدها.

١٤٤ - بدرالدين الزركشي(٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٢م، ج٢، ص٣٤٤.، التراكيب اللغوية، ص١٦.درويش الجندي، علم المعاني، ط٢، مكتبة نهضة مصر،١٩٦٢م، ص٥٣.

١٤٥ – معاني النحو، ص٦٠٨

١٤٦ انظر: دلائل الإعجاز، ص١١١.

١٤٧ – انظر: الثنائيات المتغايرة، ص١١٧.

١٤٨ مصطفى الدسوقي، حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٨٢م، ٢/ ٣٧.

١٤٩العسكري،الجمهرة ١/ ٧٣،لميداني ١/ ٣٢٣،اللسان: عكم المتاع: شدّه بثوب، والعكام: الحبل (عكم)

١٥٠ – دلائل الإعجاز، ص١١٩ وما بعدها.

١٥١ – عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص١١١. وشابسوغ، الجملة الخبرية والجملة الطلبية، ص٢١٥.

١٥٢ – معاني النحو، ج٤، ص٦٠٦.

١٥٣ – الكتاب، ج٣، ص١٧٥، ص٥١٤. المبرد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق، عضيمة عالم الكتب، (د.ت)، ج٢، ص٢٩٢.

١٥٤ الميداني، جمهرة الأمثال٢/ ١٧٦،العسكري،الجمهرة ١/ ٣٤، لسان العرب (مكر).

١٥٥العسكري الجمهرة ١\٨٥\٨٦، الميداني، مجمع الأمثال ١\١٣٩، ٢\٦٦.

١٥٧العسكري الجمهرة ١\٨٥\٨٦، الميداني، مجمع الأمثال ١\١٣٩، ٢\٦٦

١٥٨ لسان العرب مادة (حشف) و(كشف)

١٥٩ الجمهرة ١/ ٦٦الميداني ١/ ٣١٣

١٦٠لسان العرب، مادة: (حرش)

١٦١ سيبويه، الكتاب ج٤/ ٢٣٣ نهر،هادي، (التراكيب اللغوية، ص٢٥)

١٦٢ سيبويه٤/ ٢٣٣.

١٦٣ العسكري الجمهرة ٢/ ١٢٠

١٦٤ العسكري الجمهرة٢/ ١٣٠

١٦٥ العسكري الجمهرة١/ ١٩١

١٦٦ الجمهرة ٢/ ١٣٨الميداني ٢/ ١٦١.

١٦٧ قال سيبويه: متى: أيٌّ حين؟ الكتاب ج٤/ ٢٣٣.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (ت٦٨٦ هـ)، شرح الكافية في النحو، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م.

٢. الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، دار المعارف، الرياض، ١٩٩٦م.

٣. استيتية، سمير شريف، الشرط والاستفهام في الأساليب العربية. إربد، (د.ن) ٢٠٠٠ م.

٤. إسماعيل، محمد طالب، معجم الجملة القرآنية، القسم الثاني، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٩٦.

٥. الأنصاري، ابن هشام (٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك وآخرين، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٩م،

٦. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار الجيل، بيروت.

٧. بلبع، عيد، أسلوبيّة السؤال مركز الإنماء الحضاري، حلب: ٢٠٠٢م.

٨. التهانوي، محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون (تحقيق لطفي عبدالبديع)، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٦٣م.

٩. الجرجاني، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط٣، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ١٩٩٢م.

١٠. الجندي، درويش، علم المعاني، ط٢، مكتبة نهضة مصر،١٩٦٢م.

١١. الجوهري، اسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ)، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

١٢. الحمد و الزعبي (علي الحمد، يوسف جميل الزعبي)، المعجم الوافي في أدوات النحو، دار الأمل، إربد: ١٩٩٣م.

١٣. داوود، أماني، الأمثال العربية القديمة، دراسة أسلوبية لجميع المستويات اللغوية في الأمثال، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠٠م.

١٤. الدسوقي، مصطفى، حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٩٨٢م.

١٥. الزركشي، بدرالدين (٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٢م.

١٦. دزه بي، دلخوش جارالله، الثنائيات المتغايرة في كتاب الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ط١، دار دجله، الأردن، ٢٠٠٨م.

١٧. الزمخشري، أبو القاسم محمود (٥٣٨ هـ)، المفصّل في علم العربيّة، ط ٢، دار الجيل، بيروت.

١٨. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، (ت٥٨٣هـ) المستقصى في الأمثال، ط١، اعتنى بتصحيحه محمد عبد الرحمن خانوحيدر آباد الدكن، الهند،١٩٦٢م.

١٩. السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، بيت الحكمة، جامعة بغداد، ١٩٩٠

٢٠. السدي، نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، الدار العربية للكتاب، [د.م.]: ١٩٨٩.

٢١. شابسوغ، حفيظه، الجملة الخبرية والجملة الطلبية، تركيبا ودلالة، ط١، عالم الكتب الحديث، أربد، ٢٠٠٤م،

٢٢. ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل البغدادي (ت٣١٦هـ)، الأصول في النحو (تحقيق عبدالحسين الفتلي)، مطبعة سليمان الأعظمي، بغداد، ١٩٧٣م.

٢٣. السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، ت ٦٢٦هـ). مفتاح العلوم، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرسالة، بغداد، ١٩٨٢.

٢٤. سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان (١٨٠ هـ) الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون دار الجيل، بيروت.
٢٥. عباس، فضل حسن (٢٠٠٠م)، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، عمان، الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع.
٢٦. عبد الحميد، ليث أسعد، الزمن النحوي في الشعر الجاهلي، ط١، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ٢٠٠٦م.
٢٧. عتيق، عبد العزيز، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤م.
٢٨. عثمان، عبد الفتاح، دراسات في علم المعاني والبديع، مكتبة الشباب،المنيرة،١٩٨٣م.
٢٩. العسكري (ت٣٩٥هـ)، جمهرة الأمثال،الدار الكتب العلمية،بيروت-لبنان،١٩٨٨م.
٣٠. عمايرة، خليل، أسلوبا النفي والاستفهام في العربية في منهج وصفي في التحليل اللغوي، دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر (د. ن)، (د.م):] ١٩٨.
٣١. المبرد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق، عضيمة عالم الكتب، (د.ت).
٣٢. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم،دار إحياء الكتب،القاهرة.
٣٣. المطلبي، مالك، الزمن واللغة، الهيئة المصريّة للكتاب، ١٩٨٦م.
٣٤. مطلوب، أحمد، أساليب بلاغية عند العرب، وكالة المطبوعات، الكويت: ١٩٨٠م.
٣٥. مطهري، صفية، الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق،٢٠٠٣م.
٣٦. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، لسان العرب،ط٣، دار صادر،بيروت، ١٩٩٤م.
٣٧. الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) (ت٥١٨هـ)، تحقيق نعيم زرزور، مجمع الأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٨م.
٣٨. نهر، هادي (١٩٨٧م)، التراكيب اللغوية في العربية، دار اليازوري، عمّان، ٢٠٠٤م.

٣٩. الهاشمي، السيد أحمد، جواهر البلاغة، في المعاني والبيان والبـديع، ط٦، دار الكتـب العلميـة، بيروت، لبنان، (د.ت).

٤٠. ابن يعيش، موفق الدين يعيش ابن علي (ت٦٤٢هـ)، شرح المفصّـل، عـالم الكتـب، بـيروت، (د.ت).

Notes and Comments:

1 All references to Chaucer's text are taken from A. C. Cawley's edition of the *Canterbury Tales* (CT). The Chaucerian language, however, is kept to a minimum and often its modernized prose version in R. M. Lumiansky's translation (CTL) is quoted in the paper. For complete references, see works cited.

- www.people.fas.harvard.edu/~chaucer/canttales/hyst/livy-vir.html
- Lowes, John Livingston. Geoffrey Chaucer. Oxford: At the Clarendon P., 1934.
- Lumiansky, R. M. Chaucer's Canterbury Tales: A New Modern English Prose Trans-lation. New York: Washington Square P., 1971.
- Robertson, Jr., D. W. A Preface to Chaucer: Studies in Medieval Perspectives. New Jersey: Princeton UP, 1962.
- Schildgen, Brenda Deen. Pagans, Tartars, Moslems, and Jews in Chaucer's
- "Canterbury Tales." Gainesville: Florida University Press, 2001.
- Traversi, Derek. The Canterbuty Tales: A Reading. London: The Bodley Head, 1983.

- Cirlot, J. E. A Dictionary of Symbols. Tr. From Spanish by Jack Sage. New York:
- Philosophical Society, 1962.
- Cawley, A. C. "Introduction". Canterbury Tales. London: Dent, 1958, vii-xiv.
- Dinshaw, Carolyn. "New Approaches to Chaucer". The Cambridge Companion to
- Chaucer. Ed. Piero Boitani and Jill Mann. Cambridge UP, 2003.
- Donaldson, E. Talbot. "Chaucer the Pilgrim." PMLA. 69(1954), 928-36.
- Encyclopedia Britannica (1951). Vol. 8.
- Howard, Donald R. "Chaucer the Man." PMLA. 80(1965), 337-43.
- Ker, William Paton. "The Poetry of Chaucer." Geoffrey Chaucer: The Critical
- Heritage. Vol 2. Ed. D. S. Brewer. London & New York: Routledge, 1978, 233-259.
- Kiser, Lisa J. Truth and Textuality in Chaucer's Poetry. Hanover and London: UP of
- New England, 1991.
- Legouis, Emile. A History of English Literature. The Middle Ages and the Renascence (650-1660). Tr. From French by Helen Douglas Irvine. London: Dent, 1960.
- Leicester, Jr., H. Marshall. "The Art of Impersonation: A General Prologue to the Canterbury Tales." PMLA. 95(1980), 213-24.
- Livy. "History of Appius and Virginius": Latin Translation into Modern English, at

Works Cited

- A Complete Concordance to the Works of Geoffrey Chaucer, vol. 4. Ed. Akio
- Oizumi. New York: Olms-Weidmann, 1991.
- Ali, Syed Ameer. A Short History of the Saracens. London: Macmillan, 1955.
- Baraka, Amiri. "Somebody Blew Up America." http://www.counterpunch.org/2002/
- Bennett, H. S. "Chaucer and the Fifteenth Century," 1947. Oxford History of English
- Literature. Vol. 2, part 1. Oxford: Clarendon Press, 1970. rept.
- Block, Edward R. "Originality, Controlling Purpose, and Craftsmanship in Chaucer's
- Man of Law's Tale." PMLA, 68(1953), 572-616.
- 1Brewer, D. S. "Images of Chaucer 1386-1900." Chaucer and Chaucerians: Critical
- Studies in Middle English Literature, 1966. Ed. D. S. Brewer. London:
- Nelson's University Papers, 1970, 240-270.
- 2Brewer, D. S. Chaucer: Third Edition. London: Longman, 1973
- Burrow, J. A. "Old and Middle English (c. 700-1485)." The Oxford Illustrated
- History of English Literature. Ed. Pat Rogers. Oxford UP, 1987, 1-59.

image of the Sultaness, Soloman, and Theseus is respectively of a devil, a false prophet, and a respectable gentile. This uncontroversial fact and the privileging of Christianity remain absolutely clear and relevant in the Tales despite an unmitigated effort by the Western critical establishment to prop up the Chaucerian literary and aesthetic monument. The material evidence of text is enough to undermine such efforts. This conclusion simply purports to show that the cultural hero of the Self does not espouse the cause of the Other. And Chaucer's masterpiece fails to transcend group loyalties.

A Moot Point: Conclusion

The question as to who is responsible for the image of the Other in the Canterbury Tales, Chaucer himself or his imaginary pilgrim narrators may for some be a moot point. Any satisfactory answer will depend upon how much aesthetic distance is maintained by Chaucer as the producer of the Tales. Even though, the matter is brought up in every serious discussion of Chaucer's work there is no agreement about it among the Western critics (see, in particular, Donaldson, Howard, and Leicester, Jr. as they argue over it). Dinshaw states this uncertainty very clearly. "The structure of the Canterbury Tales has always muddied the issue of authorial responsibility and intention." After discussing various possible themes in "Man of Law's Tale", she concludes: "The issue of Chaucer's intention here will never be clear, given the multivocalic nature of the Tales" (285). Robertson, however, suggests that the aesthetic distance, even when determined, does not change the actual implication of medieval perspective because at that time the "attention of the poets and their audiences was directed to the world around them not for its own sake but for the sake of the ideas it suggested" (233). He further maintains that "Chaucer's characters are frequently reflections of a conceptual reality, and the actions of these characters are often more significant as developments in a conceptual realm" (272). It is, therefore, Chaucer who is presenting the Sultaness and the Jews as a veritable evil for they represented the inimical Other to the medieval Christendom. And his purpose, as shown in the discussion above, is to let his audience perceive the Syrians of "Man of Law's Tale" and the Jews of "Prioress' Tale" as such. As for Theseus, the Pagan, he stands for those putative (Christian) faithful of the past who had not yet seen the light.

No matter how narratological tidbit in the Canterbury Tales is understood, the fact remains that the temporal reality of the Other is either demonized or transformed into a Christianized conceptual identity. Whether it is Chaucer or his imaginary narrators, the

almost all action of the story revolves round the corrupt intentions and actions of the Roman judge Appius, who, in order to satisfy his lust, had started false proceedings to declare the beautiful Virginia a slave allegedly belonging to one of his men, Marcus Appius. Since the father of the girl, Virginius, a citizen soldier, was away on duty, she was taken into legal custody until the appearance of the father. The judge even tried to block the father's appearance. But people, who knew the family and the girl, actively opposed the steps taken by the judge. The situation, because of the evil intentions of the judge, became so complicated that Virginius couldn't do much; out of frustration, he requested Appius that he be allowed a few last moments with his daughter. He was permitted, and as he came near the girl he took out his dagger and killed the girl saying: "In this manner, my child, the only one in my power, do I secure your liberty." Then he turned to the judge and said: "With this blood, Appius, I devote thee to perdition" (Livy). In the account given by the Physician, the father and daughter have a long conversation in which the father explains what he intends to do and why. The girl's response is this: "Then give me father time to lament my death a little while. For Jeptha gave his daughter time to lament before he killed her." Then she consoles herself by saying: "God be thanked that I shall die a virgin" (LMC, 284-85). The question clearly arises: "was this pagan girl an avid reader of the Christian Bible that was not written when she was alive?" Or is it an obvious attempt to see the Pagans through Christian lenses? The latter clearly is the case because the former would be historically impossible; though, as we have seen in "Man of Law's Tale", Chaucer's narrator is not bothered by incorrect chronology of history. Anyhow, the original purpose of Livy's account was, in Kiser's words, "to document the political corruption of the Roman patriciate, represented by Appius in his capacity as a judge"; but the narrator in Chaucer's tale gives the matter a Christianizing twist making it look like a punishment of the innocent (133).

That same Prince and that Moevere,' quod he,

'Hath stablissed in this wrecched world adoun

Certeyn dayes and duracioun

To all that is engendred in this place,

Over the whiche day they may not pace,

Al mowe they yet the dayes wel abregge. (ll. 2987-96)

This is truly a beautiful description of God's purpose in creation and in starting human history. All who believe in a powerful First Cause (or say God, the Creator) would accept the central point of this speech by Theseus, the pagan: everyone has been allotted a particular time. However, it may be informative to raise a question about the coordinative use of the word "Prince" along with "Mover." Apparently, the two words refer to the same being; but, couldn't a medieval Christian identify the Prince with Christ? If so, who is the first Mover: God or Christ? This may seem an unusual interpretation of Chaucer's text; but it surely is not out of place when seen in the context of other Christianizing efforts already pointed out.

It may be asked, then, in what sense Chaucer accepts the Pagan other? The foregoing analysis of the "Knight's Tale" obviously points to one answer only: when the Pagan has been Christianized. And certainly, that in no way is an acceptance of the Pagans or an "openness to alterity" of other cultures, as maintained in Pagans, Tartars, Moslems, and Jews in Chaucer's "Canterbury Tales" by Schildgen (13). It is rather an imposition of Christian dispensation on the Pagan way of life. It certainly looks like back-dating of Christianity. Chaucer leaves this impression whenever any sympathetic or slightly objective treatment of non-Christian matere occurs in the Canterbury Tales. Take for, example, Virginius/Appius affair in The Physician's Tale that is taken from Livy's Roman history. In the original account given by Livy,

"hell" when he is freed and banished from Athens, being no more able to see his beloved (ll. 1225-26). Also when Theseus wants to put an end to Emily's prolonged weeping over Arcite's death, he quotes the words of his father Egeus, which apparently represent Classical wisdom but the whole idea of joy changing into sorrow and human mortality is just as much Christian as any other. And his comparing of this life to a journey full of sorrow is specifically Christian. "This world nys but a thurghfare ful of wo, / And we been pilgrymes, passynge to and fro" (ll. 2847-48). Despite its attribution to a classical character, this undoubtedly is a Christian perception of life. Actually, Chaucer has ingenious ways of injecting Christian notions into pagan materials. For instance, when he presents Emily praying to Venus (ll. 2297ff.), the idea of Christian virginity and chastity gets mixed up with the love duel between Arcite and Palamon. Or take for example his descriptions of paintings on the walls of the temple of Mars. There all the future deaths or murders or other accidents are present, even those (for instance, death of Caesar, Nero, and Antony—ll.2030ff.) the original writer of the Knight's tale could never have known. This indeed is a motivated interpolation, for it highlights the Christian idea of predetermination or fore-ordination. Finally, the concept of the First Mover as illustrated in the last speech of Theseus is actually a medieval understanding of the created world. His words quoted below may as well form part of a Christian priest's sermon:

'The First Moevere of the cause above,

Whan he first made the faire cheyne of love,

Greet was th' effect, and heigh was the entente.

Well wiste he why, and what therof he mente;

For witht faire cheyne of love and bond

The fyr, the eyr, the water, and the lond

In certeyn boundes, that they may nat flee.

The Pagans

In the "Knight's Tale," Chaucer gives an impression of accepting the pagan Other; but even there, he does so by peeping through the Christian dispensation. The idea that human soul is wandering in the wilderness of this world and that it answers to or obeys an overarching will of a beyond, whether identified as Greek mythical gods or as Christian Trinity, under girds the structure of the Knight's Tale. Outwardly, the life of Palamon, Arcite, Emily, and others is shaped by Venus, Mars, Diana, and above them by Jupiter or Saturn; but the tale contains enough material that makes the efforts of Theseus not just parallel to but an image of Sacramental living. To begin with, the conquest over Amazons by Theseus and his marriage to their queen Hyppolyta suggests not only a reaffirmation of man's superiority over woman but also a restoration of the Christian social order of monogamous relationship between the sexes that had been violated by these mythical woman warriors. The quarrel between Palamon and Arcite over Emily may also be understood as a dramatic explanation of the same idea. Since polyandry is forbidden their struggle to win her is brought in line with the requirements of monogamy. Arcite who wins the battle is made to die of a fatal fall from his horse, and thus Palamon's chances to fulfil his love are made possible. The final part of the story sounds almost like a solemnization of marriage sacrament between Palamon and Emily. In the "Knight's Tale", according to Robertson, "Chaucer sets the marriage theme in humanistic terms…, suggesting the proper function of marriage as an ordering principle in the individual and in the society, and develops its manifold implications in the subsequent tales" (376-77). Clearly, the pagan marriage rituals in this Tale are transformed into Christian practices.

Moreover, the tale has several Christian terms or notions. Arcite feels himself in "purgatory" while he is in jail and can see Emily daily as she walks in the garden; but he considers himself in

Nature in Constance, a Christian woman, and its terrible aspect in women representing the Other. If the artistic beauty of the tale and the hagiographic image of Constance are enhanced by changes made by Chaucer, they are certainly achieved at the expense of even a barely human image of the Other.

In his effort to show how Christianity compares with Islam, the Man of Law even ignores a very crucial historical fact. He presents Syria as a Muslim country at a time when Prophet Muhammad had not received his call. According to history, King Aella or Ella started his rule in 560 and he died in 588 (Enc. Brit.[1951] V. 8, 376). The prophet of Islam lived from 570 to 632 and had received his call in about 610, when he was 40 years old (Ali 7-19), and when Aella had been dead for about 22 years. Clearly, the Man of Law or Chaucer himself manipulates in his story the temporal chronology to present the commonly held view of Muslims all along the medieval Christendom, particularly their image notoriously advertised during the Crusades by the Church establishment. All tempering with historical facts and changes in the text introduced by Chaucer have only one dominant purpose: demonizing the Islamic Other and privileging the Christian outlook. But Chaucer's whimsical back-dating of Islamic law does not deter Western scholars when it comes to protecting Chaucer's image. For example, in her discussion of "Man of Law's Tale," Dinshaw asserts that Chaucer's sense of history "includes a more accurate chronology" (284). One wonders how credible this idea can be in face of the fact that Chaucer makes Syria a Muslim country even when the Islamic dispensation had not started in Arabia itself. Chaucer does so because his society readily regarded Muslims as its enemy. Likewise, Amiri Baraka blames the Zionists for 9/11 because in his circle the idea has convincing legitimacy. Needless to say that the judgment of both is based more on whimsy than on objective understanding of the respective situation. But every thing goes when the object of the Self is to demonize its Other.

of the Other is also considerably intensified. The two mothers-in-law, one Muslim and the other Pagan, begin to look like two horribly hellish figures as compared to Constance's saintly motherhood. Actually, the Terrible Mother as opposed to the loving Compassionate Mother is a particularly intriguing idea in the "Man of Law's Tale." The Sultaness from the Muslim Other and Donegild from the pagan side are portrayed in the story as not only the source of every trouble Constance has to bear but also as the cause of a tragic fate for their own sons. The Sultaness kills her son, and Donegild contrives to separate her son from his wife and child. Now, compare these unmotherly and murderous actions to Constance's care for her son. After she is made to leave Aella's kingdom, she holds her weeping baby in her arms, kneels, addresses the Holy Virgin as "Mother," and says:

[I]t is true that through the instigation of a woman mankind was lost and

doomed to die, for which thy Child was torn on the cross. Thy blessed

eyes viewed all His torment; there is therefore no comparison between thy

woe and any woe suffered on earth. Thou sawest thy Child killed before

thine eyes, yet now my little child still lives. Now, bright Lady, … glory

of womankind, fair Virgin, haven of refuge, bright star of day, take pity

on my child…" (CTL 104-105).

On the authority of Jung, Cirlot states that the mythical Terrible Mother "is the counterpart of the Pieta" (207). Man of Law's Tale clearly enshrines the compassionate aspect of Mother

King of Heaven with his fresh wounds… protect me and give me the

power to amend my life (CTL 97).

Like a long winded priest, the Man of Law dwells at length on divine protection for virtuous Christians. He begins with the question: "One might ask why she was not also slain at the feast. Who saved her? And I answer that question with another: Who saved Daniel in that terrible den…?" Then he elaborates thus: "God wished to exhibit His miraculous power through Constance so that we could observe His mighty deed. Christ, who is the balm for every hurt, often does things through various means for a certain end not clear to mankind because in our ignorance we cannot perceive His wise providence…."(CTL 97—98) No one can or should quarrel with God's providence; but would a non-Christian accept God/Christ equation? Anyway, the Man of Law then asks another question: "Who saved [Constance] from drowning in the sea?" His answer brings in the details of "Jonah in the whale's body" and the Hebrews crossing the Red Sea (CTL 97-98). All the while he is extolling Christ/God's providence and denies the Sultaness any semblance of human feelings.

In his comparison between Constance's life as given in the "Man of Law's Tale" and as it exists in Trivet's Anglo-Norman Chronicles, Edward A. Block has shown that all apostrophes and prayers by Constance to God, Christ, Virgin Mary, and the Cross are Chaucer's additions. He concludes that by virtue of these additions, on the one hand, Constance's character has become more "religious and pious" than it is in Trivet, and on the other, the tale has changed into "a magnificently rhetorical poem, characterized to a high degree by consciously contrived artistry" (586). It must be noted, however, that Block, being one of the "scandalously" objective scholars, ignores the fact that, corresponding to the increase in Constance's hagiographical status, the adverse portrait

The Man of Law actually leaves his narrative and editorially expresses the Biblical characterization of woman of which the Sultaness is an example; it is ironic, though, to note that no matter how virtuous Constance is she too is a woman. But in the opinion of the Man of Law, Constance represents all that virtue which is Christian and the Sultaness embodies all that evil which is Islamic and demonic.

In his effort to apotheosize Constance, the Man of Law throws overboard the laws of probability as well. This he does whether Constance faces the Muslims, seas or Pagans. To begin with, she comes to Syria as the wife of a Sultan who as a rule would have efficient system of governance supported by a network of spies. Is it possible then to believe that such a Sultan would not get a wind of his mother's schemes? Furthermore, if the Sultaness is a veritable evil, how come she spares the life of Constance and puts her in a boat, though rudderless, with abundant supplies? The Man of Law is not bothered by these inconsistencies, for a logically constructed narrative would not serve his real purpose, which is to show how Constance, a virtuous Christian woman, is protected by Christ. He intentionally makes the boat rudderless so that he may assert the helpful agency of Christ, and put these words in her mouth when she is in the rudderless boat:

Oh, clear beneficent altar, holy cross, red with the piteous blood of

the Lamb which washed ancient evil from the world, protect me from

the devil and his claws on the day I drown in the sea. Victorious tree,

protection of the faithful, the only tree which was worthy to bear the

lot more than merely inventing a fictional narrative. He is showing how infirm the Sultan is in his commitment to his faith as compared to the steadiness of the Christians. By showing the readiness of the Sultan's courtiers to change their faith, he is suggesting a general state of affairs. A clear inference from this fabulous situation is that Muslims can play fast and loose with their faith if it suits their worldly interests while Christians remain steadfast in their faith. Of course, the narrator describes an exception in the person of the Sultaness, the mother of the Sultan; and here is when he uses all his editorial power to malign everything Islamic. Since this woman wants to resist her son's change of faith for the sake of marrying a Christian princess and since she makes a murderous plot, every possible negative epithet is showered on her by the Man of Law. After calling her a "well of vices," he says:

"Oh, Sultaness, root of all evil Virago, second Semiramis! Oh,

serpent in female guise, just like the serpent bound deep in hell!

Oh, deceitful woman, nest of every vice; here is everything within

which your malice can breed against virtue and innocence! Oh,

Satan, envious since the day you failed to conquer mankind, you know

the most effective approach to women! You caused Eve to lead us into

bondage, and you will doom this Christian marriage. Alas, in this way

you make women your agents when you wish to cause trouble" (CTL 95).

Tale" explores the moral alternative offered by Islam or whether it sets up the Islamic Other as an irreconcilable enemy will become clear in the discussion below. Here it is important to sketch the total and final lesson that the Western criticism adduces from Chaucer's work. Partly, it was hinted at in the opening paragraphs of this paper. Schildgen's book presents quite a direct picture. In addition to suggesting an openness toward the Other, Schildgen asserts that 'no matter how invested the characters might be in their positions and attitudes, the collection taken as a whole does not advance a consensus bound to a single dominant worldview' (3). This amounts to saying that in the Canterbury Tales, there is notable tolerance for the Other and further that there is no privileging of Christianity over the faith and culture of the Other.

I believe that this perception of Chaucer's work, if not scandalous, is certainly highly misleading because his text, when read objectively, does not support it. In my view, just as the Prioress demonizes the Jews and sanctifies the Christians in her story, so does the Man of Law portray the Muslims as being wickedly intolerant and totally devoid of human sympathy. This is apparent in both the editorial comments and the descriptive details in the Man of Law's tale. Actually the narrator of this story manipulates the events to privilege everything Christian. First, the fame of the virtuous beauty of Constance, the daughter of the emperor of Rome, is shown to have conquered the heart of a Muslim Sultan even though he has never seen but only heard about her from some merchants. When the Sultan wants to have Constance in marriage, the Man of Law puts these words into the mouths of the Sultan's counselors: "No Christian prince would be eager to have his daughter marry according to our excellent laws laid down for us by Mohammad, our prophet." Immediately, the Sultan expresses his desire to become Christian (CTL 92). In addition to sarcasm in the phrase "our excellent laws," that would be enjoyed by Chaucer's audience, the Man of Law here is doing a

practices of Moslems, Jews, and pagans. As a group, the tales deliberate

on the grand rifts between the Christian or pagan past and Chaucer's present

and between other cultural worlds and the Latin Christian world. They offer

many philosophical views about what constitutes "wisdom" and "lawe,"

while exploring alternative moral attitudes to the Christian mainstream of

Chaucer's time. Their presence in the Canterbury Tales shows Chaucer's

expansive narrative interest in the intellectual and cultural worlds outside

Christianity. Their inclusion emphasizes the enlarged scope of secular

cultural interests in late fourteenth-century England, as the representative

story tellers reveal (2; emphasis added).

By the time Schildgen winds up her discussion, she changes her mind about Chaucer's "interests in late fourteenth-century England." She concludes: 'Apart from the prologue, Chaucer's stories do not construct an idea of "Englishness" or of "England." In fact, she asserts that "Chaucer retreats from any contemporary cultural or political hegemonies. …[For his] story telling frame permits…"neutrality of worldviews" ' (125)

How much neutrality of worldview there is in the Prioress' tale, the readers can judge for themselves from my analysis of the tale given earlier in this paper. Now, whether the "Man of Law's

In his commentary, Brewer states: "The Man of Law's Tale says that mothers-in-law are difficult for daughters-in-law; and that strong opinions, especially, religious belief, are divisive in families" (1Brewer 176). The scorpion Sultaness of Syria and the devilish mother of King Aella vanish into difficult mothers-in-law and the Christian-Muslim animosity so graphically presented in the first part of the story merges into divisive social opinions, and the readers are expected, rather urged, to keep eulogizing the Chaucerian poetic achievement in objectivity.

Such attempts to critically whitewash and to universalize Chaucer, I believe, reach its zenith in Brenda Deen Schildgen's recent book, Pagans, Tartars, Moslems, and Jews in Chaucer's " Canterbury Tales" and, therefore, I am going to quote a bit extensively from her text, so that the readers may judge for themselves the thrust of her argument. In the book, Schildgen mainly focuses on stories told by the Knight, Squire, Man of Law, Franklyn, Wife of Bath, Prioress, Monk, and 2nd Nun; but, in her discussion, she includes the total ambience of the whole of the Canterbury Tales. After dismissing the 20th century's effort to see "Christian ethos" in Chaucer, she says:

These tales use the narrative resources of the matters of Thebes, Britain,

and Araby, Christian antiquity, ancient histories, and the miracles of the

Virgin. Exploring alterity, they examine philosophies like stoicism and

Epicureanism and other pagan beliefs including fairy lore. They also pit

Christian teleological ethics and history against the imagined beliefs and

Chaucer comes to his own. But no great poet has retained in so

large a part of his extant work the common 'form and pressure'

of his own time and the generation immediately before his own (246).

In fact, continues Ker, Chaucer retained in his work the bulk of "common place matter" of his time (246). He believes that the story of Constance has "nobility of temper" (256). In other words, Chaucer's work may contain some of the medieval Christian biases against the Other, but they, Ker maintains, must be looked at as form and pressure of his time and must thus be considered irrelevant to the picture of humanity Chaucer has presented. This, quite clearly, is only a clever apology for Chaucer's prejudice against the Other. Even when the Man of Law's Tale is analyzed at some length, the unpleasant details are papered over to suggest that Chaucer must have been dealing with general human situations. After calling the "matter" of the story "a pious tale of folk-lore origin," D. S. Brewer gives this summary of its plot:

It tells of Constance, daughter of the Christian Emperor of Rome,

who is twice married to a pagan king, twice converts her husband,

is twice betrayed by her irreconcilably pagan mother-in-law, and

twice committed to the sea in a boat without oars or sail. In each

case she is afloat for several years. Her first husband is killed by his

mother but she is eventually restored to the second. (124).

Chaucer's century, the attitude of the West to Islam had taken its full shape. As one can gather from Norman Daniel's book Islam and the West: The Making of an Image, the Muslims were regarded as the followers of a false prophet, "the sower of discord," as Dante has put it in his Comedy, the defilers of holy places in the Holy Land, and lecherous polygamists (17-35). All this, according to Daniel, was the result of a deliberate campaign to malign the Islamic Other. "The basic tenets of Islam," as he notes, "were well understood by a considerable number of writers and in one way or another deliberately misrepresented by most" (35, emphasis added). Chaucer's "Man of Law's Tale" provides a typical example of such misrepresentations.

Before I take up an analysis of the "Man of Law's Tale," it seems to me necessary to present the usually accepted and endorsed view in the Western scholarship about this and other tales that contain multicultural materials. To portray Chaucer as an unbiased and objective observer of humanity is the ultimate aim of this scholarship. Literally, every textual detail that may undermine this image of Chaucer is buried under a generalized perception of the poet. Any one interested to review Chaucerian scholarship from the post-colonial point of view will find a concerted effort on the part of the Western critics either to brush off unsavory details or to mitigate their importance to Chaucer's aims. Commentaries on this tale that I have been able to look at fit Edward Said's characterization 'scandals of "scholarship" ' –a scholarship which purports to be objective, but in reality amounts to propaganda (316).

William Paton Ker, for example, characterizes the prejudices of the medieval Christianity found in Chaucer's work as follows:

"The rich chaotic and formless life, the ooze and wrack of the

medieval depths, are indeed left behind and cleared away when

This discussion—rather, interpolated material—accomplishes two aims. First, it praises the married life lived as a Christian sacrament, a sort of adoration of "women who dwell in Christ's house." Second, it not only denigrates Solomon's view of women but also his service to the divine temple. In fact, it asserts that his religion was false. And since his temple—his faith—is overtly contrasted with the Church, i.e. "Christ's house", the discussion clearly elevates the Christian worldview while dismissing the view of the Other. The story in which this interpolation occurs is undoubtedly about a laughable human situation. A foolish old man marrying a young woman, who satisfies her sexual appetite illicitly, has been a constant source of amusement; but Chaucer exploits this situation to privilege the Christian life over the practice or experience of the Other.

It would be wrong to ignore the amusement value of Chaucer's book; but, as I am trying to show in this study, it would be equally wrong not to see privileging of Christianity as a strong thematic undercurrent in the Canterbury Tales. Of course, the issue of determining the point of view is crucial and it will be undertaken in another part of this study. It is pertinent, however, to examine here the portrayal of another group that is present as the Other in Chaucer's masterpiece.

The Muslims

Next to the Jews, the Muslims were another target of the ire of the medieval Christendom. For centuries their book, "Alkaron" and their prophet, "Mahoun," as Chaucer spells Al-Qura'an and Muhammad (peace be upon him), were constantly distorted by both wise and half-witted priests to win the sympathies of their faithful congregations in favor of the Trinitarian Godhead. (The OED, v.6, p. M38 lists more than a dozen distortions of the name of Islam's prophet). This ire was not limited to the pulpit; it was also expressed on the battlefields in the name of the Holy Crusades. By

"What do I care for your authorities? I know very well that this Jew,

this Solomon, found many of us women fools. But though he found

no good woman, yet many another man has found faithful, good, and

virtuous women. Witness those women who dwell in Christ's house;

they proved their constancy with martyrdom. The Roman histories

also mention many a true, faithful wife. But, sir—don't be angry—although

he said he found no good woman, I beg you to interpret his meaning

broadly; he meant that no one is sovereignly excellent except God,

who sits in Trinity. And, by the one true God, why do you make so

much of Solomon? What though he built a temple, God's house?

What though he was rich and glorious? He also built a temple to

false gods. How could he do anything more forbidden? By God,

whitewash his name as you will, he was a lecher and an idolater, and

in his old age he forsook the true God (CTL 243-244).

occurrences of words like "Jesu," "Jhesu," "Jesus," "Jhesus," "Sone," and "God" is added to these numbers, the total comes out to be one thousand and forty-one (Concordance, 2716-2849). On the average, that is roughly twice per page of Chaucer's tales. And it goes without saying that each mention of these words brings home to the reader the entity responsible for what happened to the redeemer. So, along with the intensification of Christian notions of godhead, the condemnation of the Other is also achieved. To be sure, many of these occurrences can be attributed to the general unconscious habit of Chaucer's Christian pilgrims; but this very fact further provides a proof of vilification of one community by the other. The accusation, the hatred, has sunk unto the unconscious, and has become part of the Christian faith. Occasionally in the tales, the presumed guilt of the Other is used as an illustration of the moral degradation of the Christians themselves. Take, for example, the way Chaucer's Pardoner describes the moral condition of three Christian youngsters of Flaunders:

Hir othes been so grete and so dampnable

That it is grisly for to heere hem swere.

Oure blissed Lordes body they totere,--

Hem thought that Jewes rente hym noght ynough. (CT, 348).

Roughly translated, it means that by swearing these profligates tore apart the body of our blessed Lord, as if the Jews had not done a good job. Here the demonization of the Other appears stronger than the denunciation of the Christian ruffians.

Again, take for illustration, the discussion between Proserpina and Pluto that takes place over the behavior of May, the wife of January, in the Merchant's Tale. Pluto tends to believe that all women are deplorably unfaithful and he refers to Solomon as an authority. To which Proserpina replies:

removes the kernel and the singing stops. Then the boy is given a Christian burial.

Even this bare outline of the story is enough to prove that the Other, in this case the Jews, do not deserve either honorable mention or respectable association with decent (i.e. Christian) humanity. There are, however, several other details in the story which heap up dirt on the Jews. To begin with, the Jewry's stereotypical role in financial matters is pointed out; for it was established by the lord of that Asian city for "foul usure and lucre of vileynye/ Hateful to Crist and to his compaignye" (CT 375). This role of the Jews to facilitate financial matters in the Western Christendom is matched with the Christian preference for holy poverty. Also the group loyalty of the Jews is shown by their clustering together in a ghetto through which the Christian children have to pass to attend their school. Furthermore, the Jews are portrayed as criminally inclined and good at covering up ill deeds. The dead boy's mother keeps asking them if they saw or knew anything about her son and the "cursed" Jews do not tell her even though they were the ones to hire the boy's murderer. At this point the narrator herself passes a direct judgment on the Jews. She says: "Oh, cursed people of Herod, born again, how can your evil intention help you? Murder will out—it never fails, especially where God's glory shall thereby spread." The narrator closes her tale by invoking Hugh of Lincoln, "also slain by cursed Jews" (CTL 127). Finally, she glorifies the murdering of the Jews for, as she puts it, the ruler of the city would not tolerate such evil doing. Thus, murdering of the Jews is not only exonerated but sanctified.

In addition to this very direct accusation, the ultimate historic guilt of the Jews is almost invariably kept in view in the body of the Canterbury Tales. The redeemer who died on the cross is invoked far too often in the book. The words Christ or Crist occurs two hundred and ten times; the words "tree of cross" twenty-five times; the word "Christes" fifty-two times; and when the number of

daylight; but it is submerged by Western critical establishment under the aesthetic colors of Chaucer's art.

The Jews

Take for example the Prioress' Tale in which all the details are contrived to praise Christian ideas of chastity, innocence, and the miraculous grace of the Virgin Mary and to condemn the Jewish life in all its manifestations. In the story a humble Christian woman's son is shown to be so enamored of the song of Alma Redemptoris that he sings it loudly on his way to and back from school. And the way happens to be a street inhabited by the Jews, whose animosity to Christians is captured by the narrator of the story as follows:

Oure firste foo, the serpent Sathanas,

That hath in Jues herte his waspes nest,

Up swal, and seide, 'O Hebrayk peple, allas!'

Is this to yow a thyng that is honest,

That swich a boy shal walken as hym lest

In youre despit, and synge of swich sentence,

Which is against youre lawes reverence? (Chaucer 377-78)1

Abetted by Satan thus, a "cursed Jew" catches the boy, cuts his throat, and throws his body in a stinking pit where the Jews relieve themselves. The boy's mother goes around looking for her son. When she calls his name near to that pit, the boy begins to sing O Alma Redemptoris Mater. He keeps singing this despite the fact that he is physically dead. The entire machinery of the Catholic Church becomes active to find out the secret of this miracle. An abbot asks the boy in holy Trinity's name to reveal the cause of the singing. And sure enough, it turns out the boy's love for Christ's mother who had put a little grain on his tongue. The abbot then

Chaucer's grand scheme to show man as pilgrim in this mortal life,

in which worldly joys and sorrows are seen in perspective against a

background of the 'endlees blisse of hevene'" (xiii).

J. A. Burrow, on the other hand, suggests that despite the serious religious ending in the Parson's Tale, the book on the journey of the pilgrims is a lively source of fun and amusement (48).

In short, as things stand, these are the two poles in Chaucer criticism: one emphasizes his comically aesthetic art and the other brings forward his rhetorically inclined yet pleasurable portrayal of medieval Christianity. Each side desists from seeing any partisan commitment on the part of the poet. In the view of the Western critics, it seems, Chaucer is either a universally comic entertainer or a corrective force within Christendom. By and large, his asides on the followers of other religions are ignored. Actually, as is clear from Cawley's remarks, the Other is subsumed in the Christian experience. In most critiques, the Christian pilgrims in Chaucer's book are often seen as representatives of all humanity. In such commentaries, the shift from "Christian" to "human" very subtly eliminates the existence of the Other. The purpose of my study is to show that under the guise of humorous/aesthetic presentation of individual Christian lives, Chaucer not only promotes Christian values but also puts down the Other. As it seems to me, Chaucer may have been the first literary intellectual to espouse the cause of political Christendom. The historical Christian adversity toward the Jews and Muslims is pretty loud and clear in his masterpiece, the Canterbury Tales. There, a holier than thou attitude is as clear as

to present a philosophy." Legouis further asserts: "Poetry was his only object" (131). Chaucer's dedication to the artistic endeavor, to his commitment to entertain, is highlighted by several other scholars. John Livingston Lowes, for example, categorically announced in his lectures that Chaucer "had, to be sure, no message"(199). Lowes obviously thinks that there is no teaching or preaching in Chaucer. H. S. Bennett declares: "Irony is part of his omnipresent sense of humour." Bennett further alleges that "Chaucer seldom allows any topic, however serious, to extinguish his realization that even here laughter may have its place. It is not the harsh, tortured laughter of Swift but more akin to that of Shakespeare." Accordingly, continues Bennett, "The Wife of Bath and Sir John Falstaff would have understood each other" (77). The Canterbury Tales, concludes Derek Traversi, is "the unique comic achievement" (236). Opinions on the nature of Chaucer's work had actually been voiced in the poet's own life time. In a poem written in 1386, Eustache Deschamps had praised Chaucer and had called him god of secular love and "glory of squirehood" (qtd in 1Brewer 243).

This enthusiastic portrait of Chaucer as entertainer is balanced by some others who see in him some rhetorical postures. A. C. Cawley, for instance, says in his introduction to Canterbury Tales: "It would be wrong to think of the Canterbury Tales as an entertaining handbook of seven deadly sins, but there can be no doubt that Chaucer's serious study of the didactic literature of his day stimulated and also circumscribed his observation of human nature" (xii). Cawley then observes that there is sufficient ground to see Chaucer as a religious writer. "The Retraction," he says,

is Chaucer's 'good ending' to a series of tales orientated by a medieval

Christian view of life: it is the extreme but logical conclusion of

in questions like the following: "Who told 4000 Israelis workers at the Twin Towers/ To stay home that day" and "Who know five Israelis was filming the explosion/ And cracking they sides at the notion." So, in his black dialect, he seems to be pointing to Zionist Israelis, not the Jews as such for he counts the Nazis among the primeval tormentors, as accessory to the crime of 9/11. Lovers of Chaucer, I hope, will forgive me for putting Mr. Baraka's harangue along side Chaucer's work when they find in my discussion below that this whimsy or fact stated in "Somebody Blew Up America" is of the same order of "othering" that Chaucer resorted to in the Canterbury Tales, particularly in the "Man of Law's Tale." In that kind of "othering," the fear of the Other gets an intellectual certainty and appears as a holy rage.

My aim in this paper is to sketch the exact position of the Other in the Canterbury Tales, to review how the Western critics have seen and interpreted it, and finally to show that Chaucer's work is defined by a promotion of Christian ethos and a denial of grace to the Other.

Chaucer and the Western Critics

"An immense labor of historical adaptation is necessary before our minds are ready to make the aesthetic approach to Chaucer" (Ransom 1114). Much of that labor has already been undertaken and the path toward aesthetic apprehension of Chaucer's work paved and lighted. Chaucer's attitude toward the medieval monastic order, his comic hilarity, his keen observation of the hidden motives behind human actions, and his allegorical immensities have been in various degrees made available to the readers (see in particular Lewis, Pearsall, Bennett, Robertson, and Brewer). Likewise the aesthetic peculiarities of his work have also been stated in no uncompromising terms. "Alone among his contemporaries," observes Emile Legouis, "Chaucer put art first. He did not seek to direct men, to judge events, to reform morals, or

colonialism and bloodshed from the European Middle Ages to the

American twenty-first century; if the White House subsequently

backed away from that rhetoric, the mainstream media referred to

Osama bin Laden as 'primitive' and the Taliban as 'medieval' …(270-271).

Generally, Dinshaw does not seem to be creating the fantasy Middle Ages; instead, she begins to read in Chaucer's story our modern deviances such as misogyny, incest, patriarchy, and of course Muslim violence. The fact is, however, that she makes a connection between the present violence perpetrated by some of the Arab hotheads and the one of their supposedly (for the reason of this qualification, see below my discussion of "Man of Law's Tale") medieval ancestors had done to the Western Christians as shown in Chaucer. She clearly identifies the violent Other with the "Islamicist" (286). But in Chaucer, there is another violent Other that Dinshaw completely overlooks: the Jews in "Prioress' Tale."

And this is where the second response to 9/11, "Somebody Blew Up America" by Amiri Baraka becomes relevant to a discourse of "othering." The speaker in this poem—if it should be called one—assumes the identity of the lowdown America's other, uses his idiom, exploits his rhetorical poses, and makes the reader realize that he, the lowdown and the marginalized, has knowledge and perception that pierces through the mist and can see the reality behind 9/11 which the rich dwellers of penthouses of New Jerusalem have missed altogether. He lays responsibility at the doorsteps of the primeval exploiters and tormentors of humanity, be they Jews or gentile or of any other cultural identity; but he also dubs Bush as "the fake president" and looks askance at the Israelis

Ages, for example, the Muslims were dominant and had occupied Christian and Jewish holy places. Despite their best efforts, the Western Christians could not dislodge Muslims from the holy land. But the contemporary situation is more or less reversed primarily because of West's mastery of science and technology but also due to Judeo-Christian alliance.

Two responses to 9/11, very different from each other, have a bearing on this sort of "othering." And in that respect, they have an uncanny relevance to the Canterbury Tales. While Carolyn Dinshaw's "New Approaches to Chaucer" explores themes such as violence, misogyny, patriarchy, queerness in "Man of Law's Tale," the main thrust of her argument is that Muslims have been and are unjustifiably hostile to Christian nations, particularly those in the West. She actually suggests that Chaucer's Syrian "Sowdanesse" (l.358) cast a long shadow across history and reappeared as the Arab hijackers of planes that killed so many innocent persons on 9/11. Calling the opening section of her essay "Chaucer at Ground Zero," she says:

No scholar nowadays would explicitly create a fantasy Middle Ages

to supply what is perceived as missing in the present day (though in

retrospect it seems always possible to uncover implicit melancholy).

The role of the medieval in popular discourse around September 11

was much more complex as well: President Bush called the war on

terrorism a 'crusade,' invoking an ominously continuous history of

In the binary, self/other, put Christians, Jews, Muslims, West, East, and similar other entities in the position you wish. This process will yield such binaries as Christians/Jews, Christians/Muslims, Jews/Muslims, and West/East or their reverse Jews/Christians…East/West. In each case, obviously, the first group privileges itself and relegates the other to an inferior position. I am not sure whether anyone has thought of trinaries such as Christians/Jews/Muslims or Muslims/Jews/Christians, (father/son/daughter or mother/father/son etc) though as the current situation of these groups warrants, there is an abundant scope of such combinations, which can show the status of one entity in relation to the other two. Now, instead of using the word "privilege," say the first entity is "othering" the other. That is the sense in which I am using the word "other" in this paper. Actually, I have come to believe that "other" is becoming a euphemism for one's "inferiors," "opponents," or "enemies." Bless their souls, Chaucer's Friar (ll. 1280-81) and Summonor (l.1674) have set for us an instructive example. The Friar says:

"Pardee, ye may wel knowe by the name

That of a Summonor may no good be said."

And the Summoner replies: "Freres and feendes been but lyte asunder."

This game of "othering" has been going on since the very beginning. God/Satan, God/Adam, Adam/Eve or the trinaries God/Satan/Eve, God/Adam/Eve, or Satan/Eve/Adam---well, pick the one that suits your purpose. Jews, Christians, and Muslims have been at it throughout history. Each group considers the divine law and will its own preserve and does everything in its power to marginalize, exclude, or demonize the other. In their mission, the success or failure of each has depended on the worldly power each group had enjoyed at a given moment in history. In the Middle

The Other in Chaucer and at Ground Zero

By Mukhtar Chaudhary

ABSTRACT

This paper tries to prove that Chaucer's ungenerous stance toward the Other in his masterpiece, The Canterbury Tales, has been by and large overlooked by the Western critical establishment and that any notice of the existence of the Other is taken to associate open-mindedness to Chaucer and to allege his tolerance for the other value-systems. By examining Chaucer's treatment of Jews, Muslims, and Pagans in the Tales, it is posited that Chaucer not only demonizes the Other but also privileges Christian ethos and that his alleged tolerance is a result of palliative interpretations of his work. In fact, any sympathy on his part for the Other occurs only if the Other shows a clear or implicit partiality to Christian outlook. As such Chaucer, in addition to being the first great poet, is also the first to use poetic powers to promote political Christianity at the expense of other value systems.]

ورد البحث في ٣٠/ ٧/ ١٤٣٥هـ وقُبل للنشر في ١١/ ٢/ ١٤٣٦هـ

الآخر في كتابات تشوسر وفي "أرض الصفر"

د. مختار شودري

جامعة أم القرى – كلية العلوم الاجتماعية – قسم اللغة الإنجليزية

ملخص البحث

يحاول هذا البحث إثبات أن موقف تشوسر تجاه الآخر في رائعته الموسومة "حكايات كانتربري" قد تم تجاهله على نطاق واسع من قبل المؤسسة النقدية الغربية، وأن أي إشارة إلى وجود الآخر تؤخذ على أن تشوسر منفتح ولزعم تقبّله للأديان الأخرى.

عند تفحص تناول تشوسر لليهود والمسلمين والوثنيين في "الحكايات"، نزعم أن تشوسر لم يشيطن الآخر فقط، بل يميّز أخلاقيات النصارى، وأن تسامح تشوسر المزعوم إنما هو نتيجة لقراءة ملطّفة لأعماله. وفي الحقيقة فإن أي تعاطف له مع الآخر يظهر عندما يُبدي هذا الآخر انحيازاً ضمنياً لوجهة النظر المسيحية. وبهذا فإن تشوسر، إضافة إلى كونه أول شاعر عظيم، فإنه أيضا يعد أول من استخدم القوّة الشعرية لنشر النصرانية السياسية على حساب الأديان الأخرى.

The Other in Chaucer and at Ground Zero

By Mukhtar Chaudhary

- Tonkin, E. (2005). Making the Case for a Wiki. Aradne. Retrieved August, 1st, 2013 from http://www.ariadne.ac.uk/issue42/tonkin/
- Wake, D. & Molda, V. (2012).Using Wikis with Teacher Candidates: Promoting Collaborative Practice and Contextual Analysis. Journal of Research on Technology in Education,44 (3), 243-265.
- Wang, C., & Turner, D. (2004).Extending the wiki paradigm for use in the classroom. Proceedings of the International Conference on Information Technology: Coding Computing (pp. 255-259), Las Vegas: IEEE.
- West, J. & West, M. (2009).Using Wikis for Online Collaboration: The Power of the Read-Write Web. San Francisco: Jossey-Bass.
- Wichadee, S. (2010).Using wikis to develop summary writing abilities of students in an EFL class. Journal of College Teaching and Learning, 7(12), 5-10.
- Winder, D. (2007, September). Back to Basics: the Wiki. International World Review, (238), 32–35.
- Woo, J. (2011). Knowledge Building Using Wikis in a Computer-Supported Collaborative Writing Task. Doctoral dissertation: The University of Texas at Austin.

- Parker, K. R., & Chao, J. T. (2007).Wiki as a teaching tool. Interdisciplinary Journal of Knowledge and Learning Objects, 3, 57-71.
- Pellet, S. (2012). Wikis for Building Content Knowledge in the Foreign Language Classroom. CALICO Journal, 29(2), 224-248.
- Phuwanartnurak, J. (2013). Exploring the Use of Wikis for Information Sharing in Interdisciplinary Design. Doctoral dissertation, University of Washington.
- Raitman, R., Augar, N., & Zhou, W. (2005). Employing wikis for online collaboration in the eLearning environment: Case study. Proceedings for the Third international Conference on Information Technology and Applications.
- Rosenblatt, L. M. (1994). The transactional theory of reading and writing. In R. B. Ruddell, M. R. Ruddell& H. Singer (Eds.), Theoretical models and processes of reading (pp. 1055-1092). Newark, DE: International Reading Association.
- Ruth, A. & Houghton, L. (2009).The wiki way of learning. Australasian Journal of Educational Technology, 25(2), 135-152.
- Scarcella, R., & Oxford, R. (1992). The tapestry of language learning: The individual in the communicative classroom. Boston: Heinle & Heinle.
- Scardamalia, M. (2002). Collective cognitive responsibility for the advancement of knowledge. In B. Smith (Eds.), Liberal education in a knowledge society (pp. 76-98). Chicago: Open Court.
- Schwartz, L., Clark, S., Cossarin, M., & Rudolph, J. (2004). Educational wikis: features and selection criteria. The International Review of Research in Open and Distance Learning, 5(1). Retrieved July, 18th, 2013 from http://www.irrodl.org/index.php/irrodl/article/view/163/244
- Swain, M., Kinnear, P., & Steinmann, L., (2011).Sociocultural theory in second language education. Bristol, England: Multilingual Matters.

- Mak, B. & Coniam, D. (2008). Using wikis to enhance and develop writing skills among secondary school students in Hong Kong. System, 36, 437-455.
- Manion, C. &Selfe, R. (2012). Sharing an Assessment Ecology: Digital Media, Wikis, and the Social Work of Knowledge. Technical Communication Quarterly,21 (1), 25-45.
- Mattison, D. (2003). Quickiwiki, Wwiki, Twiki, Zwiki and the Plone Wars wiki as a PIM and collaborative content tool. Searcher, 4(11), 32-48.
- McPherson, K. (2006). Wikis and literacy development. Teacher Librarian, 34 (1), 67-70.
- Mindel, J.L., Verma, S. (2006). Wikis for teaching and learning. Communications of AIS, 18(1), 2–38.
- Nielsen, J. (2000). Designing Web Usability: The Practice of Simplicity. Indianapolis, New Riders.
- Nokelainen, P. (2006). An empirical assessment of pedagogical usability criteria for digital learning material with elementary school students. Educational Technology & Society, 9(2), 178–197.
- O'Day, P. (2002). Reading while listening: increasing access to print through the use of audio books. Unpublished PhD Dissertation, Boston College, Lynch Graduate School of Education.
- Onrubia, J. & Engel, A. (2009). Strategies for collaborative writing and phases of knowledge construction in CSCL environments. Computers & Education, 53(4), 1256-1265.
- Oxford, R. (2001). Integrated Skills in the ESL/EFL Classroom. ERIC Digest. ED456670.
- Oxford, R. L., & Leaver, B. L. (1996).A synthesis of strategy instruction for language learners. In R. L. Oxford (Ed.), Language learning strategies around the world: Cross-cultural perspectives (Tech. Rep. No. 13, pp. 227-246). Honolulu, HI: University of Hawaii Press.

- King, R. (1996). Implementing a basic college integrated reading/writing course: lessons in complexity. PhD Dissertation, School of Education, New York University.
- Kokkinaki, Aikaterini D. (2008). The potential use of wikis as a tool that supports collaborative learning in the context of Higher Education. Research, Reflections and Innovations in Integrating ICT in Education.1119-1123.
- Kolbitsch, J., & Maurer, H. (2006). The transformation of the web: How emerging communities shape the information we consume. Journal of Universal Computer Science, 12(2), 187-213.
- Lantolf, J. P. (2007). Sociocultural source of thinking and its relevance for second language acquisition. Bilingualism: Language and Cognition, 10, 31-33
- Larusson, J. & Alterman, R. (2009).Wikis to support the 'collaborative' part of collaborative learning. Computer-supported Collaborative Learning, 4, 372-402.
- Leacock, T.L., Nesbit, J.C. (2007). A framework for evaluating Leacock, T.L., Nesbit, J.C. (2007).A framework for evaluating learning resources. Educational Technology & Society, 10(2), 44-59.
- Lee, D. (2004). Sense of co-accomplishment in collaborative work as threshold in establishing a sense of community in an online course. Doctoral dissertation, University of Texas at Austin.
- Lowry, P.B., Curtis, A. and Lowry, M.R. (2004a), "Building a taxonomy and nomenclature of collaborative writing to improve interdisciplinary research and practice", Journal of Business Communication, 41(1). 66- 99.
- Lund, A., Smørdal, O. (2006). Is there a space for the teacher in a wiki? Proceedings of WikiSym'06, August, 21–23, 2006, Odense, Denmark, 27–45.
- Lynch, A. (1983). A programme to develop the integration of comprehension skills. ELT Journal, 37 (1): 58-61.

- Hewitt, J., & Scardamalia, M. (1998). Design principles for distributed knowledge building process. Educational Psychology Review, 10(1), 75-96.
- Higdon, J. & Topaz, C. (2009).Blogs and wikis as instructional tools a social software adaptation of just-in-time teaching. College Teaching, 57 (2), 105-109.
- Hsu, J. (2007). Innovative Technologies for education and Learning: education and Knowledge-oriented applications of blogs, Wikis, podcasts, and more. International Journal of Information and Communication Technology Education, 3 (3), 70-89.
- Imperatore, C. (2009). Wikis and blogs: your keys to student collaboration and engagement. Techniques (March), 30-31.
- Johnson, L. (2010). Inherent contradictions: wikis, activity systems, classroom community, and instructional designs for online learning. Doctoral dissertation, Capella University.
- Karasavvidis, I. (2010). Wiki uses in higher education: exploring barriers to successful implementation. Interactive Learning Environments, 18(3).
- Kennedy, E. (2010). Blogs, wikis, and e-portfolios: the effectiveness of technology on actual learning in college composition. Doctoral dissertation, George Mason University.
- Kim, H. N. (2008). The phenomenon of blogs and theoretical model of blog use in educational contexts. Computers & Education, 51(3), 1342-1352.
- Kimmerle, J., Cress, U., & Held, C. (2010). The interplay between individual and collective knowledge: Technologies for organisational learning and knowledge building. Knowledge Management Research and Practice, 8(1), 33-44.
- Kimmerle, J., Moskaliuk, J. & Cress, U. (2011). Using Wikis for Learning and Knowledge Building: Results of an Experimental Study. Educational Technology & Society, 14 (4), 138–148.

- Flora, S. (1995). A case study of literacy development through whole language in a tenth grade language arts classroom. Unpublished PhD Dissertation, School of Education, Drake University
- Flower, L. & Hayes, J. R. (1994).A cognitive process theory of writing. In R. B. RUddell, M. R. Ruddell& H. Singer (Eds.), Theoretical models and processes of reading (pp. 928-950). Newark, DE: International Reading.
- Forte, A., &Bruckman, A. (2006). From Wikipedia to the classroom: Exploring online publication and learning. In Proceedings of the 7th International Conference on Learning Sciences (pp. 182-188), Mahwah, NJ: International Society of the Learning Sciences.
- Glassman, M. & Kang, M. (2011). The logic of wikis: The possibilities of the Web2.0 classroom. Computer-Supported Collaborative Learning, 6, 93-112.
- Goldspink, C. (2010). Normative behaviour in Wikipedia. Information, Communication and Society, 13(5), 652-673.
- Goodwin-Jones, R. (2003). Blogs and wikis: Environments for on-line collaboration. Language Learning & Teaching, 7, 12-16.
- Hadjerrouit, S. (2010). A conceptual framework for using and evaluating web-based learning resources in school education. Journal of Information Technology Education, 9, 53-79.
- Hadjerrouit, S. (2012).Pedagogical criteria for successful use of wikis as collaborative writing tools in teacher education. In: Third International Conference on e-Education, e-Business, e-Management and e-Learning (IC4E 2012), 27, Hong Kong, January 5–7, 11–15.
- Hazari, S., North, A., Moreland, D. (2009).Investigating pedagogical value of wiki technology. Journal of Information Systems Education, 20, 2, 187-98.
- Hewege, C. & Perera, L. (2013). Pedagogical significance of wikis: towards gaining effective learning outcomes. Journal of International Education in Business, 6 (1), 51-70.

- Caverly, D. & Ward, A. (2008). Techtalk: Wikis and Collaborative Knowledge Construction. Journal of Developmental Education, 32 (2), 36-37.
- Chao, Y-C.J., Lo, H-C.(2009). Students' perceptions of wiki-based collaborative writing for learners of English as a foreign language. Interactive Learning Environments, 1–17.
- Chen, P.-S.D., Lambert, A. D., & Kevin, G. R. (2010).Engaging online learners: The impact of Web-based learning technology on college student engagement. Computers & Education, 54(4), 1222-1232
- Chen, Yu-ching (2008). The effect of applying wikis in an English as a Foreign Language (EFL) class in Taiwan. Unpublished Doctoral Dissertation. University of central Florida. AAT 3335337.
- Collier, J. (2010). Wiki Technology in the Classroom: Building collaboration skills. Journal of Nursing Education, 49(12), 718.
- Coyle, Anne C. (2010). Collaborative and Networked Pedagogies: Using Wikis in the Composition Classroom. MA dissertation, University of Wyoming.
- Cress, U. & Kimmerle, J. (2008). A systemic and cognitive view on collaborative knowledge building with wikis. Computer-Supported Collaborative Learning, 3, 105-122.
- Cubric, Marija (2007). Wiki-based process framework for blended learning.WikiSym'07 October 21–23, 2007, Montréal, Québec, Canada.
- Désilets, Alain; Paquet, S. (2005). Wiki as a tool for web-based collaborative story telling in primary school: A case study. National Research Council Canada Institute for Information Technology.
- Evans, C. (2008). The effectiveness of e-learning in the form of podcast revision lectures in higher education. Computers & Education, 50(2), 491-498.

References

- Allen, H. (2012). Principal candidates use wikis to create collaborative technology plans. International Journal of Arts & Sciences, 5(5), 153-159.
- Allred, M. (1994). Content-based language instruction and learning a foreign language in high school: the restructuring of a learning environment. PhD Dissertation, Utah state University at Logan.
- Anderman, E., Dawson, H. (2011). Learning with motivation. In: Mayers, R.E., Alexander, P.A. (Eds.), Handbook of Research on Learning and Instruction, 219–214. New York, Routledge.
- Bawarshi, A., & Reiff, M. (2010).Genre: An introduction to history, theory, research, and pedagogy. West Lafayette, IN: Parlor Press.
- Beldarrain, Y. (2006). Distance education trends: Integrating new technologies to foster student interaction and collaboration. Distance Education, 27(2), 139-153.
- Bold, M. (2006). Use of wikis in graduate course work. Journal of Interactive Learning Research, 17(1), 5-14.
- Boulos, M. Maramba, I. & Wheeler, S. (2006). Wikis, blogs and podcasts: a new generation of Web-based tools for virtual collaborative clinical practice and education. BMC Medical Education, 6 (41), 6-41. doi:10.1186/1472-6920.
- Bryant, T. (2006).Social software in academia. EducauseQuarterly, 29(2), 61-64.
- Cabiness, C. Irvine, J. & Grove, G. (2013).Integrating Wikis in the Support and Practice of Historical Analysis Skills. TechTrends, 57 (6), 38-48.
- Campbell, K. & Ellingson, D.A. (2010). Cooperative learning at a distance: An experiment with wikis. American Journal of Business Education, 3(4), 83-89.

other's, as well as their own, learning behaviour. Further research should also investigate the effects of incorporating multimedia in wikis on developing listening and reading skills. Future research should also furnish us with more findings about the quality of using approach in language learning, and it should help us to infer further adjustments to better meet the learning needs of language students.

Indeed, offered useful guidance for practitioners or instructors in higher education to help learners experience successful knowledge building in online collaborative learning context. However, wiki-agogy could only be useful only when learners were well-prepared to participate in the knowledge building process. Participants must be encouraged to suggest new ideas freely and not to be afraid of negotiate different ideas. Instructors can provide specially designed training on key elements of collaborative learning or engage them in a smaller scope of knowledge building tasks before starting larger of more complex knowledge building activities. Also, learners need to be provided with opportunities to practice negotiation skills and project management skills. Providing training and tasks for exercising collaborative knowledge building skills will help learners internalize such skills and help develop a culture of progressive knowledge advancement (Hewitt & Scardamalia, 1998).

In the collaborative writing activity, to avoid juxtaposition of individual contributions, use of collaborative writing strategies are necessary but not sufficient for reaching the higher phases of collaborative construction of knowledge (Onrubia & Engel, 2009). Moreover, the tool should be designed to support 'group awareness'. However, much of the potential success of this teaching tool on what language instructors are keen to do to encourage language learning using wikis.

Recommendations for Further Research

Several potential areas for future research should consider the use of written discourse within the topical framework of integrated reading/writing courses as well as the potential problems identified with assessment and evaluation of assignments. Research should focus on the use of wikis in synchronous networked environments, rather than in online classes that mirror the traditional classroom in order to help understand how and when students monitor each

2011; Larusson & Alterman, 2009; Manion & Selfe, 2012; Phuwanartnurak, 2013).

Consistent with previous research (Cabiness, et al., 2013), the use of wikis realises the goal of education as not only demonstrating content memorisation and understanding, but also fosters life-long learning skills, such as critical thinking and problem-solving which is also achievable in wikis.

Wiki writing tasks usually involve a constant idea improvement process, which is a cyclical learning process involving reading before writing, writing, editing, reading and copy-editing. As noted by Lowry et al. (2004), wiki-writing is a collaborative writing activity which constantly involves the learners in brainstorming, outlining, drafting, reviewing, revising, and copyediting. These key activities tend to occur in dynamic and iterative ways. Through experiencing the dynamic process of collaborative writing, the participants can spontaneously get engaged in idea generation, production and improvement throughout the constant process of writing, rewriting and editing. Congruent with prior research (Bryant, 2006; Parker & Chao, 2007; Wang & Turner, 2004; Campbell & Ellingson, 2010; Hadjerrouit, 2012; Kimmerle, Cress & Held, 2010; Schwartz, Clark, Cossarin, & Rudolph, 2004; Scardamalia, 2002), wiki-agogy involves the constructive use of online reading sources which requires an understanding and assimilation of the sources with a critical perspective.

Implications for Pedagogy

The major contribution of this study is to explore the effects of wikis to support learning integrated reading and writing on the one hand and reading on the other in the collaborative medium of Blackboard. The findings of this study provided insights on the factors that influenced the collaborative literacy community.

improvement of students' writing and reading; this finding is commensurate with many previous studies (Chen, 2008; Mak & Coniam, 2008; Tonkin, 2005; Lee, 204). The significant improvement on the participants' score was due to the fact that students realized that their written work was read, reviewed, and corrected by all team members. Collaboration plays an important role; it encourages them to learn from others and write more carefully. Furthermore, the working process is systematic and becomes a means for reconsidering both content and organization. It helps the students to raise their awareness of creating a good piece of writing. This interpretation is consolidated by findings from prior research (Caverly & Ward, 2008; Coyle, 2010; Higdon & Topaz, 2009; Imepratore, 2009; McPherson, 2006; West & West, 2009).

The use of wikis for developing reading and writing skills in the context of an advanced writing course testified to the benefits of wikis as evidenced by the findings borne out from this research. A further potential explanation for improvements in reading and writing performance can be attributed to the opportunity made available by wikis for all students to get engaged in a rich discourse in a much less stressful or stringent learning environment. The creation of wikis used to occur in a non-threatening environment where students were encouraged to promote their critical thinking skills as evident in the way they were asked to read online, develop their own writing and post it, and then follow up contributions to the wiki more frequently to improve it. The flexible environment of a wiki supports collaborative learning which can have a positive impact on student learning, leading to improvements in integrated reading and writing instruction as well as in improving critical thinking skills upon reading comprehension – a finding that reverberates in the literature (Allen, 2012; Cress & Kimmerle, 2008; Hsu, 2007; Johnson, 2010; Kimmerle, Moskaliuk & Cress,

Discussion

Regarding the writing skills and the integrated reading/writing skills, this study found that wikis helped students to produce high quality pieces of writing by increasing writer participation and providing young writers with greater enthusiasm, motivation and greater satisfaction. This finding is compatible with prior research which found that student participation in online asynchronous discussion or other collaborative tasks sometimes results in a low level construction of knowledge (Bryant, 2006; Parker & Chao, 2007; Wang & Turner, 2004; Campbell & Ellingson, 2010; Hadjerrouit, 2012; Kimmerle, Cress & Held, 2010; Schwartz, Clark, Cossarin, & Rudolph, 2004) or sharing of information. The literature reviewed provided clear-cut evidence that wikis can promote collaborative reading/writing work among college students in a constructivist fashion (Campbell & Ellingson, 2010; Hadjerrouit, 2012; Schwartz, Clark, Cossarin, & Rudolph, 2004; Wichadee, 2010). Reviewing the student work submitted over one semester – the duration of the present study – provides concrete evidence that the literature is correct. Implementing wikis in this study has proven that it does enhance student writing and student reading and writing by integration which is also congruent with prior research (Kokkinaki, 2008; King, 1996; Hewege & Perera, 2013; Kennedy, 2010; Larusson & Alterman, 2009; Pellet, 2012).

The improvements can be justified by the fact that peer editing and collaboration increase student awareness of problem areas in their own and in their peers' writings which drew from authentic, meaningful, and active experiences of and on their own. In the wikis students read the work of an unknown author and offered critiques; this further adds up to the development of reading and collaborative writing tasks.

The present research findings further suggest that wikis can be effective learning/teaching tools that may contribute to the

Table 7: Results of the t-test of the post-test of the experimental and control group on the reading test.

Group	N	M	SD	t-valu	df	Sig.
Ex	30	104.63	2.25	62.31	63	.05
Ctrl	33	54.53	3.79			

It is obvious from Table (7) above that there is a statistically significant difference at 0.05 (one-tailed) between the mean scores of the experimental group (M=104.63) and the control group (M=54.53) in the post-test of the reading test in favour of the experimental group as indicated by the t-value (62.31). A pre-test/post-test comparison of the mean scores of the experimental group further disconfirms the hypothesis that there were no statistically significant differences between the experimental group and the control group on pretesting, and further on pre-testing versus post-testing mean scores of the experimental group to the good of posttesting. Table (8) below summarises this finding.

Table 8: Results of the t-test of the pre-test/ post-test of the experimental group on reading

Experimental group	N	M	SD	t-value	df	Sig.
Pre-test	30	54.30	4.23	58.62	60	.05
Post-test	30	104.63	2.25			

Table (8) above indicates that there is a statistically significant difference between the mean scores of the pre-test (M= 54.30) and post-test (M= 104.63) of the experimental group students on overall reading test in favour of the post-test. Hence, such difference may be due to the effect of the experimental treatment exemplified in the Reading and Wiki Writing modules which the experimental group received. This difference may be attributed to the effect of the experimental treatment exemplified in the wikis modules for developing reading and writing which only the experimental group received.

demonstrates that teaching reading and writing in an integrated way using wikis could yield better improvements in reading/writing together rather than in one skill at a time. Although both the groups showed improvement suggesting that the contents of the course are appropriate, yet the overall differences across all skills as shown in table (5) and (6) indicate that a significant difference can be achieved by simply shifting the emphasis from teaching language skills in isolation to teaching them in an integrated pedagogy. Moreover, the most significant improvement occurred to students' writing skill, mainly because the researcher's focus was mainly on teaching writing skill while reading was utilised in integration with the writing skill. This accounts for the marked difference in the improvement of writing skill.

Based on the results in the above tables, the data suggests that there are significant differences between the experimental group research students' performance on the skills of reading and writing before the treatment and after it in favour of the post-treatment assessment; this finding is commensurate with prior research findings indicating that integrated skills teaching is effective in improving language skills improvement (O'Day, 2002; Flora, 1995; King, 1996; Lynch, 1983; Scarcella & Oxford, 1992; Rosenblatt, 1994; Allred, 1994; Oxford & Leaver, 1996; Flower and Hayes, 1994; Oxford, 2001).

Results on Reading Skills

The effect of the wiki modules on students' reading was investigated and determined in comparison with that of traditional instruction of the Writing IV course to the control group. As shown by the results of the study, students in the experimental group improved their reading significantly compared with the control group (See table 7 and figure 4 below).

The data presented in (Table 5 and Table 6) below shows improvement on pretest/posttest comparisons on reading/writing skills. As the t-values indicate, there is a significant difference between experimental and control students (p = 0.000) in favour of the experimental class in the tested skills following exposure to a wiki-based integrated content instruction of the course. The second hypothesis is, therefore, verified.

Table 5: Pre/Post Testing Comparisons of Students' Performances on Tested Skills

Skills	Groups	N	Mean	SD	t-value	Sig.
Reading skills after	Experimental	30	41.1333	3.75760	5.372	.000
	Control	33	35.7879	4.10607		
Writing skills after	Experimental	30	35.9667	2.83431	2.543	.014
	Control	33	34.0303	3.17692		
Reading & writing skills after	Experimental	30	77.1000	4.86614	5.245	.000
	Control	33	69.8182	6.02316		

Table 6: Pre/ Post testing Comparisons of Experimental Group Performances on Tested Skills

Experimental Group		N	Mean	SD	t-value	Sig.
Pair 1	Reading skills before	30	34.17	4.557	-7.909	.000
	Reading skills after	30	41.1333	3.75760		
Pair 2	Writing skills before	30	33.97	4.476	-4.192	.000
	Writing skills after	30	35.9667	2.83431		
Pair 3	Reading &writing skills before	30	68.13	7.754	8.715-	.000
	Reading & writing skills after	30	77.1000	4.86614		

The results of the quantitative data in the tables above which shows a significant increase (p < .000) in the experimental group's gain scores in comparison with those of the control group's

obtained t-values and their significance levels are shown in (Table 4) below.

Table 4: Group Equivalence as Measured by All Skills Pretesting

Skills	Groups	N	Mean	SD	t-value	Sig.
Reading skills before	Experimental	30	34.17	4.557	-.165	.870
	Control	33	34.36	4.911		
Writing skills before	Experimental	30	33.97	4.476	.060	.953
	Control	33	33.91	3.106		
Reading & writing skills before	Experimental	30	68.13	7.754	.057	.955
	Control	33	68.03	6.687		

The table above demonstrates that there were no statistically significant differences between the experimental and control groups on pre-assessment. In this way, the first hypothesis was verified, and group equivalence was confirmed before the study was started. The other hypotheses of interest are related to the study variables intended to measure students' levels of achievement in the content area, using an integrated reading/writing skills test that tapped into the reading comprehension, and writing skills of the students as a result of integrated reading/writing and content instruction within the Writing IV course. Afterwards, measures of students' achievement on reading/writing were obtained after all students, in both the experimental and the control groups, had completed the Writing IV course with an integrated skills pedagogy using wikis in the case of the experimental group and traditional teaching of the course in the case of the control group.

Hypothesis II: Pre/Post-treatment Comparisons on Reading/Writing Skills by Integration

Sample Distribution		Frequency	Percent
Groups	Experimental	30	47.6
	Control	33	52.4
	Total	63	100.0

Hypotheses

This study was designed to test the following null hypotheses ($p \leq 0.01$):

1) There are no statistically significant differences between the mean scores of students in writing and writing before the experiment in the experimental and control groups on pretesting (to ensure group equivalence).
2) There are statistically significant differences between the mean scores of the experimental students' writing skills and the mean scores of the control students on post-testing to the good of post-treatment.
3) There are statistically significant differences between the experimental and the control students in their gain scores on writing skills in favour of post-treatment.
4) There are statistically significant differences between the experimental and the control students in their gain scores on reading skills in favour of the experimental group on post-testing.

Results

Hypothesis I: Group Equivalence

To test the first null hypothesis in order to make sure that students began the experiment at comparatively similar levels of skills, a t-test was computed to reassure group equivalence; the

Procedures	Phases of Teaching	Purposes
Introduction: (to gain students' attention and introduce the topic)	Pre-writing phase, including webquesting and online reading of relevant materials	-To introduce the activity -To activate students' background knowledge
Task (doable and interesting)		-To set the purpose for reading-To assign students' role
Process (to provide step by step instructions, resources and guidance for students in order to complete the task)	Reading phase	-To provide reading practice and feedback opportunities for students
	Post-reading phase/Pre-writing phase (Planning)	-To check reading comprehension and skill mastery -To discuss difficulties & problems students encountered while reading -To help students compile and analyze information -To prepare the language needed for writing
	Writing phase (drafting)	-To complete the task
Evaluation (to provide rubrics on how the task will be evaluated)	Post-writing phase (revising and editing)	-To evaluate the task -To give feedback and suggestions on students' reading/writing tasks

The study involved an analysis of the performance of two groups of students. The experimental group (30 students) was taught the reading/writing skills in an integrated content approach of instruction involving pre-writing activities with embedded reading and webquests of the choice of the researcher. The control group (33 students) completed the same course with no particular emphasis on writing development through wiki building. The two groups were two sections assigned to the researcher for teaching Writing IV.

Table 2

3- The Process of the Wiki Writing: this stage includes four sub-stages:

a- *The Reading Phase:* this includes giving instructions, online resources, and guidance for students to complete reading of the textbook passages and the online resources. It also includes feedback opportunities for students.

b- *The Post-Reading Phase:* this includes checking the students' reading comprehension and skill mastery, and discussing difficulties students encounter while reading.

c- *Pre-Writing Phase (Planning):* this includes assessing students' needs for writing, using reading of textbook passages and the online resources to write.

d- Writing Phase (Drafting): in which students complete the task of writing and post their writing on Blackboard wikis. This phase is cyclical as students can go to and fro through this stage by adding, deleting or modifying published wikis.

4- Evaluation (The Post-Writing Phase): in this phase, the instructor provides the rubrics on how the writing task is evaluated and the feedback of students' writing. These are available on the Blackboard wikis pages for the students.

The second was concerned with reading/writing sessions which consisted of 3 phases: pre-writing, reading, and post-writing stages. Below is a summary of the teaching stages of the experiment stages of reading and process writing via wikis.

Khalid University. The research was introduced during the first week of instruction, to give the experimental students an opportunity to learn basic wiki development skills as they were enrolled in a blended course. Control students were taught the course skills wholly in a traditional way.

Procedures of the Study

The writing instructor and the students followed a collaborative and constructivist approach to the development of wikis based on the pre-specified objectives of the Writing IV with a focus on essential reading and writing skills. The first step is the design of the content of the wiki modules in terms of designing interesting tasks, assigning students' roles, finding relevant and appropriate resources' links, providing enough or suitable scaffolding, evaluating rubrics for evaluating students' writing products. The tasks of teaching are based on the wiki writing phases and process writing. Therefore, when implementing wikis for students, the teaching plans are designed to provide clear tasks of writing instruction. For purposes of the present study, there were two major phases of implementing the wiki-based approach to teaching reading and writing. The first phase dealt with the tasks and procedures in teaching writing. These included the tasks of pre-writing (planning), writing (drafting), and post-writing (revising and editing) as follows:

1- **Introducing wikis:** the instructor introduces the topic to the students. This step includes the pre-reading phase in which the instructor introduces the reading activity and activates the students' background knowledge.

2- **The Task:** in which the teacher sets the purpose for reading as a pre-writing technique and writing per se, and then assigns students' roles in a collaborative production process where dyads and triads.

T-tests and gain scores were used to compare students' performance on the reading and writing skills of both the experimental and control groups. Improvement, or gain in achievement or skill acquisition and development, from pretest to posttest could be computed for each participant by subtracting each person's pretest score from his or her posttest score (Gain score = posttest – pretest). The gain score controls for individual differences in pretest scores by measuring the posttest score relative to each person's pretest score.

Test Validity

To compute the consistency of the test items, the researcher used the Pearson Correlation Coefficient to calculate the correlation of the test skills with the test as a whole. Table 1 describes the results.

Table 1: Correlation coefficients of each skill with total score

Skills	**Correlation with total**
Reading	.861**
Writing	.856**

Data in the table above indicates that all correlations are significant at 0.01 level, suggesting that the test has an adequate internal consistency validity.

Test Reliability

The test reliability coefficient was computed using Cronbach's alpha for all items; the Cronbach's alpha was 0.767, which is a satisfactory level for the test.

Participants

Sixty three male students enrolled in the course with various computer literacy skills; they were randomly assigned to the two research groups, with the experimental group enrolled in Writing IV as a blended course, using Blackboard as the main LMS in King

supporting student knowledge and building collaboration among students (Glassman & Kang, 2011; Hewege & Perera, 2013; Kennedy, 2010; Larusson & Alterman, 2009; Pellet, 2012; Wake & Modla, 2012; Woo, 2011). Providing a flexible and rich learning environment can support students in their own knowledge building, while supporting a collaborative learning environment (Cress & Kimmerle, 2008; Hsu, 2007; Kimmerle, Moskaliuk & Cress, 2011; Manion & Selfe, 2012).

In addition, the wiki designer should regard the vision of the wiki, its significance and its goals in an online course or in a learning project and how it will be used and completed by the participant learners (Allen, 2012; Johnson, 2010; Phuwanartnurak, 2013). A final issue relates to assessment: should assessment occur for using the technology or the creation of content, or both? And in any case, how will they be assessed for their work in a wiki?

Despite the importance of wikis in e-learning, there is noticeable paucity in experimental research studies that explore the effects of using wikis for learning, specifically in language learning. Recently, wikis hold a rapidly and increasingly used language medium, but there is a need for studies that address their use in education and how they can be utilized in school subjects (Lund & Smørdal, 2006).

Methodology

Design and Method

This study was experimentally designed to assess the effects of a wiki in an advanced writing online course, utilizing a pretest, posttest, control group design. The participants of the study were students enrolled in a 12-week Writing IV course in a South-western region in Saudi Arabia.

Instrumentation & Validation

well as guide and organise students' interaction in a collaborative way.

Extant literature on wikis has accumulated substantial and compelling testimony in favour of wikis being an ideal collaborative learning pedagogy which incorporates "collaborative learning, peer interactions, group work, sharing, empowering and building a sense of community" (Hewege & Perera, 2013). In this vein, Ruth and Houghton (2009) contentiously claimed that incorporating wikis in the curriculum requires educators to abandon the traditional learning and teaching approaches to the advantage of newfangled ways of thinking, learning and acquiring knowledge, skills and competencies. Therefore, researches advocate the adoption of a wiki thinking approach that challenges current curricular designs especially in the language learning domain.

A good design of the components of a good wiki should include the preformatting of the basic wiki. This would require outlined materials, a communication section, a date section, and a coordination section for guiding multiple users through their information discovery and responsibilities. For better scaffolding of a wiki in order for it to support a variety of learning activities, some components may need to be added, depending on the learning activity (Larusson and Alterman, 2009).

Further, and above all, researchers suggest that for a wiki to be a successful learning too, students should be familiarised with the wiki by learning from the tutorials available through the wiki, in addition to using informal group activities to provide an opportunity to become familiar with the functions and features of the wiki.

Implications of research findings indicate the importance of integrating wiki tools in e-learning activities, either full-fledged virtual classes or blended learning; wikis as such can be used to serve as a medium, not only for the delivery of content, but also in

academic writing skills and content-based learning (Caverly & Ward, 2008; Coyle, 2010; Campbell & Ellingson, 2010; Hadjerrouit, 2012; Higdon & Topaz, 2009; Imperatore, 2009; McPherson, 2006; Pellet, 2012; Schwartz, Clark, Cossarin, & Rudolph, 2004; West and West, 2009; Wichadee, 2010).

Established research findings point to the pedagogical value of wikis and demonstrate the usability of wikis (Anderman and Dawson, 2011; Chao and Lo, 2009; Chen, 2008; Hadjerrouit, 2010; Hazari et al., 2009; Leacock and Nesbit, 2007; Lund & Smørdal, 2006; Mattison, 2003; Mindel and Verma, 2006; Nielsen, 2000; Nokelainen, 2006). For instance, research suggests that collaborative learning settings designed to create an online inter-subjective space such as wikis can adequately support student's cooperation. Cabiness, Irvine & Grove (2013) explain this as follows:

> Through the use of wikis, groups of individuals collaborate on various topics by adding text, images, videos, as well as other multimedia elements into one cohesive final product … The intent of wikis is to foster collaboration in an asynchronous working environment (p. 39).

Furthermore, the structure of a wiki is significant in offering students and teachers alike equal access to the wiki content in order for them to co-edit, or coordinate their writing and reading assignments (Cubric, 2007; Hazari, et al., 2009; Larusson and Alterman, 2009). According to Cubric (2007), careful structuring of wikis is conducive to students' engagement in interactive learning which can result in positive outcomes for the students in their learning experience in using the wiki. In this vein, too, Larusson and Alterman (2009) suggested that scaffolding a wiki with project-related materials can help create an elastic structure of the wiki as

language skills development; for instance, Mak & Coniam (2008) examined authentic writing through the use of wikis for developing authentic and creative writing, concluding that this tool is effective in its affordance for collaborative writing. Furthermore, Lee (2004) and Coyle (2010) proved that wikis had a positive impact on the development of students' writing skills through collaborative engagement, too, compared with conventional collaborative methods of writing instruction. Wikis can also be used for improving student interactions in computer-mediated communication (CMC) settings from primary to tertiary educational institutions (Beldarrain, 2006; Boulos, Maramba & Wheeler, 2006; Chen, 2008; Cubric, 2007; Collier, 2010; Chen, Lambert & Kevin, 2010; Hadjerrouit, 2010; Désilets & Paquet, 2005; Hazari, North & Moreland, 2009; Kokkinaki, 2008).

This study is, therefore, designed to glean empirical data to explore the effects of wikis on improving reading and writing skills in EFL college students. The overall purpose is to answer the following research question:

What are the effects of the use of wikis on developing reading and writing skills in EFL college students?

Literature Review

By definition, wikis are online tools that are used to help interested learners or teachers to create and edit web pages in a way that promotes collaborative content creation and editing and empowers them with a sense of responsibility, ownership and authority in wiki writing (Bold, 2006; Goodwin-Jones, 2003; Raitman, Augar, & Zhou, 2005; Tonkin, 2005). Research findings indicate that wikis can provide user-friendly interfaces malleable enough to allow for collaborative content editing, knowledge building, and knowledge archiving and online interaction – features which help in developing and improving reading and writing skills,

Introduction

Literacy is now significantly being challenged by technological literacy. New technologies of online course delivery methods have burgeoned new opportunities for language learners to develop their language skills and possess an awareness of and a familiarity with the new technology-based educational environment (Lantolf, 2007; Swain, Kinnear, & Steinman, 2011). In this regard, Bawarshi & Reiff (2010) aptly observed that "language structure is integrally related to social function and context. Language is organized the way it is within a culture because such an organization serves a social purpose within that culture (Bawarshi & Reiff, 2010, p. 29).

This assumption regarding the influence the diverse nature of the sociocultural environment has on language learning has adduced to the emergence of so-called "social software" (Kolbitsch & Maurer, 2006). These are computer-based communicative learning tools that assist people in communicating, interacting, and collaborating via online communities. A result of the appearance of such social software is the development of the Online Encyclopedia, commonly known as Wikipedia (Goldspink, 2010).

Since 1996, researchers have begun to investigate the role that wikis can potentially play in the classroom, creating much excitement at the theoretical and practical levels of pedagogy (Manion & Selfe, 2012). Educators are currently using social software applications in educational contexts (Evans, 2008; Forte & Bruckman, 2006; Kim, 2008; Kimmerle, Cress, & Held, 2010), given their latent influence in disseminating and building knowledge and/or facilitating learning various educational settings (Bryant, 2006; Parker & Chao, 2007; Wang & Turner, 2004).

Wikis are especially useful for developing writing and reading skills. Prior research investigated the effectiveness of wikis in

أثر استخدام المحررات الجماعية الحرة في تطوير مهارات القراءة والكتابة لدى طلاب اللغة الإنجليزية بوصفها لغة أجنبية

د. عبد العزيز بن إبراهيم الفقيه

ملخص البحث

تم تصميم هذه الدراسة لاستقصاء أثر المدونات الحرة السريعة في تنمية مهارات القراءة والكتابة لدى طلاب اللغة الإنجليزية بوصفها لغة أجنبية في المستوى الجامعي. وقد قام الباحث بتصميم بحثه وفق منهجية الاختبار القبلي والبعدي المصاحب لمجموعة ضابطة للبحث في أثر تلك المدونات الجماعية السريعة للوقوف على مدى تأثيرها في مخرجات تعليم الكتابة والقراءة بالتكامل باستخدام بيئة البلاكبورد للتعلم الإلكتروني.

وقد أظهرت النتائج تحسناً ملحوظا في أداء الدارسين في القراءة والكتابة لصالح المجموعة التجريبية التي درست موديولات التعلم بالمحررات الجماعية الحرة في بيئة البلاكبورد. وانتهى البحث إلى جملة من التوصيات والتضمينات التربوية.

ورد البحث في ٢٣/ ٤ / ١٤٣٥هـ وقُبل للنشر في ١٤/ ١١ / ١٤٣٥هـ

Effects of Using Wikis for Developing Saudi EFL Students' Reading and Writing Skills

Dr. Abdul Aziz al Fageeh

ABSTRACT

This study was designed to investigate the effects of wikis on developing reading and writing skills of EFL college students. The researcher designed an experimental pretest/posttest control group research method to explore the effects of using wikis on writing instruction outcomes and the learners' reading skills in the Blackboard® environment. Findings showed improvements on the reading/writing performance of students and their performance on the reading test in favour of the experimental participants who received wiki modules on Blackboard. Recommendations and implications for further research and pedagogy were forwarded at the end of the paper.

Keywords: wikis, reading, writing, skill integration, EFL, Blackboard®

Effects of Using Wikis for Developing Saudi EFL Students' Reading and Writing Skills

Dr. Abdul Aziz al Fageeh

Umm Al-Qura University
Journal of Languages and Literatures

Aims and Scope

The journal is a referred scientific periodical, issued biannually by Umm Al-Qura University. It aims at publishing original academic works in the fields of linguages & Literature. It accepts book reviews, funded research reports, recommendations of conferences, symposia and academic activities, and dissertation abstracts. Researches in both Arabic and English from Umm Al-Qura University and elsewhere are accepted, on condition that they have not been published or beng presented to be published in another publication. All researchrches are to be revewed by the editors and referred by specialists in the fields.

Board of General Supervision

Dr. Bakry bin Matuq Assas

Chancellor, Umm Al-Qura University

Dr. Thamir Bin Hmdan Al-Harbi

Vice-Rector for Graduate Studies and Scientific Research

Editor in Chief

Prof. Abdulrahman H. Al- Aref

Editorial Board:

Prof. Saad Alghamdi

Dr. Muhammad Alqurashi

Dr. Dhafer Alamri

Dr. Abdullah Alqarni

Dr. Fahad Alqurashi

Dr. Afaf Khoger

Dr. Mariam Alqahtani

In the Name of Allah

The Most Gracious The Most Beneficent

PUBLICATION NOTES

1- Materials submitted for Publication in *Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature* (UQUJLL) will be accepted according to the followings:

a) Four paper copies of the manuscript, and a CD copy are required.
b) The manuscript should be double-spaced, written in Microsoft Word, using Times New Roman Font, size 16 on A4 paper-size. Manuscript length should not exceed 40 pages, including tables, figures and references.
c) Tables and Figures should be presented on separate sheets, with their proper text position indicated in the original manuscript.
d) Abstracts in both Arabic and English within 200 words each should be submitted.
e) Author's name and affiliation should be written on a separate sheet along with a brief CV. A signed consent from the author(s) that the manuscript has not been published or submitted to another publication.
f) Original figures should be presented on a CD, using appropriate computer software.

2- All references within the text are to be cited according to the followings; Last name of the author, year of Publication, and page number(s) when quoting directly from the text. For example, (Abu Zaid, 1425, p.15). If there are two authors, last names of both authors should be provided for example, (Al-Qahtani & Al-Adnani, 1428, p.50). In case there are more than two authors for the same reference, citation should be in the following form: (Al-Qurashi et al., 1418, p.120). Citations of two references for two authors should be as follows: (Al-Makki, 1425; Al-Madani, 1427) while citation of two references for one author having the same year of Publication should take the form (Al-Mohammady, 1424a, 1424b).

3- All references are to be listed sequentially at the end of the manuscript in an alphabetical order, according to the author(s) last name(s), followed by the first name(s) or their abbreviations; the book title (underlined), or the article title (between quotations).The number of the edition, name of the publisher (for books) or journal, place of publication (for books), and year of publication. For articles, the volume of the journal; or the year, number, and page numbers should be provided.

4- Authors will be provided with 20 reprints, along with a copy of the journal's volume in which the work appears. A free of charge copy will also be forwarded to book reviewers& report dissertation abstract writers.

Correspondence: All correspondences and subscription requests should be addressed to: *Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature* (UQUJLL). Umm Al-Qura University. P.O.Box 715 Makkah, Saudi Arabia.

E-mail: jll@uqu.edu.sa

Exchanges and Gifts: Requests should be directed to: Deanship of Libraries Affairs. Umm Al-Qura University. P.O. Box 715 Makkah, Saudi Arabia.

Copyrights: Materials published in UQUJLL solely express the views of their authors, and all rights are reserved to Umm Al-Qura University Press.

Subscriptions (Annual) fees: Seventy-five Saudi Riyals, or twenty US dollars (price per issue + shipping & handling).

Notification: The current Umm Al-Qura University Journal for Languages & Literature (UQUJLL) used to be part of Umm Al-Qura University Journal of Shariah & Islamic Studies.

ISSN: 1658 / 4694

Umm Al-Qura University

Journal of Languages and Literatures

Volume No. 14

Muharram 1436 Ah. October 2014